



شاعر الثورة الجزائرية

مفدي زكرياء

حصص إذاعية

بالتعاون مع مؤسسة
مفدي زكرياء.

ENAG



EDITIONS

تصدير

إن مؤسسة مفدي زكرياء، وفاء منها للرسالة التي ارتضتها لنفسها، ما إنفكت تعمل على التعريف بحياة شاعر الثورة الجزائرية وآثاره من خلال تنظيم ملتقيات علمية قامت بطبع أعمالها ومن خلال إصدار ديوان شعري ضمنته القصائد التي لم يدرجها الشاعر في الدواوين التي تولى إصدارها بنفسه.

يجدر بالملاحظة أن مفدي زكرياء لم يكن شاعرا فحسب بل كان مناضلا من أجل القضية الوطنية وهو ما جعل حياته تمتزج بتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية منذ نشأتها وتواكب مسارها الذي مهد لاندلاع الثورة التحريرية بقيادة جبهة التحرير الوطني.

ودفع الشاعر المناضل ثمنًا لإلتزامه المتواصل من زهرة شبابه في الاعتقالات المتعددة في السجون الاستعمارية وكلفه ذلك مصادرة أملاكه وأعزها ووثائقه الشخصية ومخطوطاته.

ولذا سجلت "مؤسسة مفدي زكرياء" من بين أولوياتها التنقيب على آثار الشاعر المبعثرة في شتى أماكن ووجهت اهتمامها نحو العثور على الإنتاج النثري للشاعر، من مقالات ومحاضرات وأحاديث إذاعية ومراسلات... وكل ذلك يشكل الجانب المجهول لدى الجمهور الواسع الذي لم يعرف في مفدي إلاَّ الشاعر الملهم دون الصحفي ورجل الإعلام بينما كان إنتاج مفدي زكرياء الصحفي غزيرا من خلال العديد من نشريات الصحافة العربية والمغاربية عامة والجزائرية خاصة ومن خلال إذاعات البلدان العربية والمغاربية.

فبالنسبة للحصص الإذاعية التي أنجزها مفدي زكرياء فقد استطاعت مؤسستنا، من خلال وثائق الشاعر التي نجت من التلف، وبفضل النصوص التي

احتفظ بها السيد عبد الحميد مهري وسلمها لأسرة المرحوم كاملة، استطاعت المؤسسة جمع عدد من الأحاديث الإذاعية التي بثت عبر الإذاعة التونسية وهي موضوع هذا الإصدار.

وما يمكن الاشارة إليه في أول وهلة هي أن المواضيع التي عالجها مفدي زكرياء في هذه الحصص الإذاعية تعبر بوضوح عن التزام صاحب "قسما" وعن أبرز اهتماماته الشخصية وكان لكل من "تاريخ المقاومة الجزائرية" و"تاريخ الصحافة العربية في الجزائر" و"أضواء على وادي ميزاب" ارتباط وثيق بحياة المؤلف ومرجعياته ونضالاته.

فالمقاومة الوطنية الجزائرية كانت بالنسبة له البوتقة التي انصهر فيها وعيه الوطني المتطلع إلى الآفاق المغاربية والتي كانت المجال الأساسي لنضالاته طول حياته وقد كلفه ذلك تضحيات جسام واتخذت هذه النضالات سبلا وأساليب عدة: منها النشاط ضمن التيار الاستقلالي للحركة الوطنية الجزائرية والمناظرات السياسية مع الأحزاب الأخرى بلهجة حادة أحيانا والمظاهرات الشعبية والمهرجانات والعمل السري والخطاب الشعري والمساهمات الصحافية.

وقد سمحت له هذه الأخيرة إرتياد قاعات التحرير ومعرفة مختلف الصحف الجزائرية والعربية معرفة ميدانية إما كمساهم أو كخصم مهاجم، وأهم من ذلك وذاك فقد أشرف شخصيا على تأسيس وإدارة جريدة "الحياة" (1933) و"الشعب" سنة 1937 بعد أن بدأ نشاطه الصحافي مبكرا بإصدار صحيفة "الوفاق" سنة 1925 بتونس وكان مديرها المسؤول السيد عبد العزيز بن يوسف الثميني وكاتبها العام مفدي زكرياء الذي كان ينسخها كاملة بخط يده وقام بإصدار صحيفة "الحياة" سنة 1933. ويعترف مفدي في مجال الصحافة بأنه مدين لمن سماه "شيخ الصحافة" أي الشيخ ابراهيم أبو اليقظان الذي يعتبر بحق رائد الصحافة الجزائرية باللغة العربية إذ أسس وأدار ما لا يقل عن سبعة عناوين في ظرف عشر سنوات، نظرا لملاحقات ومضايقات الإدارة الاستعمارية وإجراءات

توقيف السلطة على هذه الصحافة التي كانت تُبعث من جديد كلما اختفت وهكذا أصرت على مواصلة مهمتها ورسالتها في سبيل شحن الهمم وإيقاض الضمائر من أهل القضية الوطنية وقضايا الشعوب العربية والإسلامية عامة فضلا عن الاهتمام بالمسائل المتعلقة بوادي ميزاب بصفة خاصة. وقامت صحيفة "وادي ميزاب" سنة 1926 بهذه المهمة التي واصلتها العناوين الأخرى للمؤسسة من طرف أبي اليقضان بمساهمة مفدي زكرياء.

إنطلاقا من هذه الخلفية، يندرج تناول موضوع "أضواء على وادي ميزاب" في سلسلة من الأحاديث الإذاعية تعرّض فيها مفدي إلى تاريخ الإباضية في الجزائر ابتداء من إقامة الدولة الرستمية، في تيهرت في القرن الثامن الميلادي واستقرارهم في وادي ميزاب إلى يومنا هذا. وقام بتقديم صورة دقيقة للنظام الاجتماعي والنشاط الاقتصادي وعادات وتقاليد هذه المجموعة التي هي جزء لا يتجزء من الشعب الجزائري والقى عليها الشاعر نظرة العارف بخباياها والشاهد المنتمي لبني جلدته والذي عاش في أحضانها، فكانت هذه النظرة فاحصة مجردة من العقد بالمجاملات ومحطمة "للطابوهات" ومتحررة من أية عصبية ضيقة لأن مجال انتماء الشاعر كان ضاربا بجذوره في مسقط الراس وماذا جذعه على طول وعرض الأمة الجزائرية والتي كان تحريرها مطمح ومراد حياته وعلى آفاق المغرب الكبير الذي كان يراود حلمه الوحدوي.

ومن هذا المنظور أصبح اختيار مواضيع هذه الحصص الإذاعية (محل إصدارنا هذا) لا مناص منه لأنه يعكس مخزون تجربة حياة ثرية بالكفاح والنضال والإبداع الشعري.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الظرف الزمني لإنجاز هذه الحصص، أي سنتي 1960 و1961 لإدراكنا مدى ريادتها وكسبها لسبق معرفة تاريخ الصحافة العربية في الجزائر وتاريخ المقاومة الجزائرية وكذا المعلومات حول وادي ميزاب. فكل هذه المواضيع كانت حينذاك محدودة التناول من طرف الأقلام الجزائرية

وإذا قدرنا الوضع المادي والنفسي للشاعر في تلك الفترة لتصورنا الجهد الذي بذله لإنجاز مثل هذا العمل في ظروف صعبة مليئة بالانشغالات والمتاعب المتعددة الأوجه.

لنتذكر أن الشاعر بمجرد خروجه من السجن في شهر فبراير 1959 كان محل ملاحقة من جديد، من طرف مصالح الأمن الفرنسي التي لم تترك له ولو قليلا من الراحة اللازمة للتجرد من الأعباء النفسية والجسدية الناجمة عن المعاناة الطويلة التي كابدها وراء القضبان، فما كان إلا أن يختفي من جديد ويواجه متاعب وأهوال مغامرة التسلل عبر الحدود واللجوء إلى المغرب الشقيق ثم الانتقال إلى تونس حيث حط الرحال والتحق بطاقم "المجاهد" (اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني الجزائري). ولكن سرعان ما صدم بخيبة أمل إذ لم يحظ بالمكانة اللائقة له، بصفته من رواد الحركة الوطنية، له ماض طويل في النضال في سبيل تحرير الجزائر وقدّم لأجل ذلك تضحيات جسام، فضلا عن كونه "شاعر الثورة الجزائرية". ولم تكن له العزيمة اللازمة لمواجهة تلك الصدمة إذ كان منهك القوى من جراء معاناته في السجون الاستعمارية طيلة ثلاثة سنوات، وزاد الجو المتعكر في أجهزة الحكومة المؤقتة في النيل من معنوياته وقضى فترة طويلة من سنة 1959 يعاني من المرض والانهيار العصبي ولم يعاف إلا بفضل العناية والعلاج الذي خصه به الدكتور والمناضل "فرانس فانون FRANTZ FANON" الذي كانت تربطه به صداقة متينة بدأت في الجزائر حين كان صهر الشاعر، الدكتور الشهيد إبراهيم ترشين زميلا لفانون في مستشفى البليدة.

وبفضل هذه العناية الخاصة استرجع مفدي زكرياء عافيته وواجه سنة 1960 بعزيمة قوية ونشاط دؤوب تجسد في إصدار العديد من القصائد في صفحات "المجاهد" وفي نشر عمود شبه يومي بعنوان "صباح الخير" في جريدة "الصباح" التي كان رئيس تحريرها الأديب الهادي العبيدي من أعز أصدقاء الشاعر وفي الحصص التي كانت تبثها الإذاعة التونسية والتي جمعنا نصيبا منها في إصدارنا هذا.

وبقي أن نجمع الحصص الأخرى التي لا نعرف عنها سوى العناوين "الصراع بين القديم والحديث في الشعر العربي" أو "أنتم الناس أيها الشعراء" أو "اللهجات الشعبية عبر المغرب العربي" وحصص أخرى بثت في إذاعة الرباط، نسعى جاهدين لجمعها وإصدارها مستقبلا.

واستطاع الشاعر والمناضل مفدي زكرياء تحقيق هذا الزخم من الأعمال بالإضافة إلى جمع المادة الشعرية لإصدار ديوان "اللهب المقدس" في ظرف عامين بين 1960 و1961، واستطاع القيام بهذا العمل المكثف بفضل مساعدة شاب جامعي تونسي، محمود صابر، الذي كان بمثابة ابنه واشتغل كاتبا له ينقل ما كان يمليه عليه الشاعر من مراسلات ومقالات وقصائد.

ولا شك أن القارئ يلاحظ الأسلوب الشفوي لنص هذه الأحاديث الإذاعية التي تعد مساهمة قيمة ومرجعا هاما بالنسبة للمواضيع المعروضة. فهي عينة من الإنتاج النثري "لشاعر الثورة الجزائرية" الذي لم يعرف عنه الجمهور غير المتخصص سوى الإنتاج الشعري. فالإنتاج النثري لمفدي زكرياء يستحق التعريف به لغناه وتنوعه بتنوع الأغراض والمناسبات.

وتسعى "مؤسسة مفدي زكرياء"، في إطار جمع الأعمال الكاملة للشاعر، أن تساهم في إبراز غزارة وتنوع هذا الإنتاج الذي لم يقتصر على القصائد الشعرية بل يشمل المقالات والمحاضرات والتعاليق والمراسلات. ولا شك أن النهوض بجمع هذه الأعمال ليست حكرا على المؤسسة بل هي عمل جماعي يتطلب مساهمة الجميع لأن أعمال مفدي زكرياء تراث وطني وملك للجزائريات والجزائريين.

د. سليمان الشيخ

رئيس مؤسسة مفدي زكرياء

تاريخ المقاومة الجزائرية

مراجعة وتقديم

د. جمال قنان

تقديم

إنّ شخصيّة الشّاعر المناضل مفدي زكريّاء متعددة الجوانب، فهو أولا شاعر الوطنية الّذي صدح بالأناشيد الأولى للحركة الوطنيّة في بداية عقد الثلاثينات من القرن الماضي، وهي الأناشيد الّتي ردّدها الشّباب في جميع مناطق البلاد في تلك الظّروف الحالكة الّتي عاشتها الجزائر تحت وطأة الاحتلال. لقد كانت تجسّد أملاً وتفتح فجوة ينفذ منها النّور يضيء الطّريق نحو مستقبل واعد وسط النّفق المظلم الّذي زجّ فيه الشعب الجزائري من طرف الاحتلال وإداراته الإجراميّة لشئونه، فكتّم أنفاسه وطمّس شخصيّته ليس أقلّها ضررا عليه وعلى مستقبله. فمفدي زكريّاء ينتفض ضدّ هذا الوضع ويرفضه رفضا كليّا، وفي مقابله يبيّن طريق الخلاص من هذا الوضع المؤلم والتّضحية الّتي يجب بذلها من أجل ذلك.

فِدَاءُ الجَزَائِرِ رُوحِي وَمَالِي أَلاَ فِي سَبِيلِ الحُرِّيَّة

فشعره هو خفقات قلب لمسار النّضال الوطنيّ عبر مراحله المختلفة.

الجانب الثّاني من شخصيّة الشّاعر هي تشبّعه بالرّوح الوطنيّة المتوثّبة الّتي عبّر عنها في قصائده، ومن هذه الزّاوية فهو الابن البار للمحيط الّذي عاش فيه. فنشأته الأولى كانت في بيئة محلّيّة متشبّعة بروح العروبة والإسلام، فوادي ميزاب كان في عقد الثّلاثينات من القرن الماضي، يمثل إحدى منارات الإشعاع الوطني الحضاري والّتي حصرتها إحدى تقارير مصلحة المعلومات في الولاية العامة، عند منتصف عقد الثّلاثينات، في عدد لا يتجاوز سبعة مراكز في كامل القطر الوطني.

اتّسعت مداركه وتعمّقت وطنيّته بانتقاله إلى تونس لمتابعة تعليمه واحتكاكه، وهو يافع، بقيادات الحزب الدّستوري التونسي عن طريق أحد أقاربه الذي تكفّل برعايته هناك.

فمنذ هذا التّاريخ سجّل حضورا مواظبا وبارزا في مختلف المؤتمرات واللّقاءات الوطنيّة والمغاربيّة ففي المقال الذي نشره "ديبارمي" في نشرة "إفريقيا الفرنسيّة"، لسان حال الحزب الاستعماري في فرنسا، حول المؤتمر الثاني لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين الذي انعقد في الجزائر في سنة 1932، خصّص لمفدي زكرياء عدّة فقرات في سياق تنبيه إدارة الاحتلال للرّوح الجديدة الّتي تسري في عروق شباب المغرب العربي وهي الرّوح التي عبّرت عن نفسها في أحلى صورها في هذا المؤتمر. نفس الكاتب وهو المعروف بتشبّعه، وبيقظة شديدة، لكلّ ماله صلة بموقف الأهالي من الاحتلال وحتى بما يختلج في صدورهم من آمال، نشر مقالا في نفس المجلّة معلّقا على المؤتمر الإسلامي، مستغربا: "كنّا اعتقدنا أنّ الجزائر أصبحت فرنسيّة لتستيقظ فجأة مسلمة."

ساهم المرحوم في النشاط الثّقافي الّذي كان ينظّمه نادي التّرقّي في العاصمة والذي كان أحد المنابر المشعّة إلى جانب الصّحافة الوطنيّة، التي كانت تحمل الأمل وتبشّر بمستقبل زاهر وسط الظّلام الذي فرضه الاحتلال على ربوع الجزائر. لكن هذا النّشاط لم يستوعب كلّ الطّاقة الكامنة لدى مفدي زكريّاء والتي دفعته لاقتحام ميدان الصّحافة، وتسخير قلمه لخدمة القضيّة التي يؤمن بها. أسّس جريدة "الشعب" بمعية زميل له لم يصدر منها سوى عددين أو ثلاثة فإدارة الاحتلال كانت بالمرصاد لكتم كل نفس لا يعجبها. كما نشر عدّة مقالات في صحف أبي اليقظان التي سجّلت فصلا ملحميا رائعا من فصول النّضال من أجل حريّة التّعبير حتّى أنّ أحد الكتّاب القريبين من الولاية العامة وصف ما حدث في هذه المواجهة بين الصّحف الوطنيّة الّتي تصدرها صحف أبي اليقظان وإدارة الاحتلال بالمجزرة.

لمّا سُدّت الأبواب في وجه قلمه في الجزائر التجأ إلى الصّحف التونسيّة حيث نشر عدّة مقالات حول المؤتمر الإسلامي وحول أساليب القمع والتّنكيل التي تمارسه إدارة الاحتلال ضدّ الشّعب الجزائري.

انخرط في العمل النّضالي الميداني في "نجم شمال إفريقيا" وكانت له مواقف سياسيّة إزاء الاتّجاه الاندماجي ومشروع قانون "بلوم فيوليت"، وهما المسألتان اللّتان شغلتا السّاحة السّياسيّة الوطنيّة في النّصف الثّاني من عقد الثّلاثينات.

وهي نفس مواقف الحزب الّذي يناضل في صفوفه والّذي كان نشاطه محظورًا منذ صدور القرار الأوّل بحلّه في سنة 1929.

كان من بين المؤسّسين لحزب الشعب الجزائري وأحد قياداته. لقد تحمّل وزر انتمائه حيث تمّ اعتقاله في شهر جويلية 1937 ومكث في السّجن حتى شهر أغسطس سنة 1939. كما تم اعتقاله وتغريمه عدّة مرّات في المرحلة التالية والتي آخرها في شهر أفريل سنة 1956 حيث بقي في السّجن حتى شهر فبراير 1959. تمكّن من الخروج من الجزائر بأعجوبة ليلتحق بتونس لمتابعة نشاطه النّضالي في إطار جبهة التحرير الوطني.

من مواقفه المشهودة هو دوره الفعّال في إطفاء نار الفتنة التي حاولت أطراف مشبوهة إشعالها في سنة 1955 ضد فئة من التجار الجزائريين، مستخدما رصيده الوطني. لقد تحقق ما كان يريده ويريده كلّ الجزائريّين: فالشعب الجزائري شعب واحد وجسم واحد غير قابل للتجزئة والتشتت.

يملك المرحوم ثقافة تاريخيّة راسخة ومتميزة، خاصة فيما يتعلّق بالتاريخ الوطني، فملحمته "**إلياذة الجزائر**" تعبّر عن هذه الميزة أصدق تعبير، ممّا يثير الانتباه حقّا هي رؤيته الموضوعية والمتحرّرة من كلّ الشّوائب التي أدخلتها مدرسة التّاريخ الاستعماري على تاريخ الجزائر العام بعصوره المختلفة، فالمعلومات التّاريخية المتوفّرة عن الجزائر في وقته هي من إنتاج هذه المدرسة ومع ذلك فقد استطاع التخلّص من تأثيراتها ويرسم في هذه الملحمة، الخطوط العريضة لتاريخ الجزائر العام غير مقطّع الأوصال كما رسمته هذه المدرسة، وإنّما تاريخ متواصل الحلقات ومتكامل بين أجياله عبر مختلف العصور والفترات. لقد أعطى لنا صورة عن تاريخ الشعب الجزائري العميق متجنبا المعالجة الفوقيّة التقليدية لهذا التّاريخ والتي هي كالقشرة على ظهر الجلد سرعان ما تزول وتنشر بفعل الحيويّة المنبعثة من الجسم.

ركّزت مدرسة التّاريخ الاستعماري جهودها بالخصوص على الفترة الّتي يطلق عليها اصطلاحا "العصر الحديث" الّتي تبدأ مع مستهلّ القرن السّادس عشر الميلادي

حتى سنة 1830، وصوّرها على أنها فترة احتلال وسيطرة أجنبية على مقدرات الجزائر رغم الحقائق التاريخية التي تؤكد عكس ذلك، فهذه الفترة هي التي شهدت قيام الدولة الجزائرية الحديثة بحدودها المعلومة ومؤسساتها وعلاقاتها الدولية ونظام حكمها المتميز عن أنظمة الحكم في الدّول الإسلاميّة الأخرى والذي محوره التداول على السّلطة وعدم السّماح بقيام نظام حكم أسري وراثي.

إنّ نظرة مفدي زكرياء لهذه الفترة، رغم ما يحيط بها من تشويه وإهمال للحقائق تعتبر نظرة رائدة تصبّ في صميم الحقائق التاريخيّة كما أكدتها فيما بعد، الدّراسات التاريخية الجادة، فهو يقول:

وَلَعْلَعَ فِـي بَرْبَرُوسَ نِدَاهَـا ... فَثَـارَ... وَأَقْسَـمَ أَنْ لَا يَعُـود
وَآزَرَنَا التُّرْكُ حَتَّى انْتَصَرْنَـا ... وَلَمْ يَخْفُـرِ التُّرْكُ مَاضِي الْعُهُـود
وَقُمْنَا نَسُوسُ الْبِلَادَ بِعَـدْلٍ ... وَنُسْدِي الْجَمِيلَ، وَنَرْعَـى الْحُدُود
وَلَمْ نَكُ لِلتُّرْكِ بِـالتَّـابِعِينَ، ... وَإِنْ عَزَّزُوا سَعْيَنَـا بِالْجُهُـود
وَنَحْنُ أُنَـاسٌ نَعُـدُّ الْجَمِيـلَ، ... وَنَرْعَـى ذِمَامَ الصَّدِيـقِ الْوَدُود[1]

وظّف المرحوم ثقافته التاريخية الواسعة في نشاطه النّضالي أثناء الثّورة التحريريّة، في الحديث الذّي خصّ به "صوت الجمهورية الجزائريّة"، الذي كان يبثّ من الإذاعة التّونسية، حول المقاومة والكفاح السّياسي ضد الاحتلال. وهو الحديث الذي بثّ في شكل الحلقات التي بين أيدينا، نقلاً عن أوراق المؤلّف وبخط يده حسب ما أكده لنا الدكتور سليمان الشيخ. يلاحظ القارئ أن الحلقة الأولى التي بثّت في أول شهر جوان 1960 غير موجودة، فهي في حكم المفقودة، ولكن يمكن أن نستشف موضوعها في السّياق العام للحلقات التي تلتها وبالتّالي فيمكن

1- [illegible] الأبيات 333 و337- 340
* - للإطلاع أوسع حول حياة المرحوم مفدي زكرياء يراجع [illegible] العربية - [illegible] الجزائر 1987.
حول نظرة إدارة الاحتلال إليه ينظر:
BEN [illegible] S., « Moufdi Zakaria vu par l'Administration Coloniale » [illegible] 2006

اعتبارها كمدخل عام للموضوع ككل والّذي يتوقف عند أحداث شهر ماي 1945 المؤلمة.

حرص مفدي زكرياء على أن يقدّم للمستمع خلاصة مركّزة عن المقاومة المسلّحة وعن الكفاح السّياسي وكذلك عن الآثار الضارة التي لحقت بالشّعب الجزائري من جراء التّسيير الإجرامي لشؤونه من طرف إدارة الاحتلال، مبنيّة على وقائع صحيحة لا مبالغة فيها ولا تهييج، متدرجة حسب تسلسلها الزمني. فهو لا يبالغ عندما يقول إن هزيمة الجيش الجزائري في معركة اسطاوالي (19 جوان 1830) كانت نكبة حقيقية لم تتوقّف آثارها عند حدود الجزائر وإنّما امتدّت إلى عموم الأقطار الإسلاميّة المتوسطيّة وإلى الدّولة العثمانيّة الّتي فقدت كلّ ممتلكاتها الأوربيّة في البلقان. وعندما يتعرض للجرائم التي اقترفها الجيش الفرنسي ضد المدنيّين العزل فهو يدعّم عرضه بما كتبه الفرنسيون أنفسهم، في استعراضه لآلية التفقير وزرع البؤس وتسليط القهر والترهيب على أفراد المجتمع لا يتكلم في فراغ وإنّما يستند على تشريعات وإجراءات ملموسة عان منها الشّعب الجزائري على امتداد عهد الاحتلال حتى تمت تصفيته.

خصص المرحوم شاعر الوطنية والثورة جزءاً من حديثه لاستعراض الخطوط العريضة للكفاح السّياسي والذي بدأه بما سمّاه بـ "المقاومة القلميّة" إشارة إلى حمدان بن عثمان خوجة وكتابه "المرآة" الذي صدر في سنة 1833، كما أشار إلى بعض الصّحف الّتي صدرت قبل الحرب العالمية الأولى[1].

في حديثه عن تجنيد الجزائريين في الجيش الفرنسي وتسخير عشرات الآلاف منهم ونقلهم للعمل إجباريًا في فرنسا فهذين الموضوعين هما من الموضوعات الشّبه المعلقة أثناء عهد الاحتلال لا يجوز التّطرّق لها، فالرّقم الذي أورده عن عدد المجنّدين الجزائريّين الّذين شاركوا في العمليات القتالية على مختلف الجبهات والذي هو أربعمائة ألف مجنّد يدل على حرصه على إبراز الحقيقة بالقدر المستطاع مع أن

1 - لمزيد من الاطّلاع، مراجعة كتاب "تاريخ الصّحافة العربيّة في الجزائر" لنفس المؤلّف

الأرقام التي أوردتها المصادر الفرنسية هي أقل من هذا العدد بكثير، وهو من ناحية أخرى رقم يقارب العدد الذي اعتمده الأمير خالد وهو المتتبع الدّقيق لهذا الموضوع والذي هو نصف مليون مجند.

إن عرض الشاعر للكفاح السّياسي بدءا من منتصف عقد العشرينات من القرن الماضي هو عرض شاهد عايش هذه الفترة، متتبعا لأحداثها وفاعل في بعض منها، يتّسم بالاعتدال والاتزان حتى في موقفه المناوئ للمؤتمر الإسلامي خاصة في طبعته الثانية (1937)، فموقفه من جمعية العلماء كان موقفا متّزنا، ففي الوقت الذي لم يحبّذ مشاركتها في هذا المؤتمر حرص من جهة أخرى على إبراز المبررات التي دفعتها للانخراط في هذا التجمّع في نفس الوقت الذي يدين فيه الاتجاهين، الاندماجي والشيوعي اللّذين يعتبرهما خارج الموضوع الذي يشغله: حريّة الوطن واستقلاله.

د. جمال قنان

تاريخ المقاومة الجزائرية

العدوان على الجزائر:

نعم اصطنع الفرنسيون خُرافة المروحة لتدبير اعتدائهم الوحشي على شعبٍ حُرٍّ كريمٍ، وخلق "شارلُ العاشر" السّفاح وسيلة لتحويل موجة الغضب الفرنسي الجارفة ضد نظامه الاستبدادي ونجح في قذف العاطلين الفرنسيين في حرب صليبية لا تُبقي ولا تذر وظفر باستفزاز الشعور الديني لدى رجال الكنيسة حين وقف خطيبًا يوم 2 مارس سنة 1830: "إن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بإعانة الكنيسة لفائدة المسيحية جمعاء".

فماذا كان أعد "شارلُ العاشر" من القوّات المسلّحة للهجوم على الجزائر؟ وطعنها من الخلف يوم كان أسطولها متعبًا في واقعة نافارين، شأن الجبناء الأنذال الذين لا يتبعون غير الطُرق السّافلة الوضيعة لمحاربة خصومهم.

إنه هيّأ في الخفاء وفي مدّة طويلة قبل حادثة المروحة، هيّأ أسطولاً ضخمًا يشمل نحو 130 من السّفن الحربية تحمل نحو الثلاثة آلاف مدفع و34.000 مقاتل مع 383 سفينة لحمل المئونة والذخيرة وهذه الإحصائية نقلناها عن كتب مؤرّخيهم، وشهد شاهد من أهلها.

وقد كان الجاسوس الفرنسي الخطير "بوتان" رسم خطّة استراتيجية لاحتلال الجزائر من أيّام الإمبراطور "نابليون"، وهي الهجوم على شبه جزيرة "سيدي فرج"، فما كان لـــ "شارل العاشر" إلا أن نفّذها، ولم يكن الدّيوان غافلاً عن الأعمال التي كان يهيؤها الفرنسيون، خلافًا للقول الشائع في كثير من كتب التاريخ التي لا تتحرى الحقيقة بل إن الجزائريين قد استعدوا للمقاومة، وقرروا برامجها وأخلوا شبه

الجزيرة التي كانوا يعلمون أن الفرنسيين سينزلون بها ثمّ بادروهم بالهجوم إثر ذلك للرمي بهم في البحر والاستحواذ على كل ما بيَدِهم، وهي خطة من أحكم الخطط الحربيّة الحديثة.

ولقد أخذت جموع الجزائريين المجاهدين تحتل مراكزها حوالي "سيدي فرج" ثم نزل الجند الفرنسي الغاصب يوم 13 يونيو سنة 1830. أمّا الجند الجزائري فقد قام بالهجوم حسب خطّته المرسومة لمدّة 19 يوم، وكان هجوما عنيفا موفّقا، زلزل أقدام الفرنسيّين وألحق بهم فادح الخسائر في الأرواح والعتاد، وكاد أن يرمي بهم في البحر من حيث نزلوا، لولا أن فرقةً عسكرية بقيت وراء الصفوف، وخافت أن يُقضى عليها، فصعدت وأخذت تصيح وتستغيث وتشير لمعظم الجيش، وهنا ارتكب أحد قادة الجيش الجزائري غلطة فنية كانت القاضية على جيشه وبلاده وذلك أن ظن أن الفرنسيّين المذكورين قد حبكوا حوله حركة تطويق والتفاف قصد قطع خطّ الرّجعة عنه، فتقهقر كي لا يُحْدقُوا به، وكان في تقهقره الضربة القاضية لأن القيادة الفرنسيّة أعادت الكرة، وأرجعت الجزائريين إلى مركزهم الأصلي، واغتنمت فرصة الاضطراب الذي وقع في الصفوف للاستيلاء على معسكر "اسطاوالي"، ولقد كان لازمًا على الجند الجزائري أن يستسلم، فكانت هذه المعركة من أكبر المعارك الحاسمة في التاريخ وكانت نتيجة هذه الهزيمة أن اضطرت الجزائر "العاصمة" للاستسلام فدخلها جنود فرنسا صبيحة يوم 05 يوليو سنة 1830، وذلك اليوم الأسود الذي ما انفك الجزائريون يعتبرونه يوم حداد، يوم المناداة بالثأر، وغسل العار وينشدون فيه في أعلى الجبال:

إنْ كَانَ يُولْيُو فِي الشُّهُورِ كَبَا بِنَا
فَشَفِيعُ يُولْيُو فِي الشُّهُورِ نُفَمْبَرُ!

وكانت أول مظاهرة علنية قام بها الشعب الجزائري في إشهار غضبهم وحدادهم لهذه الذكرى المؤلمة هو يوم 5 يوليو 1956 حيث أعلن الشعب في سائر جهات القطر الجزائري الاعتصام العام فلم يشذ من الجزائريين أحد لم يشارك في هذا الحداد الوطني رغم إنذار السلطة الفرنسية وتهديدها إنزال صارم العقاب على المضربين.

ومن ذلك العهد أصبحت تجدّد مظاهرات الحداد ليوم 5 يوليو من كل سنة، وقد قام بإحيائها حتى المساجين في أعماق السجون، والمشرّدون في مختلف المحتشدات والمعتقلات.

لم يحترم الفرنسيون عهودهم باحترام الأشخاص والحريات العامة، والمعتقدات بل اندفعوا في همجية جنونية، وهستيرية وحشية، ينهبون ويسلبون، ويحرّقون ويخرّبون وينتهكون الحرمات، واشترك في الاختلاس واللصوصيّة كبارهم وصغارهم، رؤساؤهم وعامّتهم، فسجّلوا لفرنسا صفحة خزيٍ وعار لا تمحي أبد الدهر تلك الصفحة السوداء التي حاوُوا ليُضيفوا إليها صفحات أخرى أشدّ سوادًا في الحرب الجزائرية الأخيرة. ولسنا بحاجة إلى التدليل على ذلك، فنظرةٌ واحدة إلى ما كَتبهُ مؤرّخوهم تكفي لإقامة البرهان.

ومن الغلط القول بأن احتلال فرنسا للجزائر كان نكبةً على شعب الجزائر وحده، بل إنّه كان نكبة على الشرق بأسره، وعلى الحرية في أسمى معانيها، وعلى القارّتين الإفريقية والأسيوية على السواء. إنّ احتلال فرنسا للجزائر كان أوّل ثغرة فتحها الاستعمار في بلاد العروبة بأقطار البحر الأبيض المتوسط، ولم تستطع الدّول العربية والإسلامية أن تحرك ساكنا أمام ذلك الحادث العظيم، فالدّولة العثمانية صاحبة السيادة الإسمية على القطر الجزائري كانت "الرجل المريض" وكانت الحروب الفتّاكة التي يشنّها عليها جيرانها الرّوسيون قد أنهكت قواها، ثمّ إنّ معركة "نافاران" التي حطّم فيها "الإنقليز" و"الفرنسيون" و"الرّوس" الأسطول العثماني والجزائري والمصري، كانت قد أصابت الدولة في الصميم، وسلخت عنها بلاد اليونان.

أما البلاد المصرية فكانت تجرّب يومئذ مغامرات محمّد علي، وكانت سياستها تحامل الدولة الفرنسية إلى حد بعيد، نكاية بالدولة الإنقليزية وحربًا وراء التوسّع والاستقلال.

أمّا تونس والمغرب الأقصى فكان ضعف الدولتين الحُسَيْنيّة والشريفيّة لا يكاد يمكنها من حفظ الأمن الداخلي فضلا عن التدخل لفائدة الجزائر ومدّ يد المساعدة

للمناضلين الجزائريين، أما دول أوربا فقد اكتفى بعضها بالاحتجاج وإثارة العراقيل في وجه فرنسا بصفة فاترة كـ "إنكلترا"، لا لسواد عيون الجزائريين بل حبا ومنافسة لفرنسا في الاستعمار، بينما أبدى معظمها ابتهاجه بهذا النصر الأوربي المسيحي في بلاد الإسلام.

فماذا كانت نتيجة كل ذلك يا ترى؟

كانت النتيجة أن فرنسا أخذت تكيد لتونس وتثير فيها القلاقل إلى أن تمكنت من احتلالها عام 1881.

وكانت النتيجة أن الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانقلترا والذي سمح باحتلال تونس قد جعل الإنقليز يستبدون بأمر مصر، ويتآمرون على استقلالها، ويدمرون جيشها في التل الكبير ويحتلونها فعلا سنة 1882.

وكانت النتيجة أيضًا، توغل فرنسا في صحراء إفريقيا، وتحطيمها للممالك الإسلامية المستقلة فيها، ومحاولة احتلال جنوب وادي النيل، كما تشهد بذلك حادثة "فاشودا".

وكانت النتيجة، استيلاء إيطاليا بصفة وحشية فضيعة على قطري طرابلس وبرقة ومحاولتها محق العروبة والإسلام والوطنية فيها.

وكانت النتيجة، أخيرًا، ضياع كامل القسم الأوربي من السلطة العثمانية في حرب البلقان، ثم انهيار هذه الدولة نهائيا إثر الحرب العالمية الأولى، وسقوط العراق تحت انتداب الإنقليز، وسوريا ولبنان تحت انتداب فرنسا، ووقوع فلسطين الشهيدة في النكبة التي أدت إلى نكبتها السوداء، ونكبة العرب معها.

فجذور هذا السرطان الاستعماري قد امتدت كلها من احتلال مدينة الجزائر، وهي الجرثومة السامة القاتلة "فرنسا"، وكان مبدأ هذه النكبات كلها يوم 5 جويلية 1830.

وقعت الواقعة، وأصاب الجزائر ما أصابها من ويلات الاحتلال الفرنسي البغيض، لكن هل استكانت الجزائر لما أصابها على يد المحتلين الغلاظ الأكباد القساة القلوب، المجردين من الضمائر الحرة، وهل استسلمت لسيف جلاّديها؟

كلا، إن مراحل تاريخ الجزائر بعد ذلك اليوم النحس كانت بطولة لم يشهد العالم لها مثيلا، وكان تاريخُ الكفاح طويلاً والتضحية مستمرة، والمقاومة عنيفة لم تفتر ساعة من نهار فكانت أحيانا حربية قاسية ذات وقائع وأهوال ودماء وتارة وكانت قلميّة سياسيّة تارة أخرى، واستمرّ هذا الكفاح المجيد كذلك قرنًا وربع قرن ما انفك الاستعمار يقوم بمحاولات يائسة لتحطيمها والقضاء عليها، يصيبها كلَّ يوم بضربة جديدة، دون أن يتوصّل للقضاء على روحها الأبيّة، ودون أن ينال من كيانها العربي الإسلامي أيّ منال إلى أن طفح الكيل، ودقت ساعة القدر وهبت رياح التحرير اللّواقح على العالم فحزمت الأمة الجزائرية أمرها وقامت إلى ثورة عارمة لا تزال تدهش الدنيا لوقائعها ولا تزال تسجل بدمائها صفحات الروعة والجلال في ميدان البطولة الواعية، والفداء المجيد فكانت المقاومة تشغل الواجهتين الشرقية والغربية. فإنه ما كاد ينتهي أمر الدّيوان بمدينة الجزائر وسياق الباشا وكبراء الضبّاط إلى المنفى حتى هبّت الأمّة الجزائريّة عن بكرة أبيها تُنظّم المقاومة المستميتة وتنادي بالجهاد، وتقيم في كل جهة، في جبالها وسهولها معاقل للنزال.

وقد اكتست المقاومة الأولى شكلين شكل المقاومة الرسمية الحكومية، وشكل المقاومة الشعبية.

مقاومة الأمير عبد القادر:

ففي سنة 1832 عقد وجوه القوم ورؤساء العرب مؤتمرًا وبايعوا بالإمارة شابًا في الرابعة والعشرين من عمره، عُرف بينهم بالنخوة والشهامة وشدّة الشكيمة، والرّأي الحصيف، وهو الأمير "عبد القادر ابن الشيخ محي الدين الهاشمي"، على أن يؤسّس فيهم دولة إسلاميّة عربية تصون الأمن وتوطّد العدل داخل البلاد وتحارب

الفرنسيّين الغاصبين، فتصدّهم عن هاتيك الأقطار أولاً ثمّ ترمي بهم خارج البلاد أخيرًا.

وإنّ المؤرخ النزيه ليقفُ موقف الحيرة والذهول أمام هذه العبقريّة الفذّة التي خلقت شابًا في مقتبل العمر، عديم التجربة، خالٍ من الثّقافة الحربية ينظّم دولة فيحسن تنظيمها، ويدوّن دواوينها ويضبط شؤونها، ويسكُّ نقودها، ويربط لها علاقاتٍ ديلوماسيةً متينةً مع الخارج.

يركّز دعامتها ويكسب لها الأصدقاء والأنصار ثمّ هو إلى جانب ذلك ينشئ جيشًا نظاميًا على أحسن طراز وكتائب من المتطوعين الفدائيين ويرتب ذلك الجيش وتلك الكتائب بحكمة القائد المدرّب الخبير، يسلّحه فيحسن تسليحه، ثم يحسن القيادة العسكريّة بنفس المهارة التي أحسن بها القيادة المدنيّة، فينزل بجيشه إلى كلّ الميادين، ويلحق بالأعداء أنكى الضّربات وأقساها، ويتحمّل ضربات بصبر وجلد، ولقد جهزّت فرنسا ضده أعظم قواها، ورمته بأخطر قادها العسكريين، ولولا تفوّق عظيم في العدد، وتفوق عظيم في السّلاح لما نالت منه منالاً، إنها والله لمعجزةٌ من معجزات التاريخ - لقد تخلّلت فترة الحرب عدّة معاهدات عقدتها فرنسا مع الأمير، واعترفت له فيها بالاستقلال والسّلطة على البلاد التي نصّب فيها دولته لكنّها- كما هو المألوف من فرنسا - كانت معاهدات غشٍ وخداع، لا تلجأ إلى عقدها إلاّ متى أحسّت بالخطر أو أرادت أن تستعدّ لضربة قاضية من ورائه، أما الأمير فقد كان يُمضي تلك المعاهدات ليستريح قليلا وليستعدّ للطّوارئ.

ففي سنة 1840، اضطرمت نيران المعارك الكبرى قاسيةً فظيعة، واستعمل فيها الفرنسيون أبشع وأشنع ما يستعمله عدوٌّ مستعمر ضد بلادٍ تدافع عن كيانها، وتذود عن حياضها. إبادة جماعيّة، وإتلاف المدن والقرى، وحرق المزارع والغابات، ونسف المداشر على سكّانها وإضرام النّيران في البيوت والأكواخ، وانتهاك الحرمات بصفة يخجل القلم عن ذكرها، ولوصوصية سافلة، وسلب ونهب لا يليق إلا بوحوش بني آدم.

واستمرّت الحرب على هذه الحالة إلى أن مات في الأمة العزلاء أكثر من نصفها، وأراد سلطان المغرب "مولاي عبد الرحمن" الاستجابة للشعب الجزائري فأعلن الحرب بدوره على فرنسا، وأرسل جندًا لإعانة الأمير لكن الفرنسيّين دحروا ذلك الجند في معركة واحدة، "معركة يسلّي" وضربوا بالقنابل بعض مدن المغرب، فاضطرّ السّلطان لعقد الصلح وتعهّد بعدم إعانة الجزائريين ووقع ما لم يكن هنالك بدٌّ من وقوعه، فأمام قوّة الجند الذي وضعت فيه فرنسا كلّ إمكانيّاتها، وأمام الفظائع والأهوال وإحراق القبائل العديدة أحياءً بواسطة النّيران، وأمام الفراغ العظيم الذي حصل في صفوف الأمة، لم يسع الأمير عبد القادر(بعد استشارة رجاله) إلاّ الاستسلام يوم 23 ديسمبر1847، فسيق معه أهله وذويه ووجوه دولته أسيرًا، وبقي خمسة أعوام بفرنسا إلى أن أفرج عنه وسير به إلى بلاد الشام حيث استقرّ وترك هو وأتباعه هنالك خلفًا كبيرًا.

على أن المقاومة لم تتوقف باستسلام الأمير وإن هي انتهت بالصّفة المنظمة فحسب، كانت المقاومة المحليّة تتواصل من جبال الشمال إلى رمال الصّحراء، وما احتلّ الفرنسيون شبرًا من الأرض الجزائرية إلا وقدّموا ثمنه غاليًا من لحومهم القذرة، ودمائهم النجسة.

فرحمك الله أيّها الأمير البطل في الخالدين، وجعل ذكراك عنوانًا لسفر الجهاد التحرّري في هذا الوطن الغالي الذي هبّ يواصل حربًا بدأتها بشجاعة وإخلاص وامتدت بعدك إلى يوم الوعد الحق والفتح المبين:

إِذَا ذَكَرَ التَّارِيخُ أَبْطَالَ أُمَّةٍ ... يَخِرُّ لِذِكْرَاكَ الزَّمَانُ وَيَسْجُدُ

وَإِنْ تَذْكُرِ الدُّنْيَا زَعِيمًا مُخَلَّدًا ... فَإِنَّكَ فِي الدُّنْيَا الزَّعِيمُ المُخَلَّدُ

أَثَرْتَ عَلَى الغَاصِبِينَ حَرْبًا وَلَمْ تَزَلْ ... عَلَيْهِمْ تَلَظَّى كَالجَحِيمِ وَتُوقَدُ

وسطّرت للأحرار بالدم غاية لها المهج الحرّى طريق معبّد

فما خمدت نيران حربك لحظة وهيهات نيران الجزائر تخمد

هي الثورة الكبرى دلعت لهيبها وما فتئت أشكالها تتجدد

ففي كل فجّ في الجزائر رسمها وفي كل شبر بالجزائر مشهد

لها كل روح في الجزائر هيكل وكل فؤاد في الجزائر معبد

فنم يا أمير المؤمنين فإننا بروحك لاستقلالنا نتصعّد

[illegible] فيك الشعب أعظم قائد همام له الأرواح تروي وتشهد

حبتك [illegible] في الوغى لشأن تغنّيه الزمان وتنشد

وحيّتك عبد القادر اليوم ظافرًا تحطّم هامات الطغاة وتحصد

وشعّت [illegible] الخطى متماسك ومغربك [illegible] قطر موحّد

فنم في جوار الله [illegible] وترعاك في دار الخلود [illegible]

1- [illegible] سياسة الغدر والخديعة التي اتبعتها فرنسا في حرب الجزائر الأولى إلى تسليم القائد الأمير عبد القادر الجزائري يوم 23 ديسمبر 1847 بعد سبعة عشر عامًا

كاملة في المقاومة الصامدة المملوءة بالبطولة والاستشهاد وعمّمت فرنسا أساليبها الوحشية قصد إخماد نار المقاومة الجزائرية التي ما انفك يضطرم سعيرها، رغم استسلام الأمير.

مقاومة الحاج أحمد باي:

أما المقاومة الحكومية فقد تولى أمرها بالناحية الشرقية "الحاج أحمد باي" قسنطينة الذي بايعته الناحية الشرقية "باشا" والتفّ حوله رجال الأمّة من عرب ومن بقايا الأتراك، وكانت له مع الجند الفرنسي وقائع مشرّفة، وطالت الحرب بين الأمّة والغاصبين في تلك الجهات الشرقية والجنوبية وذاق الفرنسيون من بأس الأمة وشدّة مراسها ما سجّله تاريخهم ولا يزالون يذكرونه إلى اليوم، لكن القوّة والكثرة تغلّبتا على المقاومة الشعبية التي لم تتلقّ أيّ مدد خارجيّ وكان احتلال "لا موسيار" لمدينة قسنطينة يوم 14 أكتوبر سنة 1837 إنذارًا بنهاية حركة المقاومة المنظّمة، فاهي أمرها ظاهرًا، وبقيت كالنار تتأجّج تحت الرّماد، وقد سجّلت قسنطينة بدفاعها المستميت صفحة ناصعة من صفحات البطولة، إذا اضطر الفرنسيون لاحتلالها حارةً فحارة ودارًا فدارًا وتكبّد الجانبان في هذه الملحمة خسائر فادحة جدًا.

إلا أنّ أروع مثلٍ من المقاومة الشعبية قد ضربه أهل الناحيتين الوسطى والغربية من قطر الجزائر، إذ لم تكن هنالك سلطة تقليدية، ولا بقايا نظام إداري، بل كان كلّ شيء جديدًا، وكان كلّ شيء مبتكرًا.

إنّ ذكر تفاصيل حرب الإبادة التي باشرتها فرنسا ضد الجزائريين لا يتّسع له مجال أحاديثنا المختصرة، وعلى سبيل المثال نسرد على المستمع الكريم بعض الشهادات والوثائق التي ذكرها الفرنسيون أنفسهم لنرى أن الطريقة لم تبدّل، وأن الوسائل الإجرامية التي كانت تلجأ إليها فرنسا في عهد الاحتلال هي نفس الوسائل النكراء التي باتت تستعملها في حرب التحرر والاستقلال، وأنّ الاستعمار مهما تعدّدت أشكاله وتنوعت أسماؤه فهو لا يقيم وزنًا للإنسانية ولا يعترف بالمثل العليا، ولا يُبدي له حنين أمام الفضيلة الذبيحة والشرف الإنساني المداس.

فضائع فرنسا والجرائم الوحشية التي ارتكبتها بالجزائر:

يقول المؤرخ كريستيان في كتابه، "إفريقيا الفرنسية": "تلقى الجند أمرًا من القائد العام الجنرال روفيقو بالخروج من مدينة الجزائر ليلة 16 أفريل 1832 فهاجموا قبيلة العوفية عند الفجر وهي نائمة تحت خيامها، وأمعن في ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أيّ واحد منهم الدّفاع عن نفسه، وهكذا وقع قتل كل نفس حية في القبيلة دون أيّ تمييز بين جنسٍ وسنٍّ وعند الرّجوع من هذه الحملة المخجلة (حسب تعبيره) كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنّة رماحهم!".

ويقول الجنرال شانغارنيي: "لقد كانت التّسلية الوحيدة التي أستطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشّتاء هي السماح لهم بغزو القبائل المحاذية التي تسكن فيما بين وادي الحراش وبورقيقة والإمعان في إبادتهم قتلا وذبحا وحرقا".

ويقول المؤرخ ديبزاد في ذلك ما نصه: "أمّا الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى ممثّل قنصليّة الدّانمرك، وأما بقية الغنائم الصامتة فقد عُرضت للبيع في سوق باب عزّون، وكان من بين الغنائم أساور نساء وهي لا تزال عالقة بأيديهن المقطوعة، وأقراط نساء لا تزال تلتصق بها قطع من آذانهنّ المبتورة، ثم وزّع ثمن كل ذلك على السّفاكين من رجال الطابور الفرنسيين وفي ذلك اليوم أصدرت السّلطة أمرها لسكّان الجزائر المسلمين بأن يفتحوا حوانيتهم ليلاً إظهارًا لسرورهم بذلك الانتصار".

أمّا حديث حرق الكهف الذي أوت إليه قبيلةٌ بأسرها سنة 1845 فارّةً أمام الجند الفرنسي فقد صار مضرب الأمثال في الخسّة والدّناءة والوحشيّة، إذْ ما كاد الجند يكتشف ذلك الكهفَ الفسيحَ حتى وضع أمامه وعلى مداخله أكوامًا من الحطب والهشيم والقشّ ثم أوقد فيها النّيران وبات يغذّي تلك النّار كامل اللّيلة، فلما جاء الصباح ودخل الجند الكهف حتى كانت جثث 780 من الضّحايا البريئة من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ، مفكّكة الأوصال وممزّقة الأشلاء تحت أقدام الثّيران والحيوانات التي دفعتها غريزتها نحو الباب فداست كل شيء ثم لقيت حتفها.

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف رجلٌ أسلم الروح وهو متمسّك بقرن أحد الثّيران دفاعا عن امرأته وصبيّه، وقد مات الرّجل والمرأة والصبيّ والثّور وهم على ذلك الوضع.

ولقد قال أحد قوّادهم "سانت آرنو" في كتابٍ مطبوعٍ يُعتبر سِفرًا للفضائح الفرنسية (وشهد شاهد من أهلها) فقال: "لقد كنْتُ أستطيع مع جندي اقتفاء القائد العام دون أن أضلّ الطّريق لأنني كنت أسير على ضوء الحرائق الّتي كان يوقدها في القُرى والمداشر والدّواوير العربية التي كان يمرّ بها قبلي".

إنّ الوثائق والشّواهد لكثيرة حقًا بقلم الفرنسيين وفي كُتب طبعوها وتباهوا بنشرها ما بين سنتي 1830 و1850. ولقد سجّلوا فيها أبشع صفحات الخزي والعار والقذارة والخيانة والاستهتار بالنفس البشرية والكرامة الإنسانية ولنختم هنا الحديث عن تلك الفظائع بهذه الجملة المقتطعة من تقرير لجنة البحث الرّسمية التي بعث بها ملك فرنسا لإطلاع البرلمان على حقيقة ما وقع في الجزائر من مظالم، وذلك في نوفمبر وديسمبر 1833، حيث قال: ".. إننا قد ضممْنا إلى ممتلكات الدولة -سائر عقارات الأوقاف الإسلامية- ووضعنا تحت الحجز ممتلكات طائفة من السّكان تعهّدنا لها باحترام أشخاصها وممتلكاتها، بدأنا أعمالنا في ميدان السلطة بمظلمة ألا وهي: إرغام النّاس على المشاركة في قرض إجباري (100.000) فرنكًا، واستولينا على ممتلكاتٍ خاصّة دون أن ندفع مقابلها أيّ تعويض بل قد أجبرنا في كثير من الأحيان أصحابَ الدّيار الأصليين على دفع نفقات تهديمها، كما أجبرناهم على دفع نفقات تهديم مسجد السيدة بعاصمة الجزائر، وقد اعتدينا دون أي مراعاة على حرمة الأضرحة والزوايا والمساجد وعلى المنازل الخاصّة التي تعتبر مقدّسة عند المسلمين، وقد ذبحنا جماعة من النّاس كانت تحمل جوازات مرور مميّزة بختمنا وقد بدأنا في مذابح عامة، لمجرد الشكّ في طوائف عديدة من السّكان تبيّن فيما بعد أنّها كانت بريئة ممّا اتّهمناها به، ولقد حاكمنا جماعة من وجوه القوم وأشراف الأمة ورجال الصّلاح فيها ما كان لهم من ذنب إلا أنّهم تقدّموا أمام بطشنا يسألوننا الرّفق والشّفقة والرّحمة بأبناء البلاد المساكين فلقد وجدنا حُكّامًا منّا يصدرون

الأحكام بإعدامهم، ووجدنا جلّادين منّا يقومون بتنفيذ تلك الأحكام، إننا
في أعمال الوحشية أولئك المتوحّشين الذي جئنا لتمدينهم".

كل هذا وقع قبل فظائع السنوات الحمراء 1840، وما يليها.

قال أحد نوّاب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير: "إننا قد ارتكبنا في
أشهر من الفظائع وأعمال التنكيل أكثر مما نُسب للأتراك خلال ثلاثمائة
(سِجلّ مُذكّرات مجلس الأمّة الفرنسي).

هذه الوسائل الوحشيّة كان الفرنسيون على يد جيش الاحتلال يقتلون
ويذبحون وينهبون ويسلبون ويرتكبون أسوأ الموبقات قصد إذلال الشعب
الجزائري، وحمله على الخضوع والرّضى بما ليس فيه يد.

فهل ألتوى الشعب الجزائري أو انكسر أمام هذه الوسائل السّافلة؟ لنترك
التاريخ يتحدث ولنشاهد في حلقاتنا المقبلة كيف أنّ هذه المظالم كانتْ بمثابة
البنزين للنار لم تزده إلا اشتعالاً واندلاعًا وتمّت كلمة ربّك الحسنى على الجزائريين
بما صبروا وكافحوا، ودمّرنا ما كان يصنع الجند الفرنسي وقومه وما كانوا
يعرشون.

استيطان الفرنسيين:

ما كادت تستقر أقدام الجند الفرنسي ببعض جهات البلاد الجزائرية رغم
المقاومات والحروب المشتعلة، حتى أصبحت سياسة حكومة فرنسا تتبلور حول
غايتين:

الأولى: إقطاع الأرض للفرنسيين والإتيان بأكبر عدد منهم إلى البلاد، حتى
تمحي صبغتها العربية الإسلامية وتغدو أرضا لاتينية مسيحيّة.

الثانية: حكم البلاد حكمًا مباشرًا، لا دخل لأهل البلاد فيه، فبلاد الجزائر
كانت تُحكم بادئ ذي بدء بواسطة قادة جيش الاحتلال، وقد اشتهر منهم الكثير

بأعمال التنكيل والمذابح الجماعية، وإفناء المسلمين بالجملة، حتى تخلو الأرض لسُكّانها الجدد، وكان شعار المارشال بيجو، السفّاح الشهير "المحراث بيد المستعمر الفرنسي، والسيف على رقاب المستعمَرين".

وكانت الأرض توزّع على حُثالات الفرنسيين العاطلين، فأنشأت الإدارة أول الأمر 46 مركزًا استعماريًا، ووزّعتها مجانا على عشرين ألف من الباريسيين، نُقلوا بنفقة الحكومة إلى أرض الجزائر، ووزّعت عليهم الأرض التي ذهب أهلها شهداء الإرهاب بين السّيف والنار.

وفي سنة 1847 أعلن مجلس النّواب الفرنسي، أن أرض الجزائر قطعة "طبيعيّة" من فرنسا، وأنّها جزء من الوطن الأم وأنّ الفرنسيّين بالجزائر ينتخبون نائبين عنهم للمجالس القومية الفرنسية بباريس- كأن لا وجود للمسلمين.

ثم بدأت محاولات الاستغلال الفظيعة باغتصاب الأراضي وحجز أرزاق المسلمين الجزائريين وكانت تلك هي صفحة الخزي والعار التي سجّلها الاستعمار الفرنسي على نفسه، وكان جشعُه فيها، هو سبب المَصرع الوخيم الذي ينتظره، والذي يتذوق السّاعة منه مرارة الاحتضار.

فالنّظام الاستعماري القذر، قد استولى عنوة واقتدارًا، بواسطة اللّصوصية والقتل والإعدام الجماعي والتدليس على معظم الأرض الفلاحية الغنيّة في القطر الجزائري تلك الأرض التي كانت عنصر عيش الجزائريين وكانت تكفيهم أن يحيوا حياة هنيئة، وتسمح بتصدير الفائض منها إلى الخارج في تجارة واسعة.

إنّ أرض الجزائر الفلاحية تشمل عشرين مليون هكتار يعترف الإحصاء الرسمي الفرنسي أنها توزّع هكذا:

5.000.000 هكتارا تملكها الدّولة الفرنسية ومنها أرض الأوقاف الإسلامية المغتصبة ومقدارها 2.000.000 هكتارا.

4.000.000 هكتارا تملكها البلديّات، أي النّظام الاستعماري الفرنسي، وكل هذه الأرض يستغلّها الاستعمار لفائدته.

2.500.000 هكتار ملك خاص لطائفة المستعمرين (الكولون les colons) وهي أجود الأرض وأكثرها خصوبة وأحسنها موقعا في الجهات التي تتركز […] الأمطار وتوجد بها أعمال الريّ يملكها (26.000) مستعمر.

8.500.000 هكتار من الأراضي القاحلة الجرداء التي ليس بها ريّ ولا […] من المطر إلاّ قليلا بقيت بأيدي الجزائريين في مناطق الجبال والنجود والصحراء توزّع على تسعة ملايين (9.000.000) نسمة.

تشريد الجزائريين عن أرض وطنهم:

وهكذا لم يكتف الاستعمار الظّالم بإبعاد الجزائريين عن الحكم والإدارة والمجالس بل أبعدهم قبل ذلك، ومع كل ذلك عن أرض آبائهم وأجدادهم وتركهم للبطالة والتشرّد والفقر والإهمال.

وقد أُلّفت في فظائع الاستعمار وتشريدهم للجزائريين عن أرض وطنهم الكتب العديدة، ونستطيع أن نلخص مأساة تشريد الجزائريين وإبعادهم عن الأرض في المراحل الآتية:

أولا: كان المارشال (دبيارمون) الفاتح الفرنسيّ المتهم باللّصوصية والسّرقة قد تعهّد بالشّرف على احترام الدّين وشعائره ومؤسساته، كما تعهّد بحفظ ممتلكات الأتراك الذين بعد إقامة ثلاثة قرون أصبحوا من أهل البلاد الأصليين.

لكنه لم يكد تستقر له القدم في الجزائر حتى أعلن مصادرة كل أوقاف المسلمين من أرض وعقار ومصادرة كل ممتلكات أبناء البلاد من الأتراك، وأخذ في الاستيلاء فعلاً على الأرض الفلاحية الغنية في جهة الجزائر ووزّعها على الحثالة التي صحبت جيش الاحتلال.

ثانيا: بما أنّ أغلبية المسلمين كانت تملك الجهات الشاسعة من الأرض ملكا جماعيا، قرابة العائلة أو القبيلة لا الفرد فقد صدر قرار سنة 1832 يقتضي ملكية الدولة الفرنسية لكل أرض لا يستطيع صاحبها أن يستظهر بعقد امتلاكه لها.

وهكذا يستولي الاستعمار على أكبر مساحة من الأرض غصبًا واستلابا.

ثالثا: بعد أن انتهت الدولة الفرنسية من حجز الأرض والأوقاف واستولت على القسم الأكبر من أرض الجزائر أصدرت قانون أكتوبر سنة 1844 الذي يبيح لما بيع أرض الأوقاف للمستعمرين أو توزيعها عليهم، وأن عقد "الوقف" الإسلامي لا يمنع صفقة البيع الفردي أو الهبة، وهكذا استولى المستعمرون على كامل أرض الأوقاف ووزّعوها فيما بينهم.

رابعا: أصدر الاستعمار قانون 31 يوليو سنة 1846 يتملك به كامل الأرض التي تقيم فيها القبائل الرحّالة، فأصبحت الأغلبيّة الكبرى من سكّان البلاد، تعمل في أرض "الدولة" وأخذ الاستعمار يستردّها شيئا فشيئا، لصالح المستعمرين، إلى أن لم يبق بين أيدي البدو إلا الأرض البور.

خامسا: ما كادت الجندية الفرنسية تتغلب على ثورة الزعيم المقراني في البلاد القبائلية، حتى أعلنت مصادرة كامل الأرض الفلاحية في تلك المنطقة، ومساحتها نصف مليون هكتار، ووزعتها على لاجئي الألزاس، تاركة رجال "زواوة" الأشراف الميامين للجوع والفناء العاجل، ولولا رحمة من ربك ومعجزة الإيمان، لما بقيت في تلك الجبال حياة لأهلها.

وهكذا شرّد المستعمرون الجزائريين من الأرض، واستأثروا بها دونهم، ووزّعوها فيما بينهم توزيعا غير عادل، إذ من المستعمرين من يملك قطعة أرض تكفيه لحياته وحياة أهله ومنهم، عدد محظوظ، نال ممالك شاسعة درت عليه ثروات لا يكاد يستطيع ضبطها، ثم هو لا يدفع عنها إلا ضرائب زهيدة جدا.

كانت نتيجة هذا التّشريد الفظيع، وهذه اللّصوصية التي لا مثيل لها في التاريخ، أن وقعت في البلاد الجزائرية مجاعة فادحة، سنة 1867، أدّت إلى هلاك نصف مليون من المسلمين، وأفقرت الجهات الكثيرة من البلاد الجزائريّة، بصفة لا تزال تعاني ويلاتها إلى الآن.

وهكذا كانت الحالة، إلى قيام الثورة الجزائرية الكبرى، يوم غرة نوفمبر سنة 1954: أمة ذات 12 مليون نسمة، تعيش شريدة مهملة في أرض كانت

لآبائهم وأجدادهم، فاستأثر بها الاستعمار دونها، ولم يترك لها إلا القاحل والبور منها، فهبّت تستعيد حقّها بالقوّة، بعد أن أعيتها الحيلة.

ثورة جبال جرجرة:

ما كادت فرنسا، تتلقى الصّفعة القاسية على قفاها العريض في مذلّة وخزي أمام الجند الألماني الظّافر سنة 1871، حتّى اهتبلتها فرصة سانحة جبال جرجرة الشامخة معقل الهمّة والشرف، فهبّت تلوّح عاليا بلواء الثّورة الكبرى، سعيا وراء التخلّص من الاحتلال المفروض بقوة الحديد والنار.

ولقد تزعّم هذه الثّورة المباركة الباش آغا[1] السيد الحاج محمّد المقراني، وشدّ أزره وأعانه على جمع فلول المسلمين تحت راية الجهاد، الشيخ محمد بن حداد وزحفت جموع الثائرين لتحطّم معاقل الاستعمار الفرنسي، وتقوض أركانه في الجهات الشاسعة الممتدّة من بجاية على ساحل البحر شمالا، إلى برج بوعريريج جنوبا، ثم إلى ضواحي مدينة الجزائر غربا. وأخذت الثّورة تنظّم وتتضخّم ويشتدّ ساعدها وتنتشر دعوتها إلى أن اضطرّت فرنسا لاسترجاع جندها الذي كان أسيرا في ألمانيا فوجّهته ضد الفرق الوطنية الثائرة عندئذ وقعت معركة "البويرة" الّتي اندحر فيها الجيش الجزائري بعد مقاومة مستميتة واستشهد فيها زعيم الثّورة الوطنيّة الشهيد الحاج محمد المقراني رحمه الله.

إنما المجاهدون لم يضعفوا ولم يلقوا سلاحهم بعد هذا الانكسار فانسحبوا إلى جبالهم المنيعة، وتحصّنوا فيها، لكن الجند الفرنسي أظهر أمامهم من شدّة المراس ما لم يبذل بعضه أمام الألمانيين، وأخذ كعادته في ارتكاب أعمال الخسّة والحقارة، من ذبح الجماعات البريئة وهتك الأعراض بصفة فاضحة دنيئة، وتحطيم القرى وإتلاف المزارع وإعدام الأقوات والمدّخرات فمن لم يمت بحدّ السّيف مات جوعا أو تحت وقع الفضيحة في بلاد تشحذ من الشرف الإنساني متألقا في الحياة.

1- الباش آغا رتبة سامية في النظام العثماني

وهكذا استمرّت المعارك ستة أشهر أخرى إلى أن احتل الاستعماريّون الطغاة تلك المعاقل جبلاً جبلاً واستولوا على مداشرها قرية قرية، وأسفرت تلك المعارك العنيفة عن استشهاد ما يزيد عن السّتين ألفًا من الأحرار وموت ما يزيد عن عشرين ألفا من جنود العدوّ الغادر، وقد قضى الاستعمار على ذلك الجبل، جبل زواوة الأشم، بالموت السريع إذ غرّم أهله 36 مليونا من الفرنكات ذهبا وحجز كامل الأرض الفلاحيّة البالغة 500 هكتارا، ووزّعها على المستعمرين ثمّ أصدر أحكام الإعدام على كلّ من شارك في الثّورة أو كانت له يدٌ فيها أمّا زعيم الثّورة الذي خلف المقراني وهو السيد أبو مزراق والشيخ محمّد ابن الحدّاد وولداه الشيخان محمّد وعزيز وخمسمائة من وجوه القوم وكبراء البلاد فقد حكم عليهم بالأشغال الشّاقة والمؤبد وسارت بهم السّفن إلى كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي حيث ماتوا رحمهم الله، موت العزّة والشّرف، وبقيت أرواحهم ترفرف في عرصات علّيين تترقب ساعة القصاص، ساعة الأخذ بالثأر، ساعة الوفاء بالوعد الحق: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثورة البدوي:

في نفس مدينة الجزائر، وفي الجهات الممتدة غربها إلى بلدة شرشال، قامت الثّورة كذلك، في تلك الأونة، إلا أنها لم تكن عنيفة قاسية، وأعلن أحد رجال العاصمة المعدودين السيد محمد البدوي، في ساحة الحكومة استقلال البلاد، وأخذ ومن معه يحاولون تنظيم الإدارة المستقلّة الجديدة، لكن الحركة أخفقت، وأرسل الفرنسيون السيد البدوي إلى السجن المضيق يقضي به سبعة أعوام.

مقاومة الأوراس:

لم يستطع الأوراسيّون الأحرار صبرا على احتلال الاستعمار الفرنسي لجبالهم الأهلة المنيعة، وقراهم الجميلة، فأعلنوا الثّورة والانتفاض المرار العديدة، وأهمها ثورة

سنة 1853 الكبرى، وأرسلوا زهرة شبابهم وخيرة رجالهم، يحاربون الفرنسيين ويحاولون إبعادهم عن الديار، فكانت الحرب سجالا، وكانت الوقائع متوالية، فما انتصر الفرنسيون مرة إلا أعاد الأوراسيون الأحرار الثورة مرة أخرى، إلى أن كانت الثورة الكبرى سنة 1954. فنحن نستطيع القول بأن الأوراس هو الجبل الذي لم يخضع أبدا.

المقاومة السياسية في دورها الأول:

اتخذت المقاومة الجزائريّة أشكالا مختلفة منذ توطّد قدم الاحتلال بالبلاد الساحلية إلى قيام الثّورة الكبرى:

الهجرة :

كانت من المظاهر الأولى التي وقعت بعد إخفاق الثّورات الكبرى، هي الهجرة الجزائريّة للبلاد الإسلاميّة الحرّة، فما كادت جموع الجزائريين تعتقد أنه قد حكم عليها بالحياة الشقية الذليلة تحت حيّز الاستعمار الفرنسيّ الفظيع، حتى أخذت تغادر البلاد جماعات وآحادا، فسار بعضها إلى تونس الخضراء، وسار بعضها الآخر إلى الإسكندرية، وبلاد الشام، حيث قُبلوا أحسنَ قُبولٍ على الرّحب والسّعة، ووجدوا أن أخوّة الإسلام ليست مجرّد كلمة تقال.

ولا يزال أبناء هؤلاء المهاجرين يعمرون تلك الجهات كمواطنين صالحين، ثم أن فرنسا أعلنت سنة 1912 قانون التجنيد الإجباري للمسلمين، فازدادت هجرة الجزائريين إلى البلاد الإسلامية الأخرى، كيلا يعملون تحت الراية التي قاوموها عشرات السنين.

أول مقاومة قلمية:

ولا يسعنا إلا أن نسجّل بمداد الشرف، على صفحات التاريخ الجزائري اسم الأستاذ الشهم الكريم، السيد حمدان بن عثمان خوجة، فلقد كان أول جزائري

رفع عقيدته بالاحتجاج الصّارخ، منذ فجر الاحتلال البغيض، فقد بعث به أهل مدينة الجزائر سنة 1832 على رأس وفد يطالب حكومة فرنسا بالإقلاع على مظالمها وآثامها، وإرجاع ممتلكات المسلمين إليهم، والاعتراف لهم بحق الحياة.

وقد ترك لنا هذا الشّهم الكريم وثيقة من أغرب وأثرى وثائق التاريخ الجزائري الحديث إذ ألف كتابا ضخما أسماه "مرآة الأحول" نقله إلى الفرنسية أحد مهرة اللبنانيين، وطبع في مجلد ضخم سنة 1833 بمدينة باريس.

ومما امتاز به هذا السفر الجليل:

أولا: إثباته أن عدد سكّان القطر الجزائري كان عند الاحتلال عشرة ملايين نسمة (والسيّد حمدان كان المدير الثّاني لمصلحة الضّرائب في الحكومة الوطنية الجزائرية).

ثانيا: أنه سجّل أعمال اللصُوصية والنّهب الّتي قام بها الجند الفرنسي، وصوّر أبشع صُورَةٍ لتلك المنكرات التي قام بها الأدنياء دون حياء أو رادع، وأثبت بوثيقة فرنسيّة على يد محضّر فرنسي، أنّ الفرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الإسلامية، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا.

ثالثا: بيانه عن الأملاك والأرزاق المصادرة والمظالم التي ارتكبها الطغاة أثناء الاحتلال وحكاية ما رآه المؤلف منها رأي العين.

وقد رجع السيد حمدان للجزائر خائبا، بعد المجهود الضّخم الذي بذله، ولم يرجع الاستعمار عن غيّه، بل زاد في طغيانه، وبقي كتاب "المرآة" في الخزائن العامّة، يشهد على الاستعمار، بالخزي والعار.

الصّحف الأولى:

كانت فرنسا قد أوجدت في البلاد مجلس النّيابات المالية عام 1901، فاعترفت للجزائر(الفرنسيّة) بمبدأ الاستقلال المالي، وكان ذلك المجلس يشمل الثّلثين من

الفرنسيين، مقابل الثلث من الجزائريين الذين تتدخل الحكومة في انتخابهم تدخلا واضحا.

لكن النهضة التركية، والانقلاب العثماني قد أحدثا تغيرا في حالة البلاد المعنوية، وكان العدوان الطلياني على ولايتي طرابلس وبرقة ضغثا إلى إبالة، فأخذ المسلمون يتململون ويتذمرون، ونشأت في البلاد صحافة ضعيفة أخذت تعبر عن استياء الرأي العام الإسلامي من حالته الوضيعة.

وكانت البلاد تقاسي الأمرين من قانون الأنديجينا[1] (التدجين) الذي تنصبّ نقمته على المسلمين خاصة، فمن لم يدفع منهم الضريبة يسجن، ومن سكن في جهة نائية يسجن ويحطم بيته، ومن اجتمع مع إخوانه فكانوا فوق الخمسة عوقب بتهمة عقد اجتماع دون ترخيص، ولا يسوغ لجزائري أن ينتقل من بلدة إلى أخرى ولو كانت مجاورة له، إلا بإذن خاص، أما القبائل الجزائرية كلها، في السهول وفي الجبال فقد كانت خاضعة لأحكام "الضمان الجماعي" بحيث إن احترق غابٌ، أو وقعت جناية، فسائر أهل القبيلة مشتركون في المسؤولية، وهكذا.

فالأساتذة المرحومون، أحمد بن إسماعيل بوضربة، والحاج عمار والصادق دندان قد قاموا منذ سنة 1910 بتأسيس صحف وطنية، تكتب باللسان الفرنسي، وتدافع عن حقوق ورغائب المسلمين، مثل صحيفة "الهلال" وصحيفة "الرشيدي" وغيرهما، وأحدثت هذه الصحف رجة عنيفة في الأفكار، وأخذت المقاومة السياسية تشتد وتتصلب، وأخذ الشبان المثقفون ثقافة فرنسية يشاركون فيها، ويتقدمون إلى الأمام.

الحرب الكبرى[2]:

جندت فرنسا من مسلمي الجزائر لمحاربة ألمانيا ما يزيد عن الأربعمائة ألف رجل، مات منهم في ميدان الحرب ما يربو عن الثمانين ألفا.

1 - [illegible] (Indigènes)
2 - الحرب العالمية الأولى.

وزيادة على ذلك العدد، فقد جهزت فرنسا ثمانين ألفا من الجزائريين يعملون في المعامل الحربية الفرنسية، وفي المعامل المدنية.

وإذا كان الجزائريون يقومون بذلك المجهود الحربي العظيم -إجباريًا- كانت النخبة منهم تطالب برفع المظالم، وبالتسوية في الحقوق، وتندد بمساوئ النظام الاستعماري، واشتهر من تلك الطبقة المرحومون: عمر بوضربة، وعباس حمانة الذي اغتاله الاستعمار غدرًا، ومحمد ابن رحال، وأضرابهم، ثم أصبحت القضية منتشرة في فرنسا، وقد تولى فيها النضال عن حقوق المسلمين رجال أمثال المأسوف عليهما، جون (جوريس) الزعيم الاشتراكي الكبير(البان روزي) وغيرهما.

نالت الأمة الجزائرية مقابل جهودها، ونضالها وعدا... ينفذ بعد الحرب، على أن جبال أوراس الأبية لم تقنع بهذه المطالب وهذه الوعود، فامتنعت عن تسليم أبنائها للجندية الفرنسية، ونطق البارود من جديد، بين الجانبين، بينما التجأ ما يزيد عن مائة ألف من شبان المسلمين إلى الغابات والجبال فرارا من العمل تحت راية فرنسا الاستعمارية، تلك الراية التي كانوا يحاربونها ثم دخلت المقاومة السياسية في دورها الثاني حين جاءت قوانين 4 فيفري سنة 1919.

انتهت الحرب الكبرى، ورأت فرنسا أن لا بد من عمل شيء للجزائريين من قبيل ذر الرماد في العيون على الأقل، فأصدرت قانون 4 فيفري، تلغي بها أكثر قوانين، الأنديجينا السالفة الذكر، وتسوي فيها بين سائر السكان من حيث الضرائب، فقد كان الجزائريون يدفعون أكثر من الأوربيين وكانت عليهم إلى جانب ذلك ضرائب خاصة بهم.

أما من ناحية الحقوق السياسية فقد اكتفت قوانين 4 فيفري بزيادة عدد الناخبين الجزائريين، بعدما كانوا في دائرة خاصة ضيقة، تشبه بكثير قوانين الأنديجينا في روحها، وتلك الانتخابات لا يشارك فيها إلا التجار وأصحاب الأملاك، ولكن هذه "الإصلاحات" الزائفة الهزيلة قد خيبت آمال الجميع.

ولأوّل مرة في تاريخ الجزائر الحديث، رأت الأمّة زعيمًا سياسيًا مقداما جريئا، وهو الأمير خالد بن محي الدّين بن الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله، فقد كان الأمير عمل برتبة ضابط كبير في الجنديّة الفرنسية، وشارك الفرنسيّين حروبهم وآلامهم فما انتهت الحرب حتى شكل وفدًا أمّ ساحة فرساي، حيث كان الرّئيس الأمريكي "ويلسون" يحاول عبثًا فرض بنوده الّتي نادى بها زمن الحرب، ومنها حريّة سائر الأمم في تقرير مصيرها، لكن سرعان ما علم الجزائريون- كما علم التونسيون والمغاربة أن تلك المبادئ ما كانت في نظر الأوربيّين إلا خدعة حرب لا غير، وأنّ المنتصر الحقيقي في الحرب العظمى الأولى إنّما هو الاستعمار والطّغيان الأوربي، فرجع الوفد الجزائري خائبا، وجمع الأمير خالد هيئة سياسيّة أسماها "وحدة النّواب المسلمين" وأسّس بها صحيفة حرة اللهجة دعاها "الإقدام".

وكان ينادي بوجوب "إصلاح" الحالة في القطر الجزائري على قاعدة تسوية الجزائريّين بالفرنسيّين في كلّ شيء، ودخول الجزائريّين لمجلس النّواب الفرنسي، وإلغاء سائر الأحكام الاستثنائيّة والتفّ المسلمون حول الأمير خالد ورأوا فيه خير خلف لخير سلف، ثم أخذت الأيام تبدي من شدة شكيمة الجزائريين ومن صلابتهم في الحق، ما تحرّجت له أوساط المستعمرين، فتألّبوا وتكالبوا، وقاموا في البلاد الجزائريّة وفي البلاد الفرنسيّة بحملات شعواء على المسلمين، ووقفوا صفًا متينا ضدّ الحقوق التي يطالبون بها، واشتدّ ضغط المستعمرين لدرجة أن رأت فرنسا نفسها مضطرّة لإرجاع قوانين الإندجينا من جديد، وأخرجت الأمير خالد من أرض الجزائر، لكن ألسنة اللّهيب كانت قد ارتفعت عالية، فلم تخمد بعدها أبدا.

واستمرّ الجزائريّون يطالبون بواسطة النّواب، وبواسطة الوفود، بتحقيق برنامج الأمير خالد الذي أصبح في هاتيك الأثناء، وإلى ساعة قيام الحركات الوطنية الكبرى، ميثاقًا قوميًا جزائريا، لا تقوم حركة إلا على أساسه.

ما كادت تنتصر الجبهة الشعبية بفرنسا في انتخابات سنة 1936 إلاّ وبرزت في أفق السياسة الجزائرية فكرتان:

فكرة أبداها الوالي العام الأسبق "موريس فيوليت" وصادق عليها زعيم الحكومة الاشتراكيّة "ليون بلوم" وهي تقضي بإعطاء بعض الحقوق السّياسيّة لقسم ضئيل من المثقّفين الجزائريين كي يشارك مع الفرنسيّين في انتخابات المجالس النّيابيّة تلك الانتخابات الخاصّة بالفرنسيين والتي يطلق عليها انتخابات القسم الأول (Premier Collège) أي الطّبقة الممتازة، أما بقية المسلمين الذين لم تؤهّلهم ظروفهم فيبقون فيما يسمى بالقسم الثّاني، أي قسم المسلمين غير المعترف بفرنسيّتهم وإن نظريا.

وقد ألّف "موريس فيوليت" إثر رجوعه لباريس كتابا للدّعاية والعمل لهذه الفكرة الخرقاء أسماه: "هل تعيش الجزائر؟" وآراؤه تتلخّص في: "إعطاء القسم المتيقّظ من الجزائريّين بعض حقوق يتلهّون بها وينشغلون عن مناوشتنا وإقلاقنا فإن لم تسرع فرنسا بمثل هذه العمليّة التّخديرية فسيأتي يوم وليس ببعيد لينتشر الوعي القوميّ في الطّبقات اليائسة بالجزائر ويندفعون في الميدان التّحرّري الاستقلالي، وعندئذ يتّسع الخرق على الرّاقع، وتخسر فرنسا آخر أمل لها في المحافظة على حضورها بالتراب الجزائري"، وهي نظرة صائبة بعيدة لو وقفت عند حد "فيوليت بلوم" ولم ينخدع ببريقها بعض من لا وعي لهم من سراة الجزائر...

وعلى ضوء هذه المحاولة اليائسة تكوّنت الفكرة الثانية لتدعيم الأولى وهي فكرة عقد مؤتمر إسلامي جزائري يضم قادة الرّأي في القطر الجزائري لتقرير خطّة موحّدة جزائريّة جماعيّة وتولّى كبر هذا المشروع الدّكتور بن جلول ومن التفّ حوله من المحترفين أمثال طاهرات وبيلاج والدكتور الأخضري وما أشبه ذلك، وشارك فيها رجال جمعيّة العلماء بدعوى أنّهم شاركوا بأسمائهم الخاصّة كجزائريّين لا بصفتهم أعضاءً بجمعيّة العلماء، وقد اتخذوا من المبرّرات أنهم لا يأمنون رجال الوفد الّذي انبثق عن هذا المؤتمر وأمّ فرنسا، لا يأمنوه على الدّفاع عن الدّين وعن

للغة العربيّة لجهلهم بها معًا فأعلنوا أن مشاركتهم إنّما كانت للدفاع عن الكيان العربي الإسلامي وإدماج المطالب الدّينية الاستعجاليّة (كفصل الدين عن الإدارة الفرنسية) والدّفاع عن العربيّة بطلب إجباريّة التّعليم العربي في المدارس الحكومية والاعتراف بحريّة التّعليم العربي بالمدارس الحرّة الخاصّة ضمن برنامج المؤتمر.

نادي التّرقّي:

لم يكن الجزائريّون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال الفرنسي، وكانت قوانين الأنديجينا تُحرّم الاجتماعات كما أسلفنا، فكانت كلّ الحركات الجزائريّة تتسم بقلّة النظام- داخل القطر الجزائري- إلى أن وفّق الله بعض الجزائريّين المفكّرين لوضع معقل بعاصمة القطر الجزائري، كان له تأثيره العظيم على الحياتين السّياسيّة والاجتماعية، وذلك هو "**نادي الترقّي**" الذي تمكّنوا من تأسيسه بعد جهود عظيمة، في أحسن موقع من عاصمة الجزائر، فكانت قاعاته الفسيحة تجمع النّخبة المفكّرة كلّها، سواء بالعاصمة أو بداخل البلاد، وكانت المحاضرات والمسامرات والحفلات الكبرى تتوالى فيه، وأقبل النّاس عليها إقبالا منقطع النّظير وكان نادي الترقّي - رغم القوانين الصّارمة- يسير في طريق الدّعوة الإسلامية ونشر العروبة في المجتمع الجزائري، وفي أحضان هذا النّادي تمكّن المصلحون من تحقيق ذلك الحلم الذي كان يراود دعاة النّهضة الإسلاميّة العربيّة ألا وهو تأسيس هيئة إسلاميّة عربيّة تنهض بالأمّة الجزائريّة داخل عروبتها وقوميّتها وإسلامها وتحطّم الأصنام التي نصبها الاستعمار في كل جهة من البلاد الجزائريّة لتخدير العقول وتثبيط الهمم وتضليل الأفكار فكانت "جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين".

ومما أعان على إنجاز هذا العمل ومهّد السّبيل ليقظة الشّعب، تلك الأعياد الهوجاء التي أقامها الاستعمار سنة 1930 احتفالا بمرور مائة عام على احتلال القطر الجزائري وهذا الاحتفال تفتحت الجراحات من جديد في قلب كلّ جزائري وتذكّر المآسي والويلات التي ارتكبتها فرنسا بالبلاد الجزائريّة منذ الاحتلال إلى

الاحتفال ورأى الجزائريّ رأي العين كيف كان الجلاّدون يرقصون فوق ضحاياهم وكيف كانوا ينادون بأنّ الجزائر فرنسيّة وكيف كانوا يتفنّنون في ابتكار أساليب التمويه والخداع وكيف كانوا يمعنون في التعسّف والطّغيان.

وكما يقول المثل السّائر "رُبّ ضارّة نافعة" فإنّ احتفال الفرنسيّين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد دفع بالقضيّة الجزائريّة أشواطا إلى الأمام.

أربعة رجال فقط في ركن من أركان النادي أخذوا المواثيق على أنفسهم مع الله لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جاعلين لها شعارا (**الإسلام ديننا، الجزائر بلادنا، العربيّة لغتنا**) وقد نجحت الدّعوة فأقدم الطّلبة من كل صوب رغم التهديد والوعيد يؤسّسون في يوم مشهود هذه الجمعية الّتي ساهمت بأوفر نصيب في بعث العروبة والإسلام في قطرٍ أراد له الاستعمار التفرنس والمسخ، وانتخبت رئيسا لها المصلح الأكبر الإمام الشّيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله وقد كان يلقي دروس الوعظ والإرشاد بقسنطينة ويقوم بدعوة إصلاحيّة دينيّة واسعة النطاق ويشرف على تحرير جريدة "المنتقد" ويترأس تحرير مجلّة "الشّهاب" ثم "السنّة" و"الشّريعة" و"الصّراط" ثمّ "البصائر"، واقتحمت جمعيّة العلماء ميدان حرب محفوف بالمزالق والأخطار فحاربت عملاء الاستعمار ثمّ قاومت البدعة والضّلالة الدّينية التي كان يُثبّتها الاستعمار تحت ستار الطُّرقية المنحرفة ثم خاضت المعركة التعليمية الكبرى فوفّقت بفضل مساندة الأمة والأحزاب الوطنيّة إلى تنشئة جيل صالح تخرّج من مدارسها وهو اليوم حامل مشعل العروبة والإسلام في البلاد على أنّ الجمعيّة قد شاركت إلى جانب أعمالها الإسلامية العربيّة في النّشاطات السّياسيّة سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة وإن كانت في بعض الأحيان في خلاف عَرَضي مع بعض الأحزاب الاستقلاليّة، خلافٌ في الوسائل واتّفاقٌ في الغايات وأبرز هذه الخلافات كان حول برنامج "فيوليت" الذي يعدّه الاستقلاليّون برنامجا إدماجيا ويراه غيرهم مرحلة من المراحل الّتي يجب اجتيازها للوصول إلى الغاية التي هي استقلال الجزائر واسترجاع سيادتها الكاملة.

نجم شمال إفريقيا:

لقد أُسّسَ هذا الحزبُ بباريس سنة 1926 بادئ الأمر رجلٌ كان ينتمي للحزب الشّيوعي فرأى هذا الحزب أن يجرف إليه جموع العَمَلَة الجزائريّين والتونسيّين والمغاربة الّذين لم يجد فيهم طواعيةً للانخراط في الحزب الشّيوعي، نظرًا لتصادم مبادئه مع مبادئ الشّريعة الإسلاميّة التي يدين بها هؤلاء العملة المغتربين والّذين يتشبثون بأهدافه -وإن شكليًا- تشبّثا جعلهم لا يميلون لأيّة حركة تناهض هذا الدّين من قريب أو من بعيد، وتُفسّر هذا التصلّب من طرف العَمَلَة أبناء المغرب العربي بغريزة الحنين إلى الوطن إذ يرون أن الانتساب لهذا الدّين الرّابطة الوحيدة التي بقيت تربطهم ببلادهم وتراث أجدادهم بعدما أضاع الاستعمار لغتهم ومسَخَ ثقافته العربيّة التي هي الصّلة الوثيقة بتاريخهم المجيد الحافل بالمفاخر والأفضال.

أدرك الحزب الشّيوعي الفرنسي هذه الظاهرة البسيكولوجيّة فسلخ عنصرًا من عناصره المسلمة وأسّس تحت إشرافه حزبا وطنيًا في الظّاهر شيوعيًا في الباطن أسماه "نجم شمال إفريقيا"، مصالي الحاج الذي أضحى صنيعة الاستعماريّين، كان إذّاك صنيعة الشّيوعيين، ولقد دخل هذا الحزب جماعة من العملة بدافع الوطنيّة والغيرة وكان من أعضاء لجنته التنفيذيّة رجال أحرار، أمثال الأخ عيماش أعمر، وراجف بلقاسم، وسي الجيلاني، وموساوي رابح، وكحّال محمّد وسرعان ما تفطّن هؤلاء الإخوان للأصابع الشّيوعيّة العاملة في الخفاء فعملُوا -رغم إرادة مصالي الحاج- على إعلان استقلال حركة نجم شمال إفريقيا وفصلها عن منطقة النّفوذ الشّيوعي، وكان ذلك في أواخر سنة 1932 ومنذ ذلك الحين أصبحت "نجم شمال إفريقيا" منظّمة سياسيّة وطنيّة تعمل لتحرير أقطار المغرب العربي من ربقة الاستعباد الفرنسي وقد ساهم في تسيير هذا الحزب الأستاذ الحبيب بورقيبة، والدّكتور أحمد بن ميلاد والدّكتور الماطري وغيرهم من أحرار تونس الّذين كانوا إذّاك طلبة يزاولون تعليمهم العالي بالكليات الفرنسيّة كما ساهم فيه من إخواننا المغاربة الأستاذ أبو الحسن الوزّاني، وعمر بن عبد الجليل وغيرهم وقد اتسع نشاط هذه

الحركة بعد استقلالها وانتشرت في أوساط عمّالنا الّذين تحمّسوا لها وحفّوها بالعطف والتأييد وغذّوها بالأموال التي يدّخرونها من عرق جبينهم في معامل فرنسا وكانت تقوم بعقد اجتماعات ومظاهرات وبالكفاح القلمي المتواصل الشّديد اللّهجة الذي كانت جريدة "الأمّة" لسان الحزب الرّسمي ميدانا له، تساندها بعض الصّحف السّياسيّة بباريس وبعض الصحف العربيّة في مصر كـ "اللّواء المصري"، وفي أمريكا كـ "القلم الحديدي" بالبرازيل.

ولم تكن الحالة بالجزائر تسمح لانتشار هذه الجريدة أو تكوين خلايا لهذا الحزب فكنّا جماعة نلتقي سرًّا في دكان حدّاد نجلس فوق صديد الحديد إزاء نافخ الكير وضارب المطرقة نتحدث همسًا ونرسم خُطَطًا نحفظها ولا نكتبها خشية عثور الشّرطة الاستعماريّة عليها، وكانت جريدة الأمة تُسرّب إلينا من باريس خفية كما تسرّب الأسلحة المحجرة والمواد المخدّرة بطرق الاحتيال والتّهريب وكانت تباع بخمس فرنكات، ولا تعطى إلاّ لمن تثبت نزاهته وإخلاصه وتعطى له سرًّا في سقائف المنازل كما تعطى القنابل للفدائيين في يومنا هذا.

كان برنامج حـــزب "نـــجم شمال إفريقيا" تحرير أقطار الشّمال الإفريقي الثلاثة الجزائر وتونس والمغرب والعمل على إفتكاك استقلالها وتسخير جميع المنشئات الاقتصاديّة والسّياسيّة والاجتماعيّة بالمغرب العربي لفائدة أبناء البلاد وكان ينصّ على تأميم البنوك والمواني ومصادرة الأراضي المغتصبة، وتجميد الأموال الفرنسيّة المجموعة من عرق جبين الأهالي بطرق الاستغلال والسّلب، ومنذ أن نادى حزب النّجمة بهذا المبدأ لم تزددْ دعوة الاستقلال إلا انتشارا حتّى أصبحت العقيدة العلنيّة للشّعب البائس المنكوب، وقد ضاق صدر الحكومة الاستعماريّة بهذه الثّورة الفكريّة الجديدة التي أخذت تحتلّ الأفكار وتغزو الأوساط الشّغيلة والطّبقات المختلفة بأنحاء البلاد فنظّمت واجهةً شديدة لمحاربتها والقضاء عليها بجميع وسائل العنف والقمع والإرهاب فأصدرت قرارها يوم 29 مارس سنة 1937 بحل "نجم شمال إفريقيا" ولكن زعماء هذه الحركة لم يتقهقروا إزاء هذه الإجراءات التعسّفيّة الحمقاء، فأسّسوا بعد أسبوعين حركة باسم "حزب الشّعب الجزائري"

يقتصر نشاطها على تحرير الجزائر حيث أنّ "الحزب الحر الدّستوري التونسي" و"حزب الاستقلال المغربي" قد تكفّلا بواجب الكفاح التحرّيري في كل من الشقيقتين تونس والمغرب، وكان برنامج "حزب الشعب الجزائري" برنامجا استقلاليا وإن كان أكثر اعتدالا وواقعيّة حيث أنه يطالب بتأسيس برلمان جزائري ينتخب انتخابا حرًّا بدون أيّ ميز بين الأجناس والأديان ويعتبر الفرنسيّين السّاكنين بالجزائر مواطنين جزائريّين يتمتّعون بجميع الحقوق تلقاء قيامهم بجميع الواجبات ما لم يختاروا جنسيّة أخرى فيعتبرون حينئذ أجانب تنطبق عليهم التراتيب التي تجري على الأجانب الساكنين والواردين على البلاد وقد كُتب لـ "حزب الشعب الجزائري" أن ينتشر بطريقة سريعة ومدهشة وأن يغزو جميع الطّبقات وأن يكسب إلى جانبه أنصارًا من الفرنسيّين الأحرار أمثال المحامي "لونقي" و"بيتر طون" والفيلسوف الفرنسي المشهور "فلسيان شالاي"، و"مدام ليوفانير" وأتباع "طروطسكي" بالجزائر وفرنسا، إلا أنّ الإدارة الاستعمارية بالجزائر والحكومة الفرنسية "حكومة الواجهة الشعبيّة" التي كان على رأسها المسيو "بلوم" لم يتّسع صدرها الضيّق هذه الحركة الّتي تعارض سياستها إذ أنّ تلك السياسة التي كانت ترمي إلى سلخ جزء ضئيل من مثقّفي الجزائر وإدماجهم في العائلة الكبرى على حد تعبيرهم وترك بقية الشعب البائس في عزلة يسهل استغلاله في هدوء وسكون بعيدًا عن لحمته المثقّفة المشاغبة التي وضعت الحكومة عظما في فمها تمصّها كما يُفعل بالكلاب، ومن هذه الفكرة الاندماجية انبثق مشروع "بلوم فيوليت" الّذي لم ير الضوء رغم ما فيه من هنات وما ينطوي عليه من سم في دسم، لذلك كان مآل "حزب الشعب الجزائري" مآل "نجمة إفريقيا الشمالية" فقد أصدرت حكومة "بلوم" قرارها الوزاري بحلّه وزجّ رجاله في غياهب بربروس يوم 27 أوت سنة 1937 وتحجير جريدة "الشعب" لسانه الرّسمي الذي صدر العدد الأوّل منها يوم اعتقال رجال الحزب وصدر العدد الثّاني بأسبوع بعد الاعتقال يوم إلقاء القبض على الفوج الثّاني من زعماء الحركة ضمنهم رئيس تحريرها[1].

1 - [illegible]

وقد حكم على أولئك الأحرار بأحكام تتراوح من سنة إلى ستين سجنا بمقتضى قانون "ريني" الاستثنائي الذي حلّ مكان قانون "الأندجينا" مع حرمانهم أمر الحياة في حقوقهم المدنيّة والسّياسيّة وتغريمهم بغرامات مالية تتفاوت بين عشرين ألف إلى مائة ألف من الفرانكات.

رغم هذا الاضطهاد الذي لقيه رجال الحركتين فقد تمكّنت المنظّمة الاستقلاليّة من الحياة والاستمرار في كفاحها بطرق سريّة كانت أشدّ فعاليةً وأبلغ أثرًا وما إن أفرج على أولئك المساجين بعد انتهاء مدة سجنهم يوم 27 أوت سنة 1939 حتى كان الجوّ السّياسي العالمي مكفهرًا ملبّدًا بالغيوم القاتمة وكانت أجراس الحرب الكبرى الثانية[1] تتوالى دقّاتها في الغرب والشّرق ومن الضروري أن لا تدع فرنسا هؤلاء العفاريت يتصرّفون بحريّتهم خشية أن يلعبوا بالنار، فالتقطوا بعد شهر واحد وأودعوا أعماق السّجن العسكري بباب الوادي مثقلين بتهم من نوع جديد: التآمر على أمن الدّولة الدّاخلي والخارجي التواطؤ مع العدوّ، محاولة تفشيل الجيش، دعايات ضد التّجنيد ما أدّى إلى الحكم عليهم من 5 سنوات إلى خمسة عشرة سنة سجنا.

المؤتمر الإسلامي:

ضمن برنامج المؤتمر الإسلامي الجزائري مقرّرات لا تكاد تخرج من ناحيتها السّياسيّة عن برنامج "فيوليت": الانتخاب العام في صندوق واحد مشترك بين الجزائريّين (الممتازين) وبين الفرنسيّين وإلغاء قانون الأندجينا بصفة نهائيّة والاعتراف بالعربيّة لغة رسميّة بالبلاد ثم محافظة المسلمين ممّن يدخلون ضمن الطّبقات الفرنسيّة الانتخابيّة، أي الّذين اعترف لهم بفضل "الفرنسة السّياسيّة" محافظتهم على حالتهم الشّخصية الإسلامية في الزّواج والطّلاق وقسمة المواريث فلا يعتبرون متجنّسين مائة بالمائة وإنما هم متجنّسون سياسيًا فقط ويمكن لهذه الطائفة الشاذّة أن تتمتّع بحقّ الجلوس في برلمان فرنسا باسم إخوانهم المسلمين.

1 - الحرب العالمية الثانية

هذا التّأويل هو الذي جعل جمعيّة العلماء تشارك في المؤتمر إذ أنّها كانت أصدرت فتوى صريحة ضدّ المتجنّسين 100 % واعتبرتهم مرتدّين عن الإسلام، ويحتضن هذا المؤتمر من الدّرجة الأولى رجال وحدة النّواب المسلمين الجزائريّين وهي امتداد للمؤسّسة التي كان ابتدعها المرحوم الأمير خالد.

انبثق عن هذا المؤتمر (أو ما سمّاه الوطنيّون بالمؤامرة ضدّ الشّعب) وفدًا يمثّل النّزعات المشاركة فيه فنزل باريس في شهر جوان سنة 1936، إلا أن غلاة المستعمرين بالجزائر وفرنسا لم يسمحوا حتّى هذا العَظْم للجزائريّين فتألبوا ضدّ المؤتمر ونظّموا حملات شعواء بالجزائر وفرنسا يغذّيها الحقد والمال في آن واحد إلى أن نجحوا في حمل البرلمان الفرنسي (النّزيه دائما) على التّصويت ضدّ مشروع "فيوليت" فخاب رجال المؤتمر في مساعيهم الّتي لم يباركها الوطن ولم يرضى عنها الله، وأيقن الواعون منهم أنّ الطّريق الوحيد الذي يجب على الأمّة أن تسلكه لإنقاذ بلادها وكرامتها هو طريق الاستقلال الوطني.

حزب الشّعب الجزائري:

ما فتئت فكرة المؤتمر وفكرة الحلول العرجاء أن تلاشت كما تتلاشى أكذوبة أفريل بعد افتضاحها وأخذت فكرة "حزب الشّعب الجزائري" تتغلغل في الأوساط تساندها الأمّة ويعطف عليها العلماء فأخذ الحزب ينظّم صفوفه، ويجمع حوله الرّجال الأشدّاء الذين انتحلوا الاستقلال عقيدة لهم ومنهاجا لأعمالهم فأخذت الدّعوة تنتشر في جميع الطّبقات انتشار النّار في الهشيم وطفقت الخلايا تتأسّس في كل قرية وكل فجّ - ذلك الحزب الوحيد الذي وقف في وجه "فيوليت" والمؤتمر الإسلامي والوفد المزعوم، وكان شاعره[1] يملأ الدّنيا بصرخاته - وكانت الحالة العامّة في أوروبا قاتمة عابسة تحت كابوس "هتلر" ووعيده، وريح الحرب تهبّ عاصفة هوجاء وكان العالم يتحقّق أن ساعة الفرج الأكبر آتية لا ريب فيها، لكن

1 - مفدي زكرياء

الفرنسيّين بدل أن يعمدوا إلى الإيمان بالواقع ويغيّروا سياستهم إزاء ذلك التّهديد المخيف ما ازدادوا إلا عنفا وصرامة ضد المسلمين فبادرت بزجّ آلاف الأبرياء في أعماق السّجون خشية أن يحدثوا ثلمةً في صفوفها المتداعية.

وهكذا كانت الحالة السّياسيّة عندما اشتعلت نيران الحرب العالميّة الثّانية، ولا ينكر أحد أن كثيرا من المسلمين الجزائريّين كانوا رغم عاطفتهم الدّيمقراطيّة العميقة -يتمنون من صميم فؤادهم أن يكتب النّصر لألمانيا لا حبًّا فيها- ولا طمعا في خير ينجرّ من وراء انتصارها، بل كانوا يريدون الانتقام من فرنسا المستعمرة، الانتقام ليس إلاّ على حد المثل السائر (عدو العدو صديق).

الحرب الكبرى الثّانية والخذلان الجرماني الأمريكي:

دخلت فرنسا الهرمة الواهنة المنحلّة تلك المعمعة عن غير استعداد يقودها جماعة من المترفين وطائفة من المرتزقة تجّار الموت إلى أن ضرب "هتلر" ضربته الحاسمة فنكبهم النّكبة الكبرى وفرقهم أيدي سبا... ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فلم تستطع تلك الدّولة الفرنسيّة أن تحافظ على عظمتها الزّائفة أمام الحقّ المرير ولا أن تثبت بسلاحها ورجالها نصف شهر أمام الجحافل الجرمانية الزّاحفة فخرّت صريعة وفقدت كلّ شيء حتّى الشّرف بل كان الشّرف أوّل ما فقدته وما وسعها إلاّ أن استسلمت في مذلّة وإصغار، وذاقت كأس الاحتلال المرير الّذي طالما جرّعته الشعوب الآمنة المطمئنّة في سرها، وخصوصًا الشّعب الجزائري الذي عرف كيف يجازيها صاعًا بصاعين.

لقد كان الجزائريّون يستعدّون يومئذ لتصفية الحساب نهائيا مع فرنسا واستعمارها ومظالمها واحتلالها، لولا تدخل الألمانيّين من جهة وقد كانوا يقولون: "انتظروا معاهدة السّلم فينصف كل واحد" ولو لا تدخل الرّعاة الأمريكيين الذين كانوا يقولون: "لا تفعلوا شيئا وانتظروا فستربح الجولة الأخيرة وسنعطي كل ذي

حق حقه"، وصدّق بعض الجزائريين أولئك كما صدق بعضهم هؤلاء ويا ليتهم
يصدّقوا أحدًا من الجانبين ويا ليتها كانت القاضية ويا ليتهم تدبروا قول الشاعر:

وأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ إنْ فُرْصَةٌ سَنَحَتْ ... لَمْ يَجْعَلِ السَّبَبَ المَوْصُولَ مَقْطُو[illegible]

لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأَفْعَى وتُرْسِلَهَا ... إنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتْبِعْ رَأْسَهَا الذَّ[illegible]

ولقد تأسّست حكومة خيالية في الكواليس على يد بعض الضبّاط الأمريكـ[illegible] العاملين في مصالح الاستعلامات الأمريكية بالتناسق مع المكتب الثاني الفرنسي، وقد تورّط في هذه التشكيلة الشبيهة بالأساطير المضحكة جماعة من دراويش الجزا[illegible] ووزّعت المصالح والوزارات وألّفت القوانين ووضع الدّستور للإعلان عن هذه الحكومة ورسمت الخطط للتنفيذ في يوم نزول أوّل جندي للحلفاء بالتراب الجزائري فما بزغت شمس ذلك اليوم حتّى ذابت هذه الحكومة كما يذوب الشمع وأصبح جلّ وزرائها المنتظرين يتمتّعون بوظائف عليا في المصالح الفرنسيّة بالجزائر.

وكم يحفظ التّاريخ العادل بين طيّاته من أسرار، سوف يأتي يوم لهتك عن حقائقها الأستار.

لقد تحدثنا عن مراحل الكفاح الجزائري في دوره القلمي السّياسي واستعرضنا مختلف الاتجاهات السّياسيّة قبيل الحرب العظمى الثّانية من برنامج "بلوم فيوليت" إلى "المؤتمر الإسلامي الجزائري" إلى "جامعة النواب الجزائريين المسلمين" إلى حركة "نجم شمال إفريقيا" إلى حركة "حزب الشعب الجزائري" إلى حركة "جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين"، وقد كان الشعب الجزائري يستخلص دروسًا قيّمة من خلال هذه الحركات المتفقة حينًا والمتناقضة حينًا آخر واكسبته تجاربه القاسيّة نضجًا فكريًا وثقافة سياسيّة واسعة النطاق قوامها المصابرة وصدق الاختبار، وكان صدق الاختبار مرتكزًا حول فكرة واحدة تمخّضت عنها الأحداث المتواصلة هي فكرة استقلال الجزائر واسترجاع سيادتها المغتصبة مهما كانت التضحيات والتكاليف، وجاءت الحرب الكبرى الثانية ورأينا كيف وقف الجزائريون إلى جانب

الحلفاء وكيف ضحك هؤلاء الحلفاء على أنفاق الشعب وقلبوا له ظهر المجن بمجرد ما أحرزوا على الانتصار وتوصّلوا لتحطيم ألمانيا وتحرير فرنسا التي انتقلت إلى المحور المذلّلة على أصحّ تعبير.

وكيف رجع الجزائريون في هذه الحرب بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها تاركين في ميادينها مئات الآلاف من الضحايا الذين لو بذلوا تلك الأرواح الزكية في سبيل استقلال الجزائر لوقعت تصفيّة الاستعمار الفرنسي في زمن بعيد ولكن ما العمل والأمور مرهونة بأوقاتها وكان أحرار الجزائر يعتقدون أن السّاعة آتية لا ريب فيها وأن الجرس لا بدّ أن يدق في يوم من الأيام ولقد وقع ما كان منتظرا إذّاك في انتفاضة الشعب وردّ فعل الحكومة الاستعمارية، ففي نوفمبر من سنة 1942 تمكّن الأمريكيون من احتلال الشمال الإفريقي، وأبعدوه عن نفوذ حكومة فيشي الصّورية ونفوذ لجان الهدنة الألمانية الطليانية الفعلية لكن وقع أيضا ما لم يكن منتظرا فإن الأمريكيين اعتمدوا في حكم البلاد على الفرنسيّين خاصّة - ولم يفكّروا - رغم وعودهم لبعض السّراة الجزائريين - في أنصاف المسلمين وتمكينهم من إدارة شؤون بلادهم كما يقتضيه المنطق الصّحيح وكانوا يقولون في جرأة وصراحة: "نحن إنما جئنا لمحاربة المحور، أمّا قضاياكم الخاصّة فيما بينكم وبين الفرنسيّين" فقلنا لهم: "وماذا يكون موقفكم لو أنّا أخذنا في تصفية حسابنا مع الفرنسيين الآن؟" فقال المتحدّث الرّسمي باسمهم: "إن الفرنسيّين في الشمال الإفريقي حلفاؤنا، وإننا نسعى لاستمالة الفرنسيّين في فرنسا، فكلّ عمل يقع هنا ضدّ الفرنسيّين إنما نعتبره موجّهًا ضدّنا ونقاومه إلى جانبهم بكل شدة وصرامة".

وهكذا خاننا الألمانيون وخدعنا الأمريكيون ولم يبق أمامنا من باب نطرقه إلّا باب الأعمال السلميّة القليلة الجدوى، في تلك الأوقات الحرجة.

أحباب البيان والحريّة:

في 3 فيفري من سنة 1943 اجتمع رجال من أحرار الجزائر فيهم من أنصار "حزب الشعب"، ومن العلماء ومن النواب، ومن المستقلّين، وتفاوضوا في

مستقبل الأمّة الجزائريّة، وفي خروجها نهائيًا من المنطقة الاستعماريّة إلى المنطقة المستقلّة الحرّة فقرروا تحرير "بيان" لينشرونه على الأمّة الجزائريّة ويقدمونه للأمّة الفرنسيّة ولرجال الدّولة المتحالفة وقد اتفقوا على النّقطة الرئيسيّة وكلفوا الأستاذ فرحات عبّاس بتحريره في صيغته النّهائية فكان البيان يعلن:

أولا: إفلاس الاستعمار في سياسته، مع تفصيل مراحل هذا الإفلاس.

ثانيا: إنّ الاستعمار قد حكم على الأمّة الجزائريّة بالفقر والجهل والتشريد وأبعدوها عن كل ميادين الحياة، وأن الأمّة لن تستطيع بعد اليوم صبرًا على هذا النظام.

ثالثا: إن المخرج الوحيد للأمّة الجزائرية ممّا هي عليه من اللّطخة الاستعمارية إنما هو إعلان "الجمهوريّة الجزائريّة المستقلّة" مع ارتباطها بفرنسا ارتباطا تعاقديا، ومع احترامها لحقوق سائر السكّان دون تمييز بين جنس ودين، على أن تكون للجمهوريّة الجزائريّة جنسيّتها الخاصّة، وعلمها الخاص.

وانضمّ أغلب النّاس إلى هذا "البيان" وتوحّد في هيأة أسمت نفسها "أحباب البيان والحرّيّة" وتكتّل حوله أغلب العاملين لخير الجزائر على قاعدة الاستقلال والتّمييز وجاهروا بدعوتهم متحمّسين مستعدّين لبذل أغلى التضحيات في سبيلها.

أمّا الحكومة الفرنسيّة التي كانت تدعو نفسها "حكومة فرنسا الحرّة" والتي كان يرأسها الجنرال "ديغول" فقد هالها الأمر وعزمت على الشرّ والانتقام وجاء ديغول بنفسه إلى مدينة قسنطينة يعلن برنامجا هو أشبه شيء ببرنامج "فيوليت" السّالف الذّكر، ويعد المسلمين بطائفة من الإصلاحات في نطاق بقائهم فرنسيّين، تعتبر بلادهم إلى الأبد جزءًا من فرنسا حسب الأنشودة الرّتيبة.

ثمّ بدأت هذه الحكومة الدّيمقراطية تنكّل برجال حزب البيان وألقت القبض على الأستاذ فرحات عبّاس وزجّت به مع أحد رجال البيان في السّجن، فكانت الأمّة الجزائريّة تغلي غليان البركان إثر هذه الحوادث، وكان غليانا ينذر بانفجار جارف، وبعد مدة أفرج عن الأستاذ فرحات عبّاس تحت ضغط الرّأي العام

الفرنسي الحر والجزائري المتوثّب وعاد رجال "أحباب البيان" والحريّة إلى استئناف العمل والاجتماع ومعالجة الوقت بما يتطلّبه من حكمة وحزم والاستعداد لخوض المعارك السياسيّة عندما تضع الحرب أوزارها قريبا، وقد كانت إذّاك تشرف على نهايتها، وانتهت الحرب بعد قليل بانهزام ألمانيا، تحت ضربات السّلاح الأمريكي وشاء ربك أن تلعب فرنسا دور المنتصر الظّافر مع المنتصرين كما هي عادتها دائما بعد أن كانت تقف في مؤخّر صفوف المنهزمين وراق لها أن تلقّب بصفوة الدّول الكبرى وكبيرة الدّول الصّغرى.

8 ماي 1945:

ففي 8 ماي سنة 1945 احتفل العالم الغربي (الحر!) بعقد الهدنة مع ألمانيا وأراد الجزائريّون أن يشاركوا في هذا الاحتفال وأن يستعملوها وسيلة لإظهار عواطفهم نحو الدّيمقراطية وإبداء رغائبهم وتجديد أهدافهم ولكن الاستعمار الفرنسي النحس كان قد هيّأ برنامجه الإبادي واختار مواقع المعركة، فما كادت التّظاهرة السلمية تعقد بمدينة سطيف صبيحة ذلك اليوم، حتى تحرّش بها الفرنسيّون بدعوى أن المتظاهرين كانوا يرفعون أعلاما جزائرية واغتال محافظ الشّرطة بيده الآثمة غلاما مسلما كان يرفع لافتة، وتألّب على المسلمين من الجهة الممتدّة بين سطيف وخرّاطة وقالمة رجال الجند الفرنسي بين مشاة وطيّارين وفرق مصفّحة وكان رجال البحريّة الفرنسيّة مستعدّين على السّواحل ورجال الجالية الأوربية الذين كانوا قد سُلّحوا أو استعدوا لذلك اليوم الأحمر الرّهيب للارتكاب أفضع الجرائم في مذبحة من أفظع المذابح الاستعماريّة في العالم.

وفتح الفرنسيون موسم الصّيد الآدمي، وطورد المسلمون في المدن والقرى والمداشر كما تطارد السّباع في الغابات وعمّت المذابح والحرائق فذهبت ضحيّتها القرى العديدة فلم ينج من ويلاتها رجل ولا امرأة ولا صبيّ ولا شيخ كبير وكانت المصفّحات الفرنسية تسير صفًا متراصًا فتدمّر القرى على رؤوس من فيها من رجال ونساء وأطفال، حتّى يسوى بها وبما فيها الأرض فكانت الدّماء تجري غزيرة وقد

صُبغت الأرض بدمها القاني بصفة بارزة أمكنت المصوّرين من التقاط صور لها من أعلى الطائرات.

أمّا بالمدن الكبيرة كسطيف، وقالمة، فكان رجال "الميليشيا" من المتطوّعين الأوروبيّين يهاجمون الدّيار ويلقون القبض على النّخبة الجزائريّة المثقّفة يذهبون بها خارج الأسوار ويأمرُونها تحت تهديد الرشاشات بحفر القبور الجماعية ثم يقتلون الفوج إثر الفوج ويأمرون كل فوج بدفن الفوج السابق.

أما النّساء فقد امتُهِنّ شرّ امتهانٍ وانتُهكت حرماتهنّ انتهاكا جديرا بوحوش مجاهل إفريقيا القديمة واستراليا وقد قُطّعت آذانهن لأجل الاستيلاء على الأقراط، وأيديهنّ من أجل الخواتم والجند الفرنسي السفّاك يتفاخر أبناؤه بالإحراز على أكبر عدد من الخواتم والأقراط.

دامت المذبحة أيّاما وليالي سوداء وأسفرت عن مقتل 48 ألفا من المسلمين، واضمحلال قرى كاملة، وخراب جهات فسيحة وإعدام النّخبة المفكّرة في كامل الجهة ولولا تدخّل رجال أحرار اندفعوا ينصرون الحقّ ويندّدون بالمذبحة ولولا ضجّة عالية قامت ضدّ هذه الجريمة المنعدمة النّظير، لكان قد حل بالمسلمين سنة 1945 ما هو واقع ببلادهم اليوم في هذه الثورة الكبرى.

بادرت الحكومة مع كل ذلك بحل "حزب أحباب البيان" الجزائري وألقت القبض من جديد على رئيسها فرحات عباس وأنصاره وعلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صحبة الأعضاء البارزين من هذه الجمعية أمثال الشيخ العربي التبسي، وعدد كبير من الرجال الأحرار منهم أغلب أعضاء "حزب الشعب الجزائري" الذين لم يكونوا في السجون والمعتقلات فكان عدد المقبوض عليهم 4560 جزائريا هم نخبة الأمّة ومفكروها وصدرت الأحكام على 1300 رجل، منهم 99 حكما بالإعدام، و64 بالأشغال المؤبّدة، و329 بالأشغال الشاقة لآجال تتجاوز عشر سنوات والبقيّة ببضعة أعوام سجنا.

أمّا من الجانب الأوربي فالمسلمون تمكنوا من قتل 102 من الفرنسيّين فقط فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم أو يثأروا لموتاهم وينتقموا لأعراضهم بأكثر من ذلك.

فحادثة 8 ماي الرّهيبة، كانت الأساس الأوّل الذي بنيت عليه قواعد الثّورة الجزائريّة العارمة سنة 1954 وغرست شجرة الحريّة السّابقة في بركة من دماء الشهداء الأبرار.

بقي قادة الأمّة في السّجن تحت خطر الاغتيال الإجرامي إلى يوم 16 مارس 1946 حيث صدر الأمر بإطلاق سراحهم وكانت الحكومة كما أسلفنا قد قامت بحل حزب "أحباب البيان" الجزائري وحل "حزب الشعب الجزائري" فقام الأستاذ فرحات عبّاس بتأسيس حزب جديد أسماه : حزب "الاتّحاد الدّيمقراطي للبيان" الجزائري أمّا رجال "حزب الشّعب" فقد أسسوا كذلك حزبا جديدًا دعوه: حزب "الانتصار للحريّات الدّيمقراطيّة" واستعدّ الجميع لخوض معمعة جديدة من ورائها الموت أو من أمامها الحياة.

ملحق

هذه أبيات، من إلياذة الجزائر، خلّد بها الشاعر مفدي زكرياء حوادث 8 ماي 1945، وقد ختم هذه الحصص بقصيدة حول هذه المجازر إلاّ أنّها تضل إلى حدّ نشر هذا الكتاب في حكم المفقود.

وَلَمْ نَنْسَ فِي أَرْبَعِينَ وَخَمْسٍ ... ضَحَايَا الْمَذَابِحِ فِي يَوْمِ نَحْسٍ[1]
طَرِبْنَا مَعَ الْحُلَفَاءِ انْتِصَارًا ... وَقُمْنَا نُصَفِّقُ فِي غَيْرِ عُرْسٍ
فَكَانُوا مَعَ الْغَدْرِ، عَوْنًا عَلَيْنَا ... وَدَرْسًا لِقَادَتِنَا أَيُّ دَرْسٍ!
وَكَانَتْ مَجَازِرُهُمْ بِسَطِيفَ ... وَقَالْمَةَ لِلشَّعْبِ، دَقَّاتِ جَرْسٍ
وَهَزَّ لِسَتْرَادْ شَعْبًا تَوَالَى ... وَأَيْقَظَ فِي الْعُمْقِ مَيِّتَ حِسٍّ[2]
وَعَلَّمَنَا أَشْبَارِي الثَّنَايَا ... فَبَدَّدَ لَوْنُ السَّمَا كُلَّ لَبْسٍ[3]
وَكَانَتْ تُلاحِقُ أَفْلامُنَا ... سَرَابَ السَّلامِ فَبَاءَتْ بِنَحْسٍ
وَكَانَتْ تُكَافِحُ أَحْزَابُنَا ... مَعَ الْوَهْمِ، بَيْنَ صِرَاعٍ وَهَمْسٍ
فَعَطَّلَ صَوْتُ الرَّصَاصِ اللُّغَى ... وَأَنْطَقَ أَلْسِنَةً غَيْرَ خُرْسٍ
فَقَامَتْ تُعَبِّدُ أَكْبَادُنَا ... طَرِيقَ التَّخَلُّصِ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ

شَغَلْنَا الْوَرَى، وَمَلأْنَا الدُّنَا
بِشِعْرٍ نُرَتِّلُهُ كَالصَّلاةْ
تَسَابِيحُهُ مِنْ حَنَايَا الْجَزَائِرْ

1 - مجزرة سنة 1945م في سطيف وخراطة وعين الكبيرة وعموشة وبني عزيز إلخ...
2 - [illegible]
3 - [illegible]

فَيَا أَرْبَعِينَ وَخَمْسًا أَعِيدِي ... فَظَائِعَ جُنْدٍ، غَبِيٍّ بَلِيدِ
وَآثَامَ أَخْلاقِ جِنْسٍ هَجِينٍ ... عَدِيمِ الْحَيَا، كَضَمِيرِ الْيَهُودِ
وَيَا ذِكْرَيَاتِ السَّمَاءِ الْقَوَالِي ... أَفِيضِي خِلالَكِ مِلْءَ نَشِيدِي
وَيَا لَعَنَاتِ السَّمَاءِ الرَّوَانِي ... صَوَاعِقَ، فَوْقَ الظَّلُومِ الْحَقُودِ
وَيَا زَهْرَةً، زَرَعَتْهَا دِمَانَا ... وَنَحْتُهَا بِالصَّبَاحِ الْجَدِيدِ
أَلاَ، ضَمِّخِي مُهَجَاتِ الضَّحَايَا ... بِخَرَّاطَةَ الْمَجْدِ رَمْزَ الأُسُودِ
تُنَافِحُكِ عَمُّوشَةُ الْخَالِدِ ... ين، عَبِيرًا، فَيَخْجَلُ عِطْرُ الْوُرُودِ
وَهُزِّي بِعِزَّتِنَا فِي بَنِي عَزِيزِ الْمَغَاوِيرِ، صَدْرَ الْوُجُودِ
وَتِيهِي بِمَنْ شَيَّدُوا لِلْبَقَا ... وَمَنْ كَتَبُوا صَفَحَاتِ الْخُلُودِ
وَمَنْ قَرَّرُوا لِلْبِلادِ الْمَصِيرَ، بِنُورِ الضُّحَى، وَبِنَارِ الْوَقُودِ

شَغَلْنَا الْوَرَى، وَمَلأْنَا الدُّنَا
بِشِعْرٍ نُرَتِّلُهُ كَالصَّلاةْ
تَسَابِيحُهُ مِنْ حَنَايَا الْجَزَائِرْ

1 - 2 و 3 و 4 مجازر 8 مايو 1945 أشهر من أن نعلق عليها هنا بكلمات وجيزة، ويكفي أن نقول بشأنها أن الجزائريين أرادوا المشاركة في الاحتفال في ذلك اليوم مطالبين بالاستقلال الموعود، فكان هم الفرنسيون الذين أطلقوا الرصاص على المتظاهرين ونظموا مجازر في قالمة، وسطيف، وخراطة، وعموشة، وبني عزيز، ذهب ضحيتها أكثر من خمسة وأربعين ألف من الجزائريين، وهي المشهورة بحوادث ماي 1945.

تاريخ الصّحافة العربيّة بالجزائر

جمع وتحقيق

د. أحمد حمدي

"على نبضات الشعب ، وقعت ألحاني
ومن نشوة التحريـر، لحـنـت أوزاني
وأنشدت في أفراح شعبي، وتـرحـه
روائـع، لم يصـدع، بإعجازها، ثـاني
وخلدت، مـن مجد العروبـة، صفحة
رسـمـت على عنوانـها، وجه قحطان
وتيمني حـب الجزائـر، فارتـوى
نشيدي، في السـاحـات، من دمها القاني"

"مفدي زكرياء"

المقدمة

"الصحافة في كل شعب ترجيع للأصداء المختلفة التي تتجاوب في شتى ميادينها، ومرآة صقيلة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تضطرب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها وانبعاثها".

ذلك هو مفهوم مفدي زكرياء للصحافة، وتلك هي رؤيته لوظيفتها الرائدة في بناء ذاكرة الأمة، وتفعيل دورها في المجال الحضاري. من هذا المنطلق الواضح راح يبحث في مختلف وقائعها، ومراحل تطورها، وزوايا تاريخها الحافل بالجزائر، حيث أسفر بحثه ذلك عن برنامج إذاعي اشتمل على 23 حلقة، تم بثها عبر الإذاعة التونسية ما بين سنة 1959 وسنة 1961 أثناء الثورة المسلحة، وقد حرص المؤلف على جمعها في هذا الكتاب المتميز، والأول من نوعه، والذي نقدمه للقراء بعد ربع قرن على رحيل صاحبه إلى جوار ربه.

ملامح من سيرة مفدي زكرياء :

وقبل كل شئ لا بد من الحديث قليلا عن مؤلف هذا الكتاب، فهو مفدي زكرياء بن سليمان من مواليد 12 جمادى الأولى سنة 1325 هـ[1] الموافق 18 جوان 1908 ببلدة بني يزقن — غرداية، وفيها ابتدأ حفظ القرآن الكريم، وفي السابعة من عمره انتقل إلى مدينة عنابة مقر تجارة والده، ثم أرسل إلى تونس ضمن البعثة الميزابية، التحق بجامع الزيتونة سنة 1926.

بدأ العمل السياسي في أوائل الثلاثينيات ضمن صفوف "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين" وحزب "نجم شمال إفريقيا" ثم "حزب الشعب الجزائري" ثم "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" ثم "جبهة التحرير الوطني".

1 - حسب برنامج الموافقات الإلكتروني فإن 12 جمادى الأولى سنة 1325 يوافق 22 جوان 1907، لكن مختلف المراجع توافق ذلك بأفريل سنة 1908م.

ساهم بشكل فعال في النشاط الأدبي والسياسي في كل أقطار المغرب العربي ودخل السجن خمس مرات ابتداء من سنة 1937 وانتهاء بسنة 1959.

كان أمينا عاما "لحزب الشعب الجزائري" ورئيسا لتحرير لسانه المركزي صحيفة "الشعب" سنة 1937 و 1938.

واكب إنتاجه الفكري والأدبي تاريخ الجزائر الحديث، ابتداء من سنة 1925 إلى أن توفاه الأجل يوم 2 رمضان 1397 الموافق 17 أوت 1977[1] ودفن في بلده الأصلي بني يزقن.

لقد كتب أغلب الأناشيد الوطنية التي ما فتئت ترددها الحناجر، مثل "فداء الجزائر" و"نشيد الطلبة " و"نشيد العمال" و"نشيد جيش التحرير" والنشيد الوطني " قسما" ..الخ.

هذه ملامح وجيزة من السيرة الذاتية لمفدي زكرياء ..ملامح تعبر عن شخصية فذة، متعددة المواهب، مفعمة بالنضال الصلب، والمواقف الوطنية العظيمة، فإلى جانب كونه صحفيا بارزا فإنه باحث متبصر، وأديب ناثر متميز، وزعيم سياسي محنك، بل إنه ــ كما ألمحنا سابقا ــ أحد مؤسسي أهم حزب من أحزاب الحركة الوطنية الذي صدح بأعلى الأصوات إبان الثلاثينيات من القرن العشرين مطالبا بحق الاستقلال، ولو بأغلى الأثمان، ذلكم هو "حزب الشعب الجزائري". غير أن كل هذه الزوايا المشرقة ظلت تغطيها الظلال الوارفة لشجرة الشعر الباسقة التي رعاها مفدي زكرياء، بل يكاد يطوي النسيان تلك المواهب المتعددة.

فما هي الأسباب يا ترى ؟

لا شك أن الإجابة على ذلك تتطلب استقراء تاريخيا، يفضي الى تحديد الظروف والمحيط الذي ساعد على تكوين شخصية مفدي، حيث أنه دون ذلك لا يتم إنتاج المفاتيح الأساسية لمغاليق السؤال المطروح.

---

1 – الأمين بشيشي، النشيد الوطني، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 1998 ص:15 [illegible] عنوانه "اللهب المقدس" ط 3. [illegible] التاريخ التالي: أول رمضان 1397هـ الموافق 16 أوت 1977.

مفدي زكرياء المناضل:

تكاد شخصية مفدي النضالية وحنكته السياسية أن تكون مجهولة لدى الشباب، رغم كونه، كما ألمحنا سابقا، أحد مؤسسي "حزب الشعب الجزائري" البارزين، ورفيقا حميما لمصالي الحاج، ولا نبالغ إذا قلنا أن كثيرا من مفردات الخطاب الإديولوجي الجزائري كانت من بنات أفكاره، فقد عرف السجن كمناضل لأول مرة سنة 1937 إثر حل "حزب الشعب الجزائري" حيث ألقي القبض عليه رفقة مصالي الحاج وحسين الأحول ليطلق سراحه سنة 1939 ليلقى عليه القبض مرة ثانية سنة 1940 ليعود مرة أخرى للسجن إثر مجازر 8 ماي 1945 وعندما يترشح للمجلس الجزائري، باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، يكون ضحية تزوير مفضوحة.

انضمّ إلى "جبهة التحرير الوطني" بعد تأسيسها بأيام قلائل، ليكتب بدمه، في غياهب سجن بربروس الرهيب، وبالضبط يوم 25 أفريل سنة 1956 في الزنزانة رقم 69 النشيد الوطني الخالد " قسما"[1]، وبمجرد أن أطلق سراحه حتى فر إلى المغرب الأقصى ليلتحق بصفوف الثورة بتونس، ليساهم بنشاطاته النضالية المختلفة في التعريف بنضال الشعب الجزائري وحقوقه في الحرية والاستقلال، وضمن نشاطه السياسي أيضا، فقد كان من المساهمين أيضا في تأسيس الحزب الدستوري التونسي الأمر الذي يدل على نظرة مفدي التي تؤكد على ضرورة وحدة المغرب العربي الكبير، وهي نفس المفاهيم والرؤى التي تشبع بها من أدبيات "نجم شمال إفريقيا"، وانعكست بصورة جلية في نصوصه الشعرية، وفي مختلف مراحل حياته السياسية التي طبعت حتى في مرحلة استعادة الاستقلال الوطني بطابع الرفض التام لكل ما لا يتوافق وتلك القناعات المبدئية الراسخة.

---

1 – مفدي زكرياء، اللهب المقدس، الطبعة الثالثة، الجزائر، موفم للنشر 2000 ص : 71

مفدي زكرياء الصحفي:

لا شك أن مفدي زكرياء يعتبر من أوائل المؤسسين للصحافة الوطنية، أي تلك الصحافة التي تتميز عن صحافة "الأهالي" وعن صحافة "الكولون" و"الجمعيات"، بكونها صحافة تحمل مشعل الدفاع عن الوطن، وتحث على توحيد الصفوف لتحريره من قبضة المستعمر، وينضوي أغلبها تحت لواء "حزب الشعب الجزائري" بتعدد مسمياته.

أول خطوة لمفدي في عالم الصحافة كانت مبادرته إلى جانب رفيقه الشاعر رمضان حمود، عندما أسسا جمعية "الوفاق" الأدبية التي أصدرت صحيفتها في الفترة ما بين 1925 و1930 في تونس.

ولدى عودته إلى الجزائر أسس جمعية مماثلة، وأصدر لها صحيفة "الحياة" التي صدر منها ثلاثة أعداد فقط سنة 1933.

في هذه الفترة انضم مفدي إلى حزب "نجم شمال إفريقيا" الذي رفع شعار الوطنية والتحرر التام من ربقة الاستعمار، وقد بدأ نضاله المبكر في صفوف "جمعية الطلبة المسلمين في شمال إفريقيا"، التابعة للنجم، وبعد حله من طرف القوات الاستعمارية، تأسس من جديد تحت اسم "حزب الشعب الجزائري" وكان مفدي من ضمن مؤسسيه البارزين، ومن موقعه ذلك أسس صحيفة "الشعب" باللغة العربية باعتبارها لسان حال الحزب، لكن السلطات الاستعمارية كانت له بالمرصاد إذ سرعان ما أوقفت الجريدة، وزجت بمفدي مع قادة الحزب في غياهب السجون.

ورغم انشغالاته الوطنية العديدة هذه، فقد ظل مراسلا وفيا لعدد معتبر من الصحف والمجلات التونسية، بأسماء مستعارة مثل "الفتى الوطني" و"أبو فراس" كما كتب لبعض الصحف الجزائرية السرية مثل "الوطن" و"العمل الجزائري".

تميزت كتابات مفدي الصحفية بطابعها الثوري، وحماسها الفياض، ولغتها الصافية والمباشرة، عندما تكون موجهة لجماهير الشعب، وطافحة بالتهكم والسخرية اللاذعة عندما تكون موجهة لقوى البطش الاستعماري، وقد غلب على كتابات مفدي في هذه الفترة المقال الصحفي والتعليق، دون إغفال بقية الأجناس الصحفية الأخرى، ويعود سبب ذلك إلى أن مفدي ينزع نحو صحافة الرأي لا صحافة الإثارة، لكن ذلك لا يمنعه من أن يكتب بأسلوب صحفي بليغ، طابعه تحريضي، وهدفه تعبوي، وسياقه حماسي متمرد.

ولم يكن نشاط مفدي الصحفي محصورا في الصحافة المكتوبة، بل كانت له تجربة متميزة في الصحافة المسموعة، حيث أعد جملة من البرامج الإذاعية الهامة، ذات الطابع التخصصي كبرنامجه عن الأدب الجزائري، وكذلك برنامجه المتميز عن تاريخ الجزائر، وخاصة برنامجه عن تاريخ الصحافة العربية في الجزائر ـــ موضوع هذا الكتاب ـــ الذي يعتبر الأول من نوعه في هذا الاختصاص.

ومن خلال تصفح هذا الأخير، يتبين لنا مفهوم مفدي زكرياء لوظائف ومهام الصحافة، ودورها الفاعل في المجتمع، قد لخصها في قوله المتصدر لهذه المقدمة، وهو:

"الصحافة في كل شعب ترجيع للأصداء المختلفة التي تتجاوب في شتى ميادينها، ومرآة صقيلة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تضطرب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها وانبعاثها".

وقد أدرك مناورات الاستعمار وحرصه على إنشاء صحافة استعمارية ناطقة باللغة العربية، وقد عبر عن ذلك بقوله:

"إنشاء صحافة عربية تخدم ركاب الاستعمار، وتشيد بمآثر فرنسا، وتسبح بحمدها، قصد تركيز الاستعمار وتغرير الشعب الجزائري الذي ما انفك يقاوم المحتل ويثور ضد نفوذه في البلد".

وتجدر الإشارة إلى أن بعض فصول "تاريخ الصحافة العربية في الجزائر" ـــ وهذا العنوان من وضع المؤلف ـــ قد تم نشرها في مجلة "الشباب" التي أصدرتها قيادة الثورة بتونس سنة 1959.

مفدي زكرياء الأديب:

أما شخصية مفدي الأديب، فتتجلى في أسلوبه كناثر من خلال قوته التعبيرية الفائقة، وقدرته التقنية العالية في صياغة وكتابة المقال الأدبي، أو عبر محاولاته القليلة لكتابة القصة القصيرة، ولا شك أن عبارته النثرية تظل مشبعة بالخيال الشعري، ذو العبارة الواضحة، والإيقاع المتواتر، والبلاغة النادرة التي تؤكد عبقرية فذة.

مفدي زكرياء الشاعر:

وضمن مواهب مفدي المتعددة تبرز شخصية الشاعر الملتزم الذي يجسد بكل جدارة وكفاءة وظيفة المثقف العضوي، وتفانيه في خدمة قضيته، لكن في الفترة التي بدأ نجم مفدي يسطع كان الشعر الجزائري يعيش مرحلة انحطاط وعزلة تامة عن الجماهير، نتيجة القهر الاستعماري وسياسة التجهيل ومنع اللغة العربية وآدابها، ومحاربة التواصل الثقافي العربي في الجزائر، من هنا كان دور مفدي، إلى جانب محمد العيد آل خليفة ومحمد الأمين العمودي، بارزا في النهوض بالشعر الجزائري من كبوته تلك.

ففي سنة 1927 صدرت أول مختارات شعرية جزائرية بعنوان "شعراء الجزائر في العصر الحديث" لمحمد الهادي السنوسي، التي تعتبر أول الغيث الذي سقى التربة العطشى، وكان حضور مفدي في هذه المجموعة بارزا. وإثر ذلك تبدأ الصحافة الجزائرية بنشر العديد من القصائد لشعراء جزائريين، حيث تبرز مدرستان متكاملتان، مدرسة يتزعمها محمد العيد بشعره الإصلاحي والاجتماعي، ومدرسة يتزعمها مفدي زكرياء بشعره الثوري والوطني، وتدريجيا يعود الشعر إلى حضوره الفاعل في الحياة الثقافية.

هنا تبرز موهبة مفدي الشعرية من خلال قدرته، على صياغة العبارة الشعرية بدقة متناهية، وقدرة عجيبة على تكثيف المعاني، بحيث تتحول كلماته إلى متفجرات مزمجرة، ورصاصات صائبة، في لغة بسيطة خالية من التعقيد، تنفذ إلى المتلقي بسهولة ويسر.

والجانب المهم في كل ذلك هو أنه استطاع أن يخرج الشعر من قوقعته المنعزلة، وبرجه العاجي، ليجعله من شؤون الحياة اليومية، لدى مختلف الأوساط والفئات، بغض النظر عن مستواها التعليمي، حيث صارت تصدح به الحناجر، في مختلف المناسبات، خاصة من خلال الأناشيد الرائعة المفعمة حماسا، والثرية دلالات.

يتم ذلك بأسلوب مباشر نفاذ، خال من المساحيق، يستعمل المفردات في دلالاتها ومعانيها الدقيقة، ولا يجد صعوبة في صياغة ذلك بعفوية بالغة، عبر حرصه على اختيار الكلمات البسيطة القريبة من روح الشعب، حيث نجده في بعض الأحيان يكتب المقطوعات والأغاني باللهجة الشعبية.



تاريخ الصحافة العربية:

يعود الفضل في المحافظة على نسخة مرقونة من حلقات البرنامج الإذاعي التي اعتمدنا عليها كنواة في تحقيق هذا الكتاب، للدكتور سليمان الشيخ نجل المؤلف، فقد ظلت في وضعية جيدة، مكتوبة بالآلة الكاتبة على أوراق عادية (صفحة 29 x21) وعلى شكل حلقات إذاعية، من الحلقة الأولى (وهي منشورة بالعدد 20 من مجلة "الشباب الجزائري" الصادرة في شهر فيفري 1961) إلى الحلقة 23.

وقد اطّلع على هذه الحلقات قبلنا كل من الكاتب التونسي الحبيب شيبوب، وهو صديق حميم للمؤلف، والدكتور زهير إحدادن المختص في تاريخ الصحافة الجزائرية، وكتب كل منهما كلمة تنويه بهذا العمل النادر للمؤلف.

لقد أراد الكاتب أن يقوم بمراجعة النص الإذاعي وتنقيحه ثم إعداده للنشر ككتاب لكن مشاغل الحياة، والظروف القاسية التي مر بها لم تسعفه في ذلك، وهي نفس الظروف التي حالت دون تحقيق أمنيته الأخرى، وهي تخصيص بحث آخر في الصحافة الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، والتي بلغت في ذلك الوقت أكثر من خمسين صحيفة، حسبما يذكر في الحلقة الأولى.

بيد أنه ومنذ إنشاء "مؤسسة مفدي زكرياء" التي وضعت من ضمن مهامها العاجلة نشر وطبع تراث مفدي المغمور في حلة تليق بمقام شاعر الثورة الجزائرية والمغرب العربي ، وإعادة طبع تراثه المنشور ليكون في متناول أيدي الأجيال الجديدة، قد طلبت من الكتاب والباحثين المختصين أن يقوموا بواجبهم في هذا الشأن، خاصة وأنها توفر لهم كل ما يمكن توفيره.

ضمن هذا السياق اطلّعت على هذه النسخة النادرة، ورحت أراجعها حلقة حلقة، ثم رحت أقارن التواريخ، حيث تكونت لدي فكرة أن المؤلف رغم محدودية الإمكانيات، وقلة المراجع في تونس نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، إلا أنه استطاع أن ينجز شيئا عظيما، فهو الأول من نوعه في تاريخ الصحافة بالجزائر، وهو المعبر عن حيوية الإنسان الجزائري وتحدّيه للبطش والتجهيل، وهو الذي يملأ الفراغ التي تعاني المكتبة الجزائرية..الخ

ورأيت أن إعداد هذا الكتاب للطبع — بعد مراجعة التواريخ والمعلومات — يقتضي تجنب الصيغ الإذاعية، والتوجه بالخطاب إلى المستمعين، وهو ما قمنا به أثناء عملية الجمع والتحقيق، لكن أمانة للبحث العلمي، وحفاظا على الصياغة التي دونها المؤلف، وتوفيرها لمن أراد الرجوع إلى ذلك، فقد أثبتنا كل تلك الصيغ في الهوامش التي هي من وضع المحقق وحده.

وبعد ذلك قمنا بتبويب الكتاب إلى ثمانية فصول، عملنا بكل حد على أن تكون معبرة عن روح الكتاب، من خلال وضع العناوين المناسبة، ومن خلال ترتيب لا ينجم عنه أي غموض أو التباس لدى القارئ.

وقد تناول الفصل الأول، ظهور الصحافة العربية في الجزائر، حيث تم استعراض المرحلة الأولى من مسيرة الصحافة في الجزائر مع ذكر العناوين الصحفية التالية: (المبشر- النصيح - الحق الوهراني- الأخبار - كوكب إفريقيا - المغرب- مجلة الإحياء).

وتطرق الفصل الثاني إلى صحافة المقاومة القلمية في الجزائر ومواجهة الاحتلال وقانون الأنديجينا، كما تم استعراض صحف المرحلة الثانية من مسيرة الصحافة في الجزائر التي تميزت بنوعين:

نوع مقاوم للاستعمار وهي: (الجزائر — المسلم — الإسلام — الهلال — الهلال أيضا — البريد الجزائري — ذو الفقار — الفاروق — أخبار الحرب — الإقدام — الصديق).

وصحف موالية للاستعمار وهي: (النجاح — لسان الدين).

وتناول الفصل الثالث نشأة الصحافة الإصلاحية ومعاركها الفكرية بواسطة العديد من الوسائل "كنادي الترقي"، والحركات السياسية والثقافية "كنجمة الشمال الإفريقي" و"جمعية العلماء"، ثم يستعرض الصحف التي واكبت ذلك مثل: (المنتقد — الشهاب).

وركز الفصل الرابع على مجلة "الشهاب" التي قادت معركة الانتماء، خاصة تلك المواقف المتعلقة بالتجنيس، وحملتها الناجحة على فكرة الاندماج.

وتناول الفصل الخامس صحيفة "المنهاج" ومعركة التحرير العربية وضرورة النهوض بالأمة، دون أن يغفل طرح قضية فلسطين.

أما الفصل السادس فقد تطرق إلى صحافة الأفراد ومواصلة الإصلاح، وقد ذكر بهذا الشأن الصحف المنادية بالإصلاح وهي: (صدى الصحراء — الحق).

أما الصحف المعارضة، فتأتي على رأسها (جريدة البلاغ الجزائري).

وكرس الفصل السابع لشيخ الصحافة ومقاومة القوانين الجائرة الشيخ أبي اليقظان، وصحفه: (وادي ميزاب — ميزاب... الخ)

وكان الفصل الثامن والأخير عبارة عن كرونولوجيا تستعرض الصحافة الجزائرية التي لم يتمكن المؤلف من تقديمها بشكل مفصل.

منهج مفدي زكرياء في البحث:

اتبع المؤلف في كتابه هذا المنهج التحليلي التاريخي، حيث يقوم بسرد الوقائع التاريخية بمختلف تفاصيلها، وعادة ما تكون الواقعة التاريخية هنا هي تأسيس وميلاد هذه الصحيفة أو حجز ومنع تلك من الصدور، دون أن يغفل تحليل الظروف التي ظهرت فيها، أو تفحص النتائج التي آلت إليها.

ويؤكد المؤلف اتباعه لهذا المنهج بقوله في أول حلقة:

"في أحاديثنا المتابعة نشرح عند تحليلنا لكل مرحلة من هذه المراحل أسباب اختيارنا لهذا التقسيم، والظروف التاريخية التي جعلت هذه الصحف ترجمانا صادقا عن الأوضاع السائدة في مختلف أطوار الحياة التي مرت بها."

وقد بدا حريصا على تقديم كافة المعلومات حول هذه الصحيفة أو تلك، وتحليل تلك المعطيات وفق أسلوب لا يخلو من التشدد إزاء الانهزاميين، أو دعاة التجنيس والاندماج.

ولا شك أن مسألة التوازن بين الفترات التاريخية التي أشار إليها الدكتور زهير إحدادن في تقديمه لهذا الكتاب، تجد كل مبرراتها في هذا الشأن، إذ أنه إضافة إلى ندرة المراجع في ذلك الوقت، فإن الحرص كان شديدا من أجل استعمال كل الوسائل لتحرير الوطن، وعدم الخوض في القضايا الجانبية التي تشتت الأفكار وتصرف الأنظار إلى القضايا الثانوية.

كل ذلك جعل مفدي زكرياء المناضل الوطني الغيور، والقائد السياسي المحنك، أن يعمل على أن تكون كل جهوده مركزة — حسب معتقداته ومبادئه الوطنية — على الفترات الحاسمة والتفاصيل التي تدعم منطلقات الكفاح الوطني. وهي الفترات التي تكرست فيها الجهود من أجل جمع الصفوف، وتمتين عرى الأخوة والمحبة بين الجزائريين.

الدكتور أحمد حمدي
رئيس المجلس العلمي لكلية العلوم السياسية والإعلام
جامعة الجزائر

إصدار

اخي القارئ،

بين يديك، حلقات إذاعية، تتناول تاريخ الصحافة الجزائرية بقلم شاعر ثورتها المظفرة - المرحوم مفدي زكرياء- كان ألقاها في الإذاعة التونسية خلال العامين الأخيرين للثورة.

والذي يهمك منها، هو أن - مفدي- ليس شاعرا ملهما فحسب، وإنما له جوانب متعددة كثيرة منها: الجانب الصحفي الذي لا يتمثل في الكتابة الصحفية بصحف تونس والجزائر والمغرب وإنما بالممارسة العملية، حيث أن - مفدي- منذ صباه كان يمني نفسه بإصدار صحيفة يومية كبرى، تعالج القضايا الوطنية والفكرية بأسلوب عصري محبب للقراء. ولكن لم تساعد الظروف على تحقيق حلمه الكبير، فإنها مكنته من مجهودين صحفيين لا يمكن نسيانهما بحال وهما: إصداره لجريدتي "الحياة" و"الشعب" اللتين لم تعمرا بسبب العسف الاستعماري.

ومن يطالع هاتين الصحيفتين يدرك ما لمفدي من ذوق رفيع، والمعية حصيفة، وقلم ناري ملتهب، حاد اللسان.

لذا كانت أحاديث مفدي عن الصحافة الجزائرية حديث المطلع الخبير، والناقد البصير، العارف بخباياها وأسرارها والمتتبع لمسيرتها تتبع الذي يقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسات، وللتاريخ القول الفصل.

ومهما يكن من أمر فإنك ستخرج من مطالعة هذا السفر معجبا بحيوية وجهاد صاحبه الذي وهب عمره لخدمة بلاده بكل ما أوتي من جهد، في جميع المجالات.

وعسى الأيام تساعد على جمع تراثه وطبعه، فنكون أدينا الأمانة نحو شاعر المغرب العربي مفدي زكرياء رحمة الله عليه.

الحبيب شيبوب
تونس في 1985/04/01

تقديم

تعتبر هذه المجموعة من المقالات الإذاعية أول محاولة لكتابة تاريخ الصحافة الجزائرية الإسلامية. فلا نحس أنها كتبت ما بين سنة 1959 وسنة 1961 أثناء الحرب التحريرية، وفي هذا التاريخ لم يظهر الاعتناء بالكتابة عن الصحافة الجزائرية سواء كانت مكتوبة باللغة العربية أو باللغة الفرنسية، وسواء كانت استعمارية أو إسلامية. مفدي زكرياء أول من اهتم بدراسة هذا التراث الفكري الجزائري رغم الصعوبات التي كان يعرف أنه سيجدها. فمن جهة كانت الحرب التحريرية مشتعلة وكانت تفرض التزامات سياسية وفكرية لابد من اعتبارها حتى في كتابة التاريخ، ومن جهة أخرى الوثائق والمراجع التي يعتمد عليها الباحث لم تكن متوفرة وحتى إذا توفر البعض منها فإنه يصعب أن يكون الاعتماد عليها مطلقا. ومفدي زكرياء يعلم كل هذا ولكنه يعلم كذلك أن الحديث عن الصحافة الجزائرية ليس هو إلا حديثا سياسيا يغذي الثورة الجزائرية ويقويها ويعرف بأصولها وفروعها. والصحافة الجزائرية شكل من أشكال الكفاح السياسي الذي خاضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار. وإذا أخذنا باعتبار هذه الظروف، فإن هذه السلسة من المقالات تأخذ أهمية كبيرة جدا، وقبل أن تكون وثيقة تاريخية، أو دراسة تاريخية، فهي شهادة عيان لرجل عايش الأحداث التي يحكي عنها وشارك في إيجادها وتطويرها.

إن مفدي زكرياء من مواليد السنوات الأولى من القرن العشرين واقترن شبابه بانطلاقة الصحافة الجزائرية الإسلامية قبيل وبعد الحرب العالمية الأولى وترعرع مع هذه الصحافة وفي كنفها، وعرف أفراحها ونكساتها وجال مع رجالها وخاض أغوارها، فهو بهذا أحق الناس بالحديث عنها.

ونجد الكاتب يعطي أهمية أكثر للفترات الزمانية التي تشبع منها أكثر فهو يخصص 15 حصة من بين 23 المنشورة -اليوم- للسنوات التي عرفت ميلاد جمعية العلماء الجزائريين والحركة الوطنية

الأصلية يعني ما بين سنة 1925 وسنة 1930 في حين أنه لم يخصص إلا 7 حصص لما قبل 1925 وحصة واحدة لما بعد 1930، ونحن نعرف أن الفترة التي جاءت بعد 1930 غنية بالأحداث الصحفية ومن بينها تلك التي عرفت ميلاد جريدة "الشعب" الناطقة باسم حزب الشعب الجزائري والتي كان مفدي زكرياء يتولى رئاسة تحريرها، وقد يبدو هذا كتقصير من طرف مفدي زكرياء ولكن المتمعن في هذه السلسلة يرى أن مفدي زكرياء لم تساعده الظروف لكي يخصص لهذه الفترة حصصا أخرى مثل ما فعل بالفترة التي سبقتها.

ورغم هذا النقص فإن المؤرخ يعلم أن الفترة التي جاءت بعد سنة 1930 أقرب إلينا وأن أحداثها الصحفية معروفة أكثر من الفترة التي سبقت 1930، فمن هذه الناحية تبقى أحاديث مفدي زكرياء غنية بما تكشف عنه من معلومات ووقائع وشروح وتحليلات تساعدنا من جهة أخرى على معرفة جوانب من شخصية مفدي زكرياء الشاعر والمناضل.

ولهذا يظهر أنه من الفائدة العامة وضع هذه السلسلة في متناول الجميع ونشرها بين القراء حتى ينتفع بها العام والخاص، خدمة للفكر الجزائري وإثراء للثقافة الجزائرية.

الدكتور زهير إحدادن

الفصل الأول

ظهور الصحافة العربية في الجزائر

مراحل الصحافة العربية في الجزائر:

إذا حاولنا استعراض تاريخ الصحافة العربية[1] بالقطر الجزائري وجدنا أنفسنا أمام ما يقرب عن مائة جريدة ومجلة عربية صدرت بالجزائر من عهد الاحتلال الفرنسي سنة 1830 إلى يومنا هذا[2] عدى مجموعة الصحف الأخرى الجزائرية باللغة الفرنسية وربما بلغت الخمسين ستورد لها حديثا خاصا بعد فراغنا من الحديث عن الصحافة العربية المحضة بحول الله[3]. ولا يسعنا أن نأخذ صورة صادقة عن هذه الجرائد والمواضيع التي تعالجها إلا إذا ألقينا نظرة خاطفة على الظروف التي صدرت فيها والملابسات السياسية والاجتماعية التي تكتنفها، إذ أن الصحافة في كل شعب ترجيع للأصداء المختلفة التي تتجاوب في شتى ميادينها، ومرآة صقيلة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تضطرب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها وانبعاثها.

وعلى هذا الاعتبار يمكننا تقسيم الصحافة العربية بالجزائر إلى خمسة أدوار ويمكن أن نسميها مراحل تاريخية:

- **المرحلة الأولى:** ما بين سنة 1830 عهد الاحتلال إلى سنة 1907.
- **المرحلة الثانية:** من سنة 1907 إلى سنة 1923.
- **المرحلة الثالثة:** من سنة 1923 إلى سنة 1936.

---

1 - نشرت الحلقة الأولى من "تاريخ الصحافة العربية في الجزائر" في صحيفة "الشباب الجزائري" الصادرة بتونس، السنة الثانية، العدد 20 فيفري 1961. أما العناوين الفرعية فهي من وضع المحقق.

2 - يعني بقوله اليوم ... يوم صدور الحلقة كمقال في مجلة الشباب فيفري 1961

3 - في حدود معلوماتنا لم تسعف الظروف المؤلف ليحقق هذه الأمنية.

• المرحلة الرابعة: من سنة 1936 إلى سنة 1954.

• المرحلة الخامسة: من سنة 1954 إلى سنة 1960.

وفي أحاديثنا المتتابعة نشرح عند تحليلنا لكل مرحلة من هذه المراحل أسباب اختيارنا لهذا التقسيم، والظروف التاريخية التي جعلت هذه الصحف ترجمانا صادقا عن الأوضاع السائدة في مختلف أطوار الحياة التي مرت بها، ونبدأ بالمرحلة الأولى.

أهداف السياسة الفرنسية :

ما كادت تستقر أقدام الجند الفرنسي ببعض جهات البلاد الجزائرية رغم المقاومات والحروب المستمرة حتى أصبحت سياسة حكومة فرنسا تتبلور حول ثلاث غايات:

الغاية الأولى: إقطاع الأرض للفرنسيين، والإتيان بأكبر عدد منهم إلى البلاد حتى تغدو أرضا لاتينية مسيحية بعد تجريدها من صبغتها العربية الإسلامية.

الغاية الثانية: حكم البلاد حكما مباشرا، لا دخل لأهل البلاد فيه، فكانت بلاد الجزائر تحكم، بادئ ذي بدء، بواسطة قادة جيش الاحتلال. وقد اشتهر الكثير منهم بأعمال التنكيل والمذابح الجماعية. وكان شعار المارشال "بيجو" السفاح الشهير "احتلال الجزائر بالسيف والمحراث" السيف في رقاب العرب والمحراث بيد المستعمر الفرنسي.

الغاية الثالثة: القيام بسياسة تخدير الشعب وتضليله في واجهتين:

— واجهة يقوم بها المبشرون المسيحيون في المدن والقرى بإظهار الاستعمار الفرنسي في مظهر رسول الرحمة والسلام، وقد رصدت الحكومة ميزانية ضخمة لتغذية هذه الدعاية التي تقوم على التمويه والدجل، واصطناع البر والإحسان إزاء الأهالي المعوزين، والمرضى والجائعين.

— **والواجهة الثانية:** إنشاء صحافة عربية تخدم ركاب الاستعمار، وتشيد بمآثر فرنسا، وتسبح بحمدها، قصد تركيز الاستعمار وتخدير الشعب الجزائري الذي ما انفك يقاوم المحتل ويثور ضد نفوذه في البلد بالطرق السلمية تارة وبالسلاح تارة أخرى.

وقد عجزت الحكومة الفرنسية عن إيجاد عملاء وصنائع من المسلمين الجزائريين تسند إليهم أمر تحرير هذه الصحف وإدارتها، فاعتمدت على بعض الفرنسيين الذين كانوا من طلائع الحملات الاحتلالية النفسية إلى جانب الجهاز التبشيري المسيحي.

فبينما يسجل تاريخ الصحافة في ذلك العهد أسماء: أدوار غزلان اليهودي، وفكتور باروكان، وبطرس فونطانا المسيحيين، لا يسجل إلا اسم محمود كحول من المسلمين. ومحمود كحول هذا خلقه الاستعمار خلقا مثاليا، وصنعه بوقا من أصدع أبواقه، إلى أن حطمه سنة 1936 وذهب به قربانا للمؤامرة التي دبرها مدير الشؤون الإسلامية إذ ذاك ضد الحركة الإصلاحية من وراء ذلك.

في ذكر الصحف الأولى

ونحن نذكر أسماء جرائد هذه المرحلة مذيلة ببيانات عن محرريها والأغراض التي تناولتها مع الاستدلاء ببعض النصوص المدرجة فيها كنموذج حي بين يدي القارئ الكريم.

أولا– جريدة المبشر

أصدرتها الحكومة سنة 1847[1] وجعلتها اللسان الرسمي للولاية العامة، وبقيت كذلك إلى سنة 1927 أي ما يقرب من قرن، إلى أن استبدلت بالجريدة الرسمية. وجريدة "المبشر" تطبع باللغتين العربية والفرنسية. ويشرف على تحريرها مدير مصالح الشؤون الإسلامية بالجزائر، وقد كان محمود كحول من أبرز محرريها، وهي تنشر البلاغات ونصوص القوانين والترقيات، والنصوص القضائية، ولا تقتصر على هذا بل تتناول مواضيع أخرى سياسية في محيط التخدير النفساني وتبرير السياسة الاستعمارية بالجزائر.

1 - في النص الأصلي للمؤلف: كان صدورها سنة 1836 وتوقفها سنة 1930 بيد أن المعلومات التاريخية تؤكد أن ظهور "المبشر" كان في منتصف سبتمبر 1847 كما سيذكر المؤلف فيما بعد، وهي ثالث صحيفة ناطقة بالعربية في العالم، وأول صحيفة في المغرب العربي، أنشأتها سلطات الغزو الفرنسية بهدف مخاطبة الجزائريين ومحاولة استمالتهم مستعملة في ذلك شتى الأساليب، وخاصة لغة الترهيب ولغة الترغيب، وبصفة عامة فقد كانت هذه الصحيفة أحد أصوات الحملة الاستعمارية لمسخ الشخصية الجزائرية، وعندما لم تحقق أهدافها توقفت عن الصدور سنة 1927 وقد تميزت بالركاكة اللغوية والميل للعامية [illegible] اللغة العربية.

وقد صارت تصدر باللغتين العربية والفرنسية ابتداء من يوم 5 شوال سنة 1263 هجرية الموافق لـــ 15 سبتمبر/أيلول سنة 1847 وكان محررها الأول الشيخ أحمد البدوي إلى سنة 1886 حيث خلفه السيد علي بن عمر، ثم بن سماية ثم السيد محمد بن مصطفى بن الخوجة ثم السيد شرشالي ومحمد بن أحمد وغيرهما حتى انتهت إلى الشيخ كحول سنة 1907.

وقد تكلمت عن المبشر جريدة "الحاضرة" بتونس في عددها 408 المؤرخ بيوم 7 جويلية/تموز سنة 1896[1] فقالت:

"وردت لنا من تلمسان القصيدة الآتية من إنشاد الأديب البارع الكامل السيد أحمد ابن سعيد الحسني في تهنئة الفاضل الماجد الشاعر البليغ أبي المحاسن السيد محمد بن مصطفى ابن الخوجة الجزائري الكاتب في الولاية العامة ومحرر الجريدة الرسمية (المبشر) بخطة التدريس في جامع سفير من عاصمة الجزائر. ولا يخفى أن الممدوح من فضلاء المنشئين وله الرسائل العديدة في مواضيع شتى كرسالته الموسومة "بالاكتراث في حقوق الإناث" والرسالة المفيدة التي ألفها في وجوه التحفظ من الوباء. ولذلك أحببنا المشاركة في تهنئته بإدراج القصيدة."

ثم نشرت القصيدة.

وقد تكلمت أيضا عن "المبشر" جريدة "الترقي" التونسية الصادرة في 5 نوفمبر/ تشرين 2 سنة 1905 حيث قالت عن محررها آنذاك:

"سرنا خبر تسمية رفيقنا السيد شرشالي محمد بن أحمد محرر جريدة المبشر الرسمية بالجزائر قاضيا عدلا بالمنصورة وقد كان تلميذا بمدرسة الجزائر وله منها شهادة عليا في اللغة العربية كما أن له خبرة واسعة باللغة الفرنسية فنقدم تهنئتنا لرفيقنا الكريم ونتمنى له طول السعادة والبقاء".

---

1 - يحتوي النص الأصلي على العبارة التالية (و أي عدد طرقها السنة الماضية) وقد ارتأينا حذفه نظرا للخطأ التاريخي.

ثانيا- جريدة النصيح

صدرت بعاصمة الجزائر في حدود سنة 1899 أصدرها مستعرب فرنسي من أصل يهودي اسمه (ادوار غزان) كان هذا الرجل من موظفي الولايات العامة وأحيل على المعاش، وهو إلى جانب ذلك يشتغل بالتأليف، ومن مؤلفاته قاموس فرنسي عربي صغير باللغة الدارجة. كانت هذه الجريدة صغيرة الحجم كبيرة الحروف تحتوي على أخبار ملفقة ودعاية مزيفة على بعض الحوادث المحلية والتعليق عليها بما فيه خدمة للاستعمار الفرنسي وتضليل للقراء المسلمين وتطبع في مطبعة صغيرة يملكها مؤسس الجريدة.

ولم يقع عليها أي إقبال حتى كادت تكون من النكرات التي لا يشعر القارئ بوجودها. وساعد صاحب الجريدة المذكورة في التحرير أحد تلامذة المدرسة الرسمية التي سميت فيما بعد بالمدرسة الثعالبية. وتعطلت هذه الجريدة قبل الحرب العالمية الأولى[1].

ثم أعادت الولاية العامة بعثها من جديد بعد الحرب تحت إدارة الشيخ "صوالح"[2] ومن محرريها في هذا العهد مفتي الجزائر المشهور الشيخ أبو يعلي الزواوي بعد رجوعه من الشام فارا بنفسه من عدوان الأتراك.

ثالثا- جريدة الحق الوهراني

صدرت هذه الجريدة بالفرنسية في مدينة وهران سنة 1902[3] لصاحبها مسيو "طاقي" المستشرق الذي كان قد قضى زمنا طويلا بمصر حتى أنه سمى ابنه السعدي. وكانت معتدلة اللهجة ذات مشرب نزيه.

---

1 - صدرت صحيفة "النصيح" يوم 1899/10/11 بالجزائر العاصمة وتوقفت عن الصدور يوم 1902/5/21

2 - يؤكد الدكتور زهير إحدادن أن صحيفة "النصيح" الثانية أسسها الشيخ صوالح سنة 1921 وبالتالي فهي ليست وريثة الصحيفة الأولى.

3 - صدر أول عدد من صحيفة "الحق" الوهرانية سنة 1901 وتوقفت سنة 1914 وكانت إلى غاية سنة 1912 تصدر بالفرنسية وبدأ ملحقها العربي بتاريخ 1912/5/01

ومن الأبحاث التي طرقتها قضية جبر الجزائريين على التجنيد بالجيش الفرنسي حيث قاومت هذه الفكرة مقاومة عنيفة.

وفي حدود عام 1910 ظهر لمؤسسها أن يضيف إليها ملحقا عربيا، فطلب من الشيخ عمر راسم أن يحرر ذلك الملحق ويكتبه بخطه وبصوره، ليطبع على الحجر، فأجاب لرغبته فكان هذا يحرر بالجزائر ويوجه ليطبع بوهران. ومن مؤيدي هذه الجريدة وأنصارها الشيخ "ابن رحال" وجماعة من مسلمي ندرومة وتلمسان[1].

رابعا– جريدة الأخبار

صدرت[2] هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 20 نوفمبر سنة 1902 وهي ملحق لجريدة Les Nouvelles الفرنسية[3] التي صدر عددها الأول بالجزائر سنة 1839 وسبب إصدار هذا الملحق هو أن أحد أصحاب هذه الجريدة، وهو المسمى "فكتور باروكان" حدث بينه وبين شركائه خلاف إثر اندلاع ثورة يعقوب قرب مدينة مليانة، وحدوث ما يعرف في تاريخ المقاومة الجزائرية بحادثة "مارغريت" وهذا الخلاف أفضى إلى استقالته من هيئة تحريرها، لأنه كان لا يرى رأي أصحابها في أسلوب سياسة الأهالي، فأصدر "الأخبار الأسبوعية" وجعل صفحتها الثامنة بالعربية، وجلب لتحرير هذه الصفحة طالبا يسمى محمد الزرد، ومن ثم تولى بعدئذ القضاء بالصحراء حيث توفي فيها. وكان من محرري هذه الجريدة عمر راسم حيث حرر فيها مقالين اثنين.

---

1 – نهاية الحلقة الأولى، وكانت بالعبارة الإعلامية التالية: وهنا نختم حلقتنا الأولى من استعراض تاريخ الصحافة العربية بالجزائر من مرحلتها الأولى، وموعدنا بحضرة القارئ الكريم في الحلقة الثانية من هذه السلسلة حيث نواصل الحديث عن بقية الصحف العربية التي أنشئت بالجزائر في المرحلة الأولى المتراوحة بين عام الاحتلال 1830 وعام 1907.

2 – بداية الحلقة الثانية، وكانت كالتالي: (نواصل حديثنا عن الصحافة العربية بالجزائر في مرحلتها الأولى المتراوحة بين عام 1830 وعام 1907 وقد كنا قدمنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة عن صحيفة "المبشر" وصحيفة "النصيح" وجريدة "المغرب الوهراني" واليوم نحدث القارئ الكريم عن [illegible] الصحف التالية الأبيات).

3 – جريدة Les Nouvelles [illegible] 1830/7/12 ثم توقفت قليلا ثم عادت تظهر من جديد في سنة 1902 في اتجاه سياسي جديد، [illegible] "الأخبار" التي يتكلم عنها المؤلف، وقد كانت تصدر بهذا الاسم منذ يوم [illegible] سنة 1902 توقفت عن الصدور سنة [illegible] وعبارات تصدر باللغتين ابتداء من [illegible]

خامسا– جريدة كوكب إفريقيا

صدر العدد الأول من هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 17 ماي/ أيار 1907[1] وهي جريدة شبه حكومية، طبعت بمطبعة بطرس فونطانا الحجرية التي تطبع "المبشر" و"المغرب" وسائر المطبوعات الحكومية، وقد جلب إلى تحريرها من قسنطينة أحد الموظفين الجزائريين، وقد نشرت جريدة الزهرة التونسية كلمات عن هذه الجريدة، في عددها 101 بتاريخ 06 جوان 1907:

"ظهرت في العاصمة الجزائرية جريدة أسبوعية باسم (كوكب إفريقيا) يحررها نابغ أديب، وهو الفاضل اللوذعي السيد محمود كحول وقد وصلنا منها العددان الثاني والثالث فوجدناها، والحق يقال طافحة بالإفادات المهمة من سياسية وعلمية وصحية وتجارية وزراعية، تشهد لمحررها البارع بطول البال، وسعة الاطلاع، فرحب بها ونتمنى لها الرواج والانتشار".

ونعرض على القارئ الكريم نموذجين من فصولها:

– نشرت مقالا في عدد يوم الجمعة 4 صفر 1833 و3 جانفي كانون 2 سنة 1914 تحت عنوان (رئيس الوزراء أمام لجنة الأمور الخارجية) جاء فيه:

"قام جناب المسيو دوميرق رئيس الوزراء أمام لجنة الأمور الخارجية، ودارت المفاوضة في سياسة فرنسا بالشرق، فأفصح جناب عميد الوزراء عن ملك فرنسا بالشرق وخصوصا في تركيا فذكر المساعي الفرنسوية المعروفة في التهذيب والإسعافات وانتشار اللغة الفرنسية وتعليمها وزرع مدنيتها التي أقبلت عليها النفوس واكترعت من حياضها. وأعرب عن كفالة ترقي المشرق بالفرنسية وتأسيساتها المداركية في هذا السبيل، ثم تخلص إلى التوافق الذي حصل بين فرنسا وتركيا والصدر الأعظم في المشاريع الخيرية الفرنسية النبيلة والتعليمية، وفيما يتعلق بالمدارس وتونس أوضح جنابه ملازمة السعي في تنمية المقاصد الفرنسية بالشرق

---

1 – توقفت صحيفة "كوكب إفريقيا" عن الصدور يوم 1914/7/31.

وتوسيع وسائلها ونشر النفوذ الفرنساوي وبث لغته في الشعوب المشرقية إليه، ثم إن عقد الاتفاق تضمن أمورا هامة تتعلق بمعاملة وأساليب محاكمة الرعايا الفرنسيين من سكان المغرب والبلاد الجزائرية والتونسية، وقد تطبق حسب الإدارة الفرنسية تسوية هذه المسائل الموقوفة منذ حين".

– وإلى القارئ الكريم نموذجا عن الأخبار المنشورة في هذه الجريدة وفي نفس العدد: (المغرب الأقصى: خضوع الأعراش)

"خرج الجنرال هني بقوة من الصبائحية فجال جولة سياسية وحربية، وجاءه رسل الأعراش المرابطين "زابان آل آبنو" طلبوا الأمان بشروط. وقد أشعر كومندان "قصبة تادلة " بأن أعراشا من برابرة الجبال اغتصبوا قطعانا من المواشي للأعراش الخاضعة، فوجه لهم بجيش من أشياع "آيت ربدا" وعضده بفصيلتين من الصبائحية فانهزم الثوار وفروا إلى الجبال".

سادسا– جريدة المغرب

صدر العدد الأول من هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 10 أفريل سنة 1903[1] ومؤسسها هو "بطرس فونطانا" أحدثها ليشغل بها المطبعة الحجرية التي أضافها إلى مطبعته الفرنسية وطبع بها بعض الكتب كرحلة الورتيلاني وغيرها من الرحلات، وهي أسبوعية الملحق لجريدة المبشر الرسمية لأنها تطبع على نفقة الولاية العامة ويحررها السيد مصطفى الرشاني الموظف بالولاية العامة الجزائرية، ويقول الشيخ عمر راسم في رسالته المؤرخة في 13 رجب سنة 1382 التي بعث بها إلى المرحوم البشير الفورتي بتونس:

"إن سبب نشر هاته الجريدة هو أن الوالي العام "جونار" الذي كان أحد أعضاء الوفد الفرنسي لدى شركة قناة السويس كان كثيرا ما يتردد على مصر ولاهتمامه بشؤون الجزائر تحدث مع الشيخ علي يوسف فيما ينشره بجريدة (المؤيد)

1 - توقفت صحيفة "المغرب" عن الصدور يوم [illegible]

من الانتقادات نحو معاملة فرنسا لرعاياها الجزائريين، تلك الانتقادات الواردة عليها من بعض المراسلين الجزائريين، ووجد منه تأييدا لما نشره لمكاتبيه، وقال إن سبب ذلك عدم وجود جريدة بالجزائر. فاغتنم جونار تلك الفرصة معتقدا أن سبب ذلك هو عدم وجود جريدة عربية بالجزائر من شأنه أن يرضي الجزائريين فينشرون فيها ما يهمهم وبذلك يصرفون عن الاتجاه إلى الخارج ويستغنون عن النشر في الصحافة الشرقية التي كانت لا تردد على الجزائر إلا عن طريق التهريب والخفاء لأن الحكومة كانت تحجز دخولها، كل ذلك دعاه لإحداث جريدة (المغرب) التي كانت تنشر الأخبار الرسمية أو ما تنقله من كتب الأدب والوعظ ومشايخ المدرسة وفي مقدمتهم الشيخ عبد القادر المجاوي رحمه الله".

وقد تعرضت جريدة "الحاضرة" بتونس لذكر جريدة "المغرب" الجزائرية في عددها رقم 733 الصادر في 12 ماي 1903 فقالت تحت عنوان "صحافة الجزائر":

"اتصلنا بالعددين الأول والثاني من صحيفة المغرب التي كنا أخبرنا بظهورها في عالم المطبوعات بعاصمة الجزائر، وهي صحيفة سياسية أدبية علمية اقتصادية تجارية تصدر يوم الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع بمطبعة مسيو فونطانا صاحب امتيازها، الاشتراك منها في تونس 15 فرنكا في السنة و08 فرنكات في الستة أشهر و05 فرنكات في الثلاثة أشهر وقد تصفحناها فألفيناها جريدة بهية صحيحة العبارة طافحة بالإفادات التجارية والأخبار السياسية، فنرحب بقدومها ونرجو لها الإقبال".

سابعا– مجلة الإحياء

صدرت هذه المجلة بعاصمة الجزائر يوم 14 فيفري سنة 1907[1] وهي مجلة أدبية اجتماعية، تعد أول صحيفة فصيحة عربية صدرت في الجزائر في تاريخ إنشاء الصحافة العربية بها إلى ذلك العهد.

1 - توقفت صحيفة "الإحياء" عن الصدور يوم 1907/5/14.

ومؤسسة المجلة فتاة فرنسية أسهم والدها: "دوربو" الذي كان أستاذا بالمدرسة الفرنسية الثانوية بمدينة البليدة، فهو رجل منصف نزيه تعلمت ابنته التي سمت نفسها فيما بعد "جمانة رياض" اللغة العربية كتابة ونطقا، حتى أصبحت مشغوفة بها إلى حد بعيد، وساعدها على تجويد هذه المجلة بعض تلاميذ المدرسة، و لم تصدر منها إلا بعض الأعداد، حيث أن مؤسستها "جمانة رياض" ماتت قبل أن تبلغ العشرين ربيعا من عمرها، وقد ترجم لها المؤلف "فيليب دي طرازي في كتابه " تاريخ الصحافة العربية" في الجزء الأول صفحة 13 وفي الصفحة 25 من الجزء الرابع قال:

"وهذه السيدة الفرنسية الأصل هي منشئة باكورة المجلات العربية في عاصمة الجزائر، وتعرف في كتاباتها ومؤلفاتها باسم (جمانة رياض أو فاطمة الزهراء) وقد أحرزت الجائزة الأولى في آداب اللغة العربية عام 1911 بين جميع طلبة مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، وكانت وفاتها عام 1914 في العاصمة المذكورة فكان أسى شديدا لدى عارفي فضلها من الأدباء والمستشرقين ولدينا من أثرها رحمها الله تعالى، رسالة مكتوبة، في الجزائر ما بين عام 1888 وبين عام 1907 حيث تبدأ المرحلة الثانية، وهي مرحلة الامتعاض والاستياء من التصرفات الاستعمارية الجائرة في بلاد الجزائر، وبداية التململ والاحتجاج بالقلم، وقد تبين من استعراضها لوصف المرحلة الأولى حيث كانت الحكومة الفرنسية ترمي من وراء إنشاء هذه الصحف إلى تركيز الفكرة الاستعمارية بالبلاد، وحمل الشعب على استساغتها، والاقتناع بعدالة أغراضها، وقداسة رسالتها الدينية، هذا إذا ما استثنينا طائفة من هذه الصحف كجريدة "الحق" الوهراني ومجلة "الإحياء" اللتين كانتا تتمتعان نسبيا بجانب من النزاهة وصدق اللهجة والمعارضة المحتشمة[1].

1 - جاء في [illegible] تاريخ الصحافة الجزائرية [illegible] في حلقات الآتية حيث نواصل استعراض بقية مراحل

الفصل الثاني

صحافة المقاومة القلمية في الجزائر

في مواجهة الاحتلال :

كما أسلفنا الحديث[1] عن المرحلة الأولى من تاريخ الصحافة العربية بالقطر الجزائري أعني المرحلة المتراوحة بين عهد الاحتلال سنة 1830 وبين عهد التحرير وتركيز أقدام الاستعمار بوسائل الإغراء والترغيب تارة ووسائل القمع والترهيب تارة أخرى واليوم نحدث القارئ الكريم عن تاريخ الصحافة الجزائرية في مرحلتها الثانية مرحلة المقاومة القلمية والكفاح السياسي بعد المكافحة بالغضب الصاعق طيلة سنوات.

فالجزائر المسلمة العربية الضنينة بتراثها وتراثها على الأجنبي الغاصب، وبدينها على محاولات التنصير والتمسيح التي يقوم بها الآباء البيض في أقصى البلاد، لم يفت من عضدها، أو يخمد من جذوة حماسها شيئا، رغم تلك الوسائل الشيطانية العجيبة إلا أنها ظلت صامدة كالقدر، تتحدى الأخطار، وتسخر من الأحداث العادية، وتصرخ في وجه المستعمر الغاصب بسلاحها، وقلمها، ولسانها. فالمقاومة الجزائرية العتيدة قد استقرت في الميدان، منذ سقوط السيف من يده، وهي مثخنة بالجراح، وليس لأحد أن ينسى تلك المقاومة الصارمة التي وقعت بجنوب البلاد الجزائرية، خاصة بواحة الزعاطشة سنة 1853 ولا واقعة (الأغواط) المشهورة، ولا مقاومة (أولاد سيدي الشيخ) التي قام بها سنة 1864 بطل من أبطال الجنوب الغربي

1 - في النص المذاع نجد عبارة (كما أسلفنا الحديث في الحلقتين السابقتين عن المرحلة الأولى)

للبلاد الجزائرية الباشاغا سليمان بن حمزة بن بوبكر، ولا ثورة جبال الجرجرة الأبية معقل الهمة والشرف سنة 1871 تحت قيادة الباشاغا السيد الحاج محمد المقراني بإعانة الشيخ محمد بن الحداد، ولا انتفاضة السيد محمد البدوي في نفس الآونة وبعاصمة الجزائر نفسها، حيث وقف في ساحة الحكومة، وأعلن استقلال البلاد التي أذاقوها المرار العديدة نيرانا حامية على الفرنسيين الغاصبين وأهمها ثورة 1953 كل هذه الثورات المتتالية تثبت أن الجزائريين لم يسلموا أعناقهم طوعا للجلادين بل كانت مقاومتهم للاستعمار مستمرة وكانت الحرب بينهم وبين فرنسا سجالا وكانت الوقائع متوالية فما انتصر الفرنسيون مرة إلا أعاد الجزائريون الأحرار الثورة مرة أخرى إلى أن كانت الثورة المقدسة الكبرى سنة 1954.

أشكال المقاومة السياسية:

أما المقاومة السياسية فقد اتخذت أشكالا مختلفة منذ توطد قدم الاحتلال بالبلاد إلى قيام الثورة الكبرى، وقبل أن نتكلم عن دور الصحافة العربية في هذه المقاومة، يمكننا أن نقسم مرحلة المقاومة الأولى "اللاحزبية" إلى ثلاثة أدوار:

— دور سلبي

— ثم دور إيجابي أول من 1905 إلى 1918.

— ودور إيجابي ثان من 1918 إلى 1935.

الدور السلبي:

كانت المظاهرات الأولى التي قام بها الجزائريون بعد إخفاق الثورات المتعاقبة، هي الهجرة الجزائرية للبلاد الإسلامية الحرة، فما كادت جموع الجزائريين تعتقد أنه حكم عليها بالذلة والهوان تحت النير الفرنسي القطيع، حتى أخذت تغادر البلاد زرافات ووحدانا فقصد بعضها البلاد التونسية الشقيقة، وسار البعض الآخر إلى

الإسكندرية وبلاد الشام وفلسطين حيث وجدوا إخوة في الله والعروبة أشعروهم أنهم غير غرباء في بلاد إسلامية عربية تقاسمهم الأفراح والأتراح، ولم يزل أبناء هؤلاء المهاجرين يعمرون تلك الجهات كمواطنين صالحين. ولما أعلنت فرنسا سنة 1912 قانون التجنيد الإجباري للمسلمين ازدادت هجرة الجزائريين إلى البلاد الإسلامية الأخرى كي لا يقاتلوا تحت الراية التي حاربوها عشرات السنين.

الدور الأول الإيجابي:

— حمدان خوجة

قبل أن نتحدث عن المقاومة الصحافية تجدر بنا "صيانة لرسالة التاريخ" أن نتحدث عن السيد حمدان عثمان خوجة"[1]، فلقد كان أول جزائري رفع عقيرته بالاحتجاج الصارخ منذ فجر الاحتلال البغيض، إذ أوفده أهل مدينة الجزائر سنة 1832 على رأس وفد يطالب حكومة فرنسا:

— بالإقلاع عن مظالمها وشرورها

— وإرجاع ممتلكات المسلمين إلى أيديهم

— والاعتراف لهم بحق الحياة.

وقد ترك لنا هذا الشهم الكريم أنفس وثيقة، من أثمن وثائق التاريخ الحديث، إذ ألف كتابا ضخما سماه "مرآة الأحوال" نقله إلى الفرنسية أحد الكتاب اللبنانيين[2] وطبع في مجلد ضخم سنة 1833[3] بمدينة باريس وما امتاز به هذا السفر الجليل:

---

1 - حمدان بن عثمان خوجة، كاتب وزعيم سياسي، ولد بالجزائر العاصمة وبها تعلم وبرع في علوم الفقه والمنطق والفلسفة والتاريخ والطب وأتقن اللغات التركية والفرنسية والإنجليزية وله اطلاع واسع على الأفكار الأوروبية والحريات والقوميات. اشتغل في عدة مناصب قريبة من الداي حسين، زار العديد من البلدان الأوروبية منها مدينة لندن. وفي سنة 1820 زار فرنسا ودامت زيارته الأوروبية هذه 17 سنة ربط خلالها علاقات بكبار أدباء ومفكري عصر النهضة الأوروبية وعند احتلال الجزائر سنة 1830 أسس لجنة المغاربة التي تعتبر أول حزب سياسي جزائري لمقاومة الاستعمار وطالب بالجلاء وراسل ملك فرنسا. نفي إلى فرنسا فأقام بها ما بين 1833 - 1836 ثم إلى القسطنطينية حيث أشرف على تحرير عدة صحف وهو بذلك أول صحفي جزائري ورأس تحرير جريدة (تقويم وقائع) من مؤلفاته كتاب (المرآة) سنة 1833 وهو موجه للرأي العام الفرنسي وكتاب (إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء) وكتاب (حكمة العارف).

2 - من قام بمساعدة حمدان خوجة في ترجمة "المرآة" إلى الفرنسية هو حسونة الدغيس الطرابلسي الليبي، وقد يكون المؤلف قد اعتقد أن المترجم ينتمي إلى طرابلس الشام.

3 - صدر كتاب المرآة سنة 1833 بباريس، وليس 1883 كما جاء في المخطوط.

أ- إثبات أن عدد سكان القطر الجزائري كان عند الاحتلال عشرة ملايين من النفوس (والسيد حمدان هذا كان المدير بمصلحة الضرائب في الحكومة الوطنية الجزائرية قبيل الاحتلال).

ب- سجل أعمال اللصوصية والنهب التي قام بها الجند الفرنسي، وصور أبشع صورة لتلك المنكرات التي ارتكبتها فرنسا دون وازع من ضمير، وأثبت بوثيقة فرنسية على يد محضر فرنسي أن الفرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الإسلامية، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا.

ج- بيان عن الأملاك والأرزاق المصادرة التي اختلسها الطغاة أثناء الاحتلال، وحكاية ما رأى المؤلف منها رأي العين.

وقد رجع السيد حمدان من فرنسا خائبا بعد المجهود الذي بذله ولم يرجع الاستعمار عن عناده بل أمعن في طغيانه وبقي كتاب "مرآة الأحوال" مرآة للأجيال.

وجاء دور الصحافة في المقاومة نتيجة لأحداث سياسية كبيرة مختلفة بالقطر الجزائري منها أن فرنسا أحدثت سنة 1901 مجلس النيابات المحلية، إذ اعترفت فرنسا للجزائر بمبدأ الاستقلال المالي صوريا، إلا أن تلك المجالس كانت تتركب من ثلاثين فرنسيا إزاء ثلث من الجزائريين، بين تدخل الحكومة في انتخابهم تدخلا سافرا، لكن النهضة التركية أو الانقلاب العثماني الذي تسميه أوروبا إذاك، وفي طليعتها فرنسا، "حركة شبان الأتراك" Mouvement Des jeunes Turques هذا الانقلاب العثماني قد أحدث تغييرا في حالة البلاد المعنوية. وكان العدوان الطلياني على ولايتي طرابلس وبرقة ضغطا على الإيالة فأخذ المسلمين يتململون ويتذمرون، ونشأت في البلاد صحافة ضعيفة أخذت تعبر عن استياء الرأي العام الإسلامي في حالته الوضيعة.

ـ قانون الأندجينا

أصدرت الحكومة الفرنسية آنذاك قانونا استثنائيا خاصا يسمى بقانون "الأندجينا" يطبق على المسلمين فقط فكانت أهم بنوده:

1. يعاقب بالسجن كل من لم يدفع الضريبة حالا؛
2. يسجن كل من سكن في جهة نائية ويحطم بيته؛
3. ومن اجتمع مع إخوانه فكانوا فوق الخمسة عوقبوا بتهمة عقد اجتماع دون ترخيص؛
4. لا يمكن للجزائري أن ينتقل من بلدة إلى بلدة أخرى وإن كانت مجاورة له إلا بإذن خاص.

أما القبائل الجزائرية كلها في السهول وفي الجبال، فقد كانت خاضعة لحكم (الضمان الجماعي)[1] بحيث إذا احترقت غابة أو وقعت جناية فسائر أهل القبيلة شركاء في المسؤولية.

وهذا الجو السياسي الجديد مع ما يكتنفه من أحداث في الشرق وما يتأجج في صدر كل جزائري من ثورة على العسف والعدوان، كل ذلك كان عاملا يبعث صحافة عربية بالبلاد، مثل "المسلم" و"الإسلام" و"الهلال" و"الإقدام" و"الفاروق" و"الصديق" و"البريد" الجزائرية و"ذو الفقار" وكما كان باعثا رجالا رجال مكافحين أمثال "أحمد بن إسماعيل بوضربة" و"الحاج عمار" و"الصادق دندن" و"عمر قدور" والأمير "خالد" و"ابن الرحال" و"البهلول" و"التاجر محمد بن بكير ومحمد عزالدين الغلال وأبي منصور الصنهاجي وغيرهم.

ولم تقف الحكومة مكتوفة اليدين إزاء هذه الانتفاضة الجديدة على صنعها فكانت تساند بعض الجرائد كالنجاح ولسان الدين وتستثني البعض الآخر كأخبار

1 - لعله يريد أن يقول "المسؤولية الجماعية" La Responsabilité collective

الحرب للقيام بسياسة التضليل التقليدية التي كادت أن تكون من اختصاص الاستعمار في كل بلد يدنسه بأقدامه القذرة غير عالمة أن تلك السياسة تعود دائما بالنتائج المعكوسة كالمريب الذي يقول خذوني.

في ذكر صحف المرحلة الثانية:

وعلى ضوء هذا الإطار التاريخي الذي قدمناه بين يدي القارئ الكريم نقدم بيانا عن صحف هذه المرحلة حسب الترتيب الآتي:

أولا– مجلة الجزائر:

أنشأت هذه المجلة بعاصمة الجزائر وصدر العدد الأول عنها يوم 27 أكتوبر تشرين أول 1908 أنشأها الفنان المرحوم الشيخ عمر راسم ولم يتمكن إلا من إصدار عددين منها فقط وذلك لانعدام المطابع العربية بالجزائر. حيث أن كل الحروف التي تمكن بها من تصفيف مجلته لم تكف إلا لطبع أربع صفحات ولذلك كانت صغيرة الحجم.

وقد صادفت هذه المجلة إقبالا عظيما لأنها كانت تعالج مواضيع حية كالاحتجاج ضد التجنيد الإجباري وفداحة الضرائب– وكان مفتي الجزائر آنذاك الشيخ محمد السعيد بن زكري، قد طلب من صاحبها أن يحرر منشورا كرسالة يحضها بخط يده تنشر في الشأن للدعاية لها وترغيب الأمة في قراءتها. وقد صادرتها الحكومة الفرنسية بعد أشهر من ولادتها لصدق لهجتها وإقبال الشعب على اقتنائها.

ثانيا– جريدة المسلم:

صدرت هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 14 أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1909 وكان مديرها السيد "دليس" ولم تعمر طويلا حيث كانت الإدارة تضايقها إلى أن اختنقت أنفاسها بعد ستة أشهر من صدورها.

ثالثا– جريدة الإسلام:

صدرت بعاصمة الجزائر يوم 18 ديسمبر (كانون الأول) سنة 1909 وكان يحررها الوطني السيد الصادق دندن وكان يشدد فيها الحملات ضد الإدارة ويحتج بلهجة صادقة ضد السياسة العنصرية التي كانت تسلكها فرنسا في الجزائر قصد بث العداوة والبغضاء بين الطوائف الإسلامية الناجية في البلاد. وقد صادرتها الحكومة بعد سنة من صدورها كشأنها مع سائر الصحف النزيهة ذات النزعة القومية الصادقة[1].

رابعا– جريدة الهلال:

صدرت هذه الجريدة ببلدة سكيكدة من مراسي عمالة قسنطينة أنشأها المستشرق اندريه "اندراوس لانقو" يوم 30 أفريل نيسان سنة 1910[2] وكانت تهاجم بشدة سياسة الحكومة التعسفية إزاء الأهالي المسلمين وتطالب في لهجة عنيفة بإلغاء قوانين "لانديجانا" الاستثنائية الجائرة المسلطة على السكان المسلمين خاصة وقد ضايقتها الحكومة حتى أصدرت أمرا بتعطيلها في أكتوبر (تشرين أول) سنة 1911.

خامسا– جريدة الهلال أيضا:

بعد احتجاب جريدة الهلال التي كان يصدرها السيد اندراوس انقو إثر قرار تعطيلها، أنشأ السيدان الصادق دندن وعز الدين القلال بعاصمة الجزائر جريدة تحمل باسم "الهلال" وذلك يوم 2 أوت سنة 1913 وسلكت الجريدة مسلك سميتها المودة فكان لها نفس المصير الذي عرفته من لدن الإدارة الاستعمارية بالجزائر.

1 - صدرت جريدة "الإسلام" [illegible] لم تلتفت إلى الجزائر ويذكر الدكتور [illegible] أنها استمرت في الصدور حتى سنة 1914 وليس بعد سنة من صدورها، كانت تحرر باللغة الفرنسية [illegible]

2 - صدرت صحيفة "الهلال" الأولى في الجزائر العاصمة بتاريخ 1906/10/22 [illegible] 1907/3/11 [illegible]

سادسا– جريدة البريد الجزائري :

وهي جريدة أسبوعية إخبارية أصدرها بعاصمة الجزائر السيد محمد عزالدين القلال يوم 28 أوت/ آب سنة 1913[1] وقد ترجم لصاحبها المؤلف السيد فيليب دي طرازي في الصفحة 260 من كتابه" تاريخ الصحافة العربية" فقال:

"يعد هذا الأديب من أكتب الصحفيين في المغرب الأوسط وأرقاهم، وقد تلطف فنظم تقريضا شعريا لكتابنا هذا فقبلناه بالثناء الوافر وننشره بمزيد الافتخار".

وقد تكلمت عن السيد عز الدين القلال "إظهار الحق" التونسية في عددها رقم 91 المؤرخ بيوم 2 محرم 1324 الموافق ليوم 25 فيفري شباط سنة 1906 ويتبين من كلامها أن السيد محمد عز الدين القلال كان في ذلك العهد مديرا لجريدة تسمى "الاتحاد" غير أننا لم نعثر على ذكر هذه الجريدة في أي مصدر من المصادر التي بين أيدينا. قالت الجريدة:

"حل في هذا الأسبوع بالديار التونسية الفاضل الوجيه السيد عزالدين القلال صاحب امتياز جريدة الاتحاد وقد تراكن مع جناب المسيو فيكتور باروكان مدير جريدة "الأخبار" الجزائرية وصار محررها الأول وقد صاحبه في هذه زيارة المدير المذكور حيث يقيمان بين ظهرانينا أسبوعا ويتوجهان معا إلى الديار الباريسية لقضاء مهمات سياسية فنرحب بقدومهما ونسأل لهما السلامة في الظعن والإقامة".

سابعا– جريدة ذو الفقار :

صدرت هذه الجريدة بعاصمة الجزائر في أكتوبر /تشرين الأول سنة 1913[2] اشترك في إنشائها السيد أبو منصور الصنهاجي وعمر راسم، والأول هو صاحب امتيازها، أما الثاني فكان يحررها ويكتبها ويصورها بيده، وهي جريدة انتقادية

---

1 - توقفت جريدة "البريد الجزائري" عن الصدور يوم 1913/8/19

2 - صدر أول عدد من جريدة "ذو الفقار" يوم 2 أكتوبر 1913 وتوقفت عن الصدور يوم 1914/6/28 والجدير بالذكر أن مؤسسها هو عمر راسم أما أبو منصور الصنهاجي فهو أحد الألقاب المستعارة لراسم نفسه

متطرفة كانت تحمل الحملات الشعواء على الصهيونية والخونة المنافقين وكان محررها يحاول أن يقتدي بالإمام عبده في إصلاح المجتمع الجزائري. ولم يصدر من هذه الجريدة غير أربعة أعداد، وتوقفت في الصدور، لأن الإدارة الاستعمارية هددت صاحبها وأرادت أن تفرض عليه ما لا يوافق عليه وذلك إثر ظهور بوادر الحرب العالمية الأولى.

ثامنا– جريدة الفاروق :

صدر العدد الأول من هذه الجريدة بعاصمة الجزائر يوم 28 فيفري (شباط) سنة 1913[1] وهي جريدة عصامية علمية إخبارية اجتماعية أدبية مصورة تصدر كل يوم جمعة، اشترك في إنشائها السيدان أبو حفص عمر بن قدور وعمر راسم؛ فالأول كان يحرر قسم الأخبار منها والثاني كان يحرر افتتاحيتها بدون إمضاء وهو الذي اختار لها هذا الاسم حيث أن السيد عمر بن قدور كان يشتغل مصففا بمطبعة "كريزاشو" الإيطالي، رغب من زميله عمر راسم أن ينشئ جريدة بمساعدته فأجابه لذلك. إلا أن المعاشرة لم تطل بين الزميلين فانسحب عمر راسم تاركا زميله عمر بن قدور وحده على رأس الجريدة إلى أن اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، ففر إلى مدينة الأغواط بجنوب الجزائر ومكث هناك كامل مدة الحرب، ولما وضعت الحرب أوزارها سمح له بالعودة إلى العاصمة الجزائرية، حيث استأنف نشاطه الصحفي واصدر "الفاروق" من جديد في شكل مجلة. وكانت الجريدة والمجلة تطبعان بالمطبعة الإيطالية المذكورة وهي مطبعة حجرية.

تاسعا– جريدة أخبار الحرب :

أصدرت الحكومة الفرنسية هذه الجريدة بعاصمة الجزائر في الأيام الأولى من قيام الحرب العالمية الأولى سنة 1914 وكان يحررها بالولاية العامة بعض عملاء مصالح الشؤون الأهلية وفي طليعتهم محمود كحول.

---

1 - توقفت جريدة الفاروق عن الصدور نهائيا يوم 1921/3/26



ونطبع بالمطبعة الحجرية وتنشر فيها، عدا البلاغات الحربية، مقالات طويلة في الدعاية لفرنسا وحلفائها واستدراج المسلمين للتطوع في الحرب، وقد كان عددها الأول خاصا لنشر الفتاوى الدينية والتوصيات التي كانت توحي بها الإدارة الفرنسية إلى الموظفين الرسميين في المساجد الزوايا وإلى أولياء الأمر الخياليين في كل من تونس والمغرب الأقصى وقد صدرت ذلك في مثال عريض بعنوان:

"خالص صدق مسلمي إفريقيا لأم أوطانهم الأمة الفرنسية" وبعد أن حمل الكاتب على تركيا وأنور باشا (جان تورك) لدخول تركيا إلى جانب ألمانيا في الحرب قال:

"أما المسلمون القاطنون في المستعمرات الفرنسية بأفريقيا، بين رعايا الحماية، فقد انتهزوا هذه الحادثة فرصة لإفصاح عن صدقهم التام ومحبتهم الأكيدة لفرنسا. فإن المفاتي القضاة وغيرهم من المشائخ والعلماء الذين لهم الباع الطويل في الشريعة المحمدية والدين الحنيف الشريف.. والأعضاء المسلمين في المجالس التي ينتخبها الأهالي والرؤساء المسلمين والأعيان وحتى الأصاغر من الفلاحين فقد قاموا للإعراب عما في ضمائرهم لدولتهم الفرنسية الفخيمة من خالص الصدق وكامل التعلق وصميم المودة التي لا يبليها الزمان ولا يغتبها تعاقب العدوان وقد اصطفينا من بين الألوف المؤلفة من تصريحاتهم للمقالات الصادرة من مشائخ الطرق الصوفية نشرناها هنا بعد خطاب جلالة سلطان المغرب الأقصى وحضرة باي تونس، ومن تصفحها يجدها مفيدة بليغة مطابقة للشرع وللطبع، يتحقق من يقرؤها من أمر واضح لا يختلف فيه اثنان ولا يتناطح فيه عنزان ولا تجد المعارض له سبيلا وهو أن رجال دولة تركيا جنوا جنونا عظيما بإشراك المملكة العثمانية مع ألمانيا في الحرب وهي جناية فظيعة مرقوا بها من ربقة الإسلام، وانفصلوا من الجماعة المحمدية".

وبعد هذا المقال الافتتاحي الطويل يأتي في هذا العدد الخاص نشرة الفتاوى والتوصيات على الترتيب الآتي:

1. من داودي أحمد بن محمد شيخ زاوية سيدي منصور ابن جباه من قبائل زواوة؛
2. خطاب جلالة مولاي يوسف؛
3. خطاب الحضرة العلية محمد الناصر؛
4. من محمد الكبير بن محمد البشير بن أحمد التجاني إلى أحباب طريقة جده في جميع البلدان؛
5. من محمد العروسي شيخ زاوية "قمار" التيجانية؛
6. من محمد الصغير بن الشيخ المختار شيخ الطريقة الرحمانية بأولاد جلال؛
7. من عمر بن علي بن عثمان شيخ الطريقة العثمانية بزاوية "طولقة"؛
8. من الشريف تكوك أحمد شارف شيخ الطريقة السنوسية في زاوية أولاد شافع؛
9. من إشراف دار وزاف إلى فقراء طريقتهم الطيبة؛
10. من محمد الهاشمي بن ابراهيم شيخ الطريقة القادرية بتقرت وعميش؛
11. من عبد الرحمن بن الشيخ الميسوم شيخ الطريقة الشاذلية بقصر البخاري؛
12. من الشيخ سيدي إبراهيم كبير الزاوية القندوسية "بقنادسة"؛
13. من مفتي المالكية ومفتي الحنفية بالجزائر؛
14. من المفتي المالكي بن الموهوب والمفتي الحنفي باش تارزي بقسنطينة؛
15. من كبار مشائخ الطرق القادرية والرحمانية والعيساوية بتونس إلى جناب معتمد فرنسا المقيم العام بتونس؛
16. من شيخ زاوية سيدي الحلفاوي محمد الحلفاوي بتونس؛
17. من محمد الصادق الباهي شيخ زاوية سيدي الباهي؛

18. من عبد الواحد المحرزي شيخ زاوية سيدي محرز؛

19. من الشاذلي البكري شيخ زاوية سيدي البكري؛

20. من الشيخ الطاهر الشريف شيخ الطريقة العيساوية بتونس؛

21. من الشريف شيخ الطريقة الاسلامية بتونس.

وإلى القارئ الكريم نموذجا صغيرا في مضمون تلك التوصيات:

"من زوايا الجزائر إلى كافة مقادمنا وإخواننا، بعد السلام، فغير خفي عنكم أن زاويتنا بينها وبين الدولة الفرنسية العزيزة، تعلق لا مزيد عليه حتى صرنا معا كالأصابع الملتصقة بالراحة، فنحن وإياها ذات واحدة، وما يصيب أحد الطرفين يؤلم الآخر، فعليه فإننا نفضح أفعال دولة تركيا الرديئة التي عدلت عن طريق الصواب، وخرجت عن الدين الإسلامي بانضمامها إلى الألمان.. إلخ".

وهذا نموذج آخر عن توصيات زوايا تونس:

"نحن ندعو الله بتأييد دولتنا الحامية، ونصرها على العدو الوحشي، لأن نصر فرنسا نصر للإسلام الذي تحترم فرنسا دائما وأبدا قواعده وعوائده."

وهذا نموذج آخر عن بعض عناوين مقالاتها:

- الجاريح المسلمون من جيش فرنسا بخير وعلى خير؛
- انهزام تركيا أمام جيوش الحلفاء؛
- الخاتون مدام لانور قرينة سمو الوالي العام على القطر الجزائري تتفقد المرضى والجاريح من العسكريين المسلمين وتتصدق عليهم بالحلويات؛
- رسالة من ترابور مسلم في صف القتال.. ورئيس الجمهورية بونكاري في صف القتال.

وهذه بعض النماذج عن هذه الجريدة التي كانت الحكومة إلى جانب ذلك تمدد فيها الوعود المعسولة للجزائريين بتمكينهم من حقوقهم المشروعة بمجرد انتهاء

الحرب، تلك الوعود التي تبخرت في الفضاء كما تبخرت دماء أبناء الجزائر في الفضاء قربانا لنصرة فرنسا على أعدائها في الحرب، فكان جزاؤهم منها جزاء "سنمار"[1].

الدور الإيجابي الثاني:

كان من نتائج[2] هذه المقاومة المتواصلة عبر السنين، هذه الثورة الكبرى العارمة ثورة نوفمبر/ تشرين الثاني 1954 والتي ستنتهي بالنصر المحقق للأمة الجزائرية المجاهدة، الصاعدة كالعملاق المارد تبتغي فرض وجودها في دنيا الأحرار، ينتهي الدور الأول الذي حدثنا القارئ عنه مع انتهاء الحرب العالمية الأولى وقد جندت لها فرنسا من مسلمي الجزائر ما يزيد عن الأربعمائة ألف رجل، مات منهم في ميدان الحرب ما يزيد عن الثمانين ألف علاوة على أن فرنسا إلى جانب ذلك جهزت ثمانين ألف من الجزائريين يعملون في المعامل الحربية والمدنية بفرنسا.

وإذا كان الجزائريون يقومون بذلك المجهود الحربي العظيم إجباريا كانت النخبة منهم تطالب برفع المظالم وبالتسوية في الحقوق وتندد بمساوئ النظام الاستعماري العفن. وقد مع من هذه الطبقة أمثال عمر بوضربة وعباس بن حمانة الذي اغتاله الاستعمار غدرا ببلدة تبسة، وهو أول من أسس مدرسة حرة عام 1913 بتبسة، ولم ينحصر نشاط هؤلاء الرجال بالجزائر بل انتشرت القضية في فرنسا واحتضنها ذوو الضمير الحر من الاشتراكيين -أيام كانت الاشتراكية بفرنسا صادقة وقد تولى النضال فيها عن حقوق المسلمين الجزائريين رجال في أمثال جونجريس الزعيم الاشتراكي الكبير والبان روزي وغيرها.

---

1 - كانت نهاية هذه الحلقة الرابعة بالعبارة التالية: (وإلى هنا ينتهي الدور الأول الإيجابي من الكفاح القلمي بالجزائر ويأتي الدور الإيجابي الثاني من المرحلة الثانية من مراحل تاريخ الصحافة العربية بالقطر الجزائري وموعدنا مع المستمع الكريم في الحلقة القادمة من هذا الحديث والسلام عليكم ورحمة الله.)

2 - ابتدأ الكاتب هذه الحلقة الخامسة بالعبارة التالية: (أيها المستمع الكريم.. كنا حدثناك إليك في حصتنا الماضية عن الدور السلبي ثم الدور الأول الإيجابي من الكفاح القلمي الذي قام به الشعب الجزائري الأبي بوفوده وصحافته العربية ما بين سنة 1907 إلى 1918 ونحن اليوم نتحدث إليك عن الدور الثاني الإيجابي من هذه المقاومة عبر السنين والتي كان من نتائجها هذه الثورة الكبرى)

ثم ماذا كان نصيب الأمة الجزائرية مقابل جهودها وثمنا لدمائها سوى تلك الوعود المعسولة التي كانت فرنسا تغدقها عليهم بسخاء وبدون حساب؟ يد فارغة وأخرى لاشيء فيها.. وعد ينفذ بعد الحرب.

على أن جبال الأوراس لم تقتنع بهذه المطالبة وهذه الوعود فامتنعت عن تسليم أبنائها للجندية الفرنسية، ونطق البارود من جديد بين الجانبين. بينما التجأ ما يزيد عن المائة ألف من الشبان المسلمين الجزائريين إلى الغابات والجبال فرارا من العمل تحت الراية الفرنسية الاستعمارية.

انتهت الحرب الكبرى، ورأت فرنسا أنه لابد لها من عمل شيء للجزائريين من قبيل التضليل، وذر الرماد في العيون على الأقل، فأصدرت يوم 4 فيفري/ شباط سنة 1919 قوانين تلغي بها "الاندجينا" التي تحدثنا عنها في ـ سابقا ـ وتسوى فيها بين سائر السكان من حيث الضرائب، فقد كان الجزائريون يدفعون أضعاف ما يدفعه الأوروبيون، وكانت عليهم إلى جانب ذلك ضرائب خاصة. أما من حيث الحقوق السياسية فقد اكتفت قوانين 4 فيفري/ شباط بزيادة عدد الناخبين الجزائريين بعدما كانوا في دائرة خاصة ضيقة لا يشارك فيها إلا التجار وأرباب الأملاك. وهكذا خيبت فرنسا بهذه الإصلاحات السخيفة آمال الجزائريين.

ـ الأمير خالد

ولأول مرة في تاريخ الجزائر رأت الأمة زعيما سياسيا مقداما جريئا.. هو الأمير خالد بن محي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله. وقد كان هذا الأمير عمل برتبة ضابط كبير في الجندية الفرنسية، وشارك الفرنسيين حروبهم وآلامهم، فما انتهت الحرب حتى شكل وفدا ألم به ساحة (فرساي) حيث كان الرئيس الأمريكي (ولسون) يحاول عبثا فرض مبادئه التي نادى بها زمن الحرب، ومنها حرية سائر الأمم في تقرير مصائرها.. ولكن سرعان ما علم الجزائريون ـ كما علم التونسيون والمغاربة والعالم أجمع ـ إن تلك المبادئ لم تكن في نظر أوروبا

إلا خديعة من خدع الحرب، وأن المنتصر الحقيقي في الحرب الكبرى الأولى، إنما هو الاستعمار والطغيان الأوروبي.

رجع الوفد الجزائري خائبا، وجمع الأمير لأول مرة بالجزائر هيئة سياسية أسماها "اتحاد النواب المسلمين" وقد كان الأمير يخوض المعارك الانتخابية أثناء ذلك فانتخبته الأمة مستشارا بلديا ثم مستشارا ماليا ثم مستشارا عاما. ورأى ضرورة إنشاء جريدة تكون لسان حال هيئة السياسة فأسس جريدة "الإقدام"

جريدة " الإقــدام "

تأسست الإقدام بعاصمة الجزائر يوم 4 ماي/ أيار سنة 1920[1] فكان يعالج فيها آفات المجتمع ويناهض السياسة الاستعمارية بالبلاد ويندد بالخونة والعملاء وينادي بوجوب إصلاح الحالة بالجزائر على قاعدة تسوية الجزائريين بالفرنسيين في كل شيء ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسي، وهي في الحقيقة سياسة اندماج وهو منتهى ما سمحت به الظروف آنذاك على أن الاستعماريين كانوا يرون فيها الخطر الداهم الذي يهدد مصالحهم ونفوذهم بالبلاد.

وإلى القارئ بعض النماذج من فصول جريدة الإقدام التي كانت تصدر بالعربية والفرنسية ويشترك في تحريرها أقلام حرة صادقة.

في السياسيات:

في العدد 29 الصادر يوم الجمعة 30 شعبان 1339/ 29 أبريل سنة 1921 تحت عنوان "كتاب مفتوح إلى وزير الحربية" وبقلم الأمير خالد:

"كانت الأمة الإسلامية الجزائرية تنتظر قدومكم انتظارها للمسيح فحسبته أن لسفركم غرضا غير زيارة المعرض، وإنكم تستمعون إلى رغائبها، وتشاهدون حالها

1 - ظهرت "الإقدام" في يوم 1919/3/07 بإدارة كل من الصادق دندن وحاج عمر وكان لها الاتجاه السياسي الذي كان يدعو إليه الأمير خالد، وفي سنة 1921 أسندت إدارة الجريدة إلى الأمير خالد، وتوقفت عن الصدور يوم 1923/4/6 لتظهر مرة أخرى في باريس سنة 1927 لكن لم تعمر طويلا.

بعين الإنصاف، وتدركون ما تقاسيه من الآلام وعلى الأخص في هذا العام البائس كان في خلدها أنكم تزورون على الأخص العمارات التي أنهكتها المجاعة. ولكن رأت ويا أسفاه أن المضيف وأعوانه أحاطوا بكم إحاطة السوار بالمعصم وأقاموا لكم من أنواع الزينة في الاحتفال بقدومكم ما يبهر عيونكم ويشغلكم عن النظر ما وراء المهرجان في مآس وآلام.. والله يعلم أن هذه الاحتفالات الرائقة والابتهالات الرنانة، والشطح والرقص والمسابقة بالخيول والملاعبة بالأزهار إنما أقامته لتغطي أنظاركم عن النظر إلى الحقيقة ولتضرب على حال التعساء المنكوبين بحجاب كثيف".

ثم راح على هذا المنوال يشرح آلام الشعب ويبسط مطالبه العادلة في أسلوب كله حكمة واتزان.

وفي الاجتماعيات:

نشـر الأمير في "الإقـدام" عدد 38 من يوم الجمعـة 30 ذي القعدة 1339-5 أوت 1921 تحت عنوان "المجاعة بأبوابنا":

"إن طلائع جماعات المساكين أخذت تظهر، وكذلك صدرت في البلدان الأوامر بإلقاء القبض على التعساء النازحين من الجنوب ونواحي أخرى، وإجبارهم على الرجوع إلى بلدانهم. هذه محنة مخزية تقوم بها الإدارة، وهذه جريمة كبرى يقوم بها الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل تخفيف الآلام عن تعساء الأمة وفقراء البلاد".

وفي الدينيات:

نشر في نفس العدد تحت عنوان "الاهتمام بالباطل" فقال:

"يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الأول انعقدت جلسة الجمعية الدينية بالجامع الأعظم تحت رئاسة مفتي المالكية، وهذه الجلسة انعقدت بصفة محكمة

للإطلاع والمفاوضة في جناية الشيخ محمد بن القائد علي، الإمام بجامع سفير، وبعد أن وبخوه أشد التوبيخ على ما صدر منه، هددوه بالعزل إن هو صمم على الأمر والنهي باللغة الجارية ومخاطبة الناس بما يفهمون(هكذا في النص).

ما أعظمه من ذنب وأكبرها جناية.

هذه كانت لهجة "الإقدام" الصادقة إلى جانب المطالبة برفع المظالم المختلفة.

وقد التف المسلمون حول الأمير خالد، ثم أخذت الأيام تبدي في شدة شكيمة الجزائريين، ومن صلابتهم في المطالبة بحقوقهم مما أزعج مضاجع [illegible] وتكالبوا وقاموا في الجزائر وفرنسا بحملات شعواء على [illegible] صفا واحدا ضد مطالبهم المشروعة. واشتد ضغط المستعمرين [illegible] اضطروها لإرجاع قوانين "الانديجينا" من جديد، وإخراج [illegible] الجزائر.

لكن المقاومة لم تزد إلا شدة وانبعاثا واستمر الجزائريون يطالبون بواسطة نوابهم بتحقيق برنامج الأمير خالد الذي أصبح في تلك الأثناء إلى ساعة قيام الحركة الوطنية الكبرى سنة 1926 ميثاقا قوميا جزائريا لا تقوم حركة إلا على أساسه.

وقد احتضنت فكرة الأمير صحفا أخرى تعاقبت على الجزائر بعد اختناق أنفاس جريدة "الإقدام"[1].

جريدة الصديق:

صدر[2] عددها الأول يوم 12 أوت/اب 1920 وهي جريدة علمية أدبية سياسية اقتصادية، مديرها وصاحب امتيازها "محمد بن بكير التاجر" من فضلاء بني ميزاب، وقد تولى رئاسة تحريرها المولود بن محمد الزريبي الازهري ، وتطبع بمطبعة "سرلال"

1 - كان ختام هذه الحلقة بالعبارة التالية: (ستحدث عنها في حديث مقبل إلى اللقاء والسلام عليكم ورحمة الله).

2 - بداية الحلقة كالتالي :(أيها القارئ الكريم، تحدثنا إليك في حصتنا الماضية عن بداية الدور الثاني الإعلامي من كفاح الشعب الجزائري بواسطة القلم والصحافة، فحدثناك عن جريدة الإقدام التي أصدرها الأمير خالد بعاصمة الجزائر في ماي (أيار) 1920 والآن نحدثك عن: جريدة الصديق)

بعد أن كانت تطبع أولا بمطبعة "كريزانتشو" الايطالية، وقد ساهم في إنشاء "الصديق" الأستاذ عمر بن قدور الذي كان يعمل مصففا بالمطبعة الإيطالية المذكورة، وكانت هذه الجريدة من أشد جرائد عصرها تهجما على السياسة الاستعمارية وعلى الخونة من عملائها. ولقد كان مآلها مآل سابقاتها من الصحف التي لا تهضمها معدة الحكومة في ذلك العهد الأظلم البغيض[1].

مجلة الفاروق (بعد الحرب)

وعلى إثر تعطيل جريدة "الصديق" (أعاد السيد عمر بن قدور إصدار مجلة "الفاروق" بعاصمة الجزائر). صدر العدد الأول منها يوم 08 أكتوبر تشرين الأول سنة 1920 أصدرها مديرها إثر عودته من منفاه بالأغواط عقب الحرب العالمية الأولى، وهي مجلة دينية تهتم كثيرا بشؤون التصوف والطرق والزوايا وما إلى ذلك، حاول صاحبها أن يقلد فيها الأستاذ فريد وجدي في مجلتيه "الوحديات" و"الحياة"، فكتب في الطبيعة والمادة والفلسفة، وكان ينشر هذه الدراسات تحت عنوان "منبر الفكر".

وقد طلب زميله القديم الشيخ عمر راسم من صديقه الشيخ سليمان الجادوي صاحب جريدة "المرشد" بتونس أن ينقل تلك الآراء من "الفاروق" في "المرشد" فأجابه : (لا أنشر كلام المجانين)، وقد تكلمت عن "الفاروق" جريدة "المضحك" التونسية في عددها رقم 43 الصادر يوم 24 جويلية تموز سنة 1921 فقالت:

"كاد نعجز عن وصف السرور الذي خالج الفؤاد منا، بحلول الكاتب الشهير والمفكر الكبير صديقنا السيد عمر بن قدور صاحب جريدة "الفاروق" الجزائرية بين ظهرانينا، ولا ينكر أحد ما كان يدبجه يراع هذا الكاتب البليغ من التحارير

1 – هناك بعض المراجع تشير إلى أن "الصديق" قد تأسست يوم 1920/8/16 بالجزائر وأوقفتها السلطات الاستعمارية يوم 1922/8/07.

الإصلاحية الوافية، فمثله من يفيد البلاد باستطلاعاته، ويشرفها بزياراته، ونحن نرحب بقدومه المبارك ونرجو له السلامة"

وقد تحدثت عن صاحب "الفاروق" أيضا جريدة "المنير" التونسية للشيخ الشاذلي المرالي في عددها رقم 222 الصادر يوم 3 مارس/ اذار سنة 1932، حيث قالت:

"عت أخبار الجزائر صحفيا من أصحاب الغيرة والإخلاص وأستاذا عالما نصوحا، ألا وهو السيد عمر بن قدور صاحب جريدة مجلة "الفاروق" سابقا، والكاتب الشهير للصحافة الشرقية عموما والتونسية خصوصا. ولقد قاسى في حياته السياسية مشاق كانت خالصة في سبيل الحق والوطن، وقليل في أبناء بلدته من اعترف له بالجميل وقدر مواهبه حق قدرها. ولقد فقدت الجزائر لوفاته فتا كريما فرحمه الله ورزق الجزائر من أمثاله"

ـ الصحف الموالية للاستعمار:

ولم تكن الحكومة كعادتها مكتوفة اليدين إزاء هذه الحركة الجارفة من المقاومة القلمية فعملت على خلق:

جريدة "النجاح"

صدرت بقسنطينة يوم 14 أوت /اب سنة 1920 اشترك في تحريرها وإدارتها السيدان عبد الحفيظ بن الهاشمي ومامي إسماعيل وكانت بمثابة "المبشر" في نشر الأخبار القضائية والترقيات الوظائفية، وتصريحات المسؤولين الاستعماريين ومناهضة الإصلاح والحركات السياسية التحريرية، وقد عاشت هذه الجريدة إلى سنة 1957[1] حيث ماتت بموت محررها مامي إسماعيل واشتغال مديرها عبد الحفيظ بن الهاشمي بخطة الإفتاء.

1 – كانت النجاح في بدايتها وإلى سنة 1932 وطنية الإتماء، لكنها بعد هذا التاريخ أصبحت موالية للاستعمار، وتشير أغلب المراجع أنها توقفت عن الصدور سنة 1955.

أوعزت الحكومة إلى الطائفة العليوية بإنشاء جريدة تكون لسان حالها، وذلك عند ظهور بوادر الدعوة الإصلاحية التي كان يقوم بها الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس صحبة زملائه المشائخ، الطيب العقبي، والبشير الابراهيمي، فأصدر العليويون جريدة "لسان الدين" .

صدرت يوم 2 جانفي/كانون الثاني سنة 1923 بعاصمة الجزائر ثم انتقلت إدارتها لبلدة مستغانم وكان محررها الأول السيد مصطفى حفيظ ثم تولى تحريرها بعده بن عليوة السيد الحاج عدة بن تونس صهر الشيخ أحمد بن عليوة. وكانت تقوم بنشر ضلالات بن عليوة والدعوة إلى مناصرة الطرق بالجزائر ومحاربة الإصلاح إلى جانب مؤازرة السياسة الاستعمارية وتحبيذ أوضاعها وتبرير أساليبها الإجرامية بالبلاد.

وكان في صدور هذه الجريدة فاتحة لعهد جديد في تاريخ الكفاح القلمي بالجزائر حيث ابتدأت المعركة الإصلاحية العتيدة التي انحصرت في واجهتين:

واجهة الحكومة والطرق، وواجهة الشعب والحركة الإصلاحية[1].

1 - [illegible]

الفصل الثالث

معركة الصحافة الإصلاحية

انطلاق الحركة الإصلاحية :

كنا تحدثنا في الصفحات السابقة[1] عن تاريخ الصحافة العربية بالقطر الجزائري من سنة 1838 إلى سنة 1920 وانتهينا في حلقتنا السالفة إلى طور المقاومة القلمية التي كان يقودها البطل الجزائري الأمير خالد الهاشمي صحبة جماعة من أحرار الجزائر، وذلك إثر الخيبة المريرة التي لقيها الشعب الجزائري من فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، وقد كان ثمن الدماء الجزائرية المراقة في الميادين الحربية، إرجاع قانون الاندجينا من جديد، ونفي الأمير خالد، والقضاء على بقية أنصاره بطرق تختلف باختلاف الظروف المحيطة بها، ورأينا كيف أن حكومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر، عمدت إلى نوع جديد من سياسة النفاق والتضليل فسخرت شرذمة من رجال الزوايا الطرقية الذين انحرفوا عن مبادئ الطرقية الصوفية الصحيحة، ودفعتهم عملاء لخدمة سياستها التهديمية بواسطة إنشاء صحف مأجورة ورأينا كيف أن هذه المحاولة الماكرة انقلبت نتائجها لفائدة الانبعاث الجزائري، وكانت نقطة تحول في تاريخ كفاحها المجيد، حيث أنها ساهمت بطريقة غير مباشرة في انطلاق الحركة الإصلاحية الجارفة واتخاذها شكلا إيجابيا في المقاومة الصارخة بواسطة الدعاية في النوادي، وإنشاء الصحف العربية النزيهة الصادقة، تلك الحركة التي انبثقت عنها بعد خمس سنين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

---

1 - كانت بداية الحلقة السابعة تضمنت العبارة التالية: (كنا تحدثنا إلى السمع الكريم عن تاريخ ...الخ)

نادي الترقي :

وقد تزعم هذه الحركة المباركة بعد نفي الأمير خالد، الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله. وقد ساهم في تعزيز هذه الحركة "ناد" أسسه بعاصمة الجزائر أنصار الإمام ابن باديس، وعلى رأسهم المجاهد الكبير الأستاذ أحمد توفيق المدني وزير الثقافة سابقا بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وسفيرها اليوم بالقاهرة، وهذا النادي يسمى "بنادي الترقي"، وقد أصبح هذا الاسم في تاريخ حركة المقاومة الجزائرية عنوانا لكفاح جيل كامل، لم يكن الجزائريون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال الفرنسي، وكانت قوانين "الاندجينا" تحرم الاجتماعات كما أسلفنا فكانت كل الحركات الجزائرية تتسم بقلة النظام وتتعرض للفوضى القاتلة.

ولما تأسس "نادي الترقي"[1]، كان مركزا لجميع الحركات القومية وكانت قاعاته الفسيحة ملتقى النخبة المفكرة كلها سواء بالعاصمة أو بداخل البلاد، وكانت المحاضرات والمسامرات والحفلات الكبرى تتوالى فيه ويقبل عليها الشعب إقبالا لاهفا. ورغم القوانين الصارمة والمراقبة المستمرة، كان نادي الترقي منبرا للدعوة الوطنية من جهة، ومنبرا للدعوة الإصلاحية والعروبة من جهة أخرى، وقاوم النادي نزعات الاندماج، كما قاوم دعاية التجنيس التي كانت الحكومة تغري بها ضعفاء الإيمان قصد الحصول على الحقوق السياسية، وفي صدر هذا النادي المبارك تمكن أنصار الحركة الإصلاحية من تحقيق ذلك الحكم الذي كان يراود أحرار الجزائر، ألا وهو تأسيس حياة إسلامية عربية تنهض بالبلاد لحظة حارة في نطاق عروبتها وقوميتها وإسلامها فكانت (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

1 - تذكر المصادر التاريخية أن نادي الترقي افتتح يوم 1927/7/03 [illegible] 1927/7/18 [illegible]

وقد امتازت سنة 1925 بحادثين عظيمين في تاريخ حركة المقاومة الجزائرية: أولهما تأسيس جمعية العلماء، وثانيهما تأسيس الحزب السياسي الوطني الجزائري تحت اسم "نجمة إفريقيا الشمالية"، وقد كان لسانه جريدة "الأمة" تصدر بباريس باللغة الفرنسية، وتباع بالجزائر خفية، كما تباع المواد المتفجرة، والويل كل الويل لمن وجدته الشرطة يطالعها أو يملكها أو يبيعها[1].

نجم شمال إفريقيا:

وقد ساهم في تأسيسها رجال منهم من لا يزال وفيا لوطنه، ثابتا على العهد، ومنهم من قضى نحبه، ومنهم من انحرف عن المبدأ الوطني، وأصبح من عملاء الاستعمار الفرنسي يتعاون معه ضد الثورة الجزائرية المقدسة.

وكان هذا الحزب ينادي بمبدأ الاستقلال التام. ومنذ ذلك التاريخ لم تزدد فكرة الاستقلال إلا انتشارا وذيوعا حتى أصبحت العقيدة العلنية للشعب، تلك العقيدة التي كانت البذرة الأولى لثورتنا الكبرى الحالية.

ورغم الاضطهاد العظيم الذي لقيه حزب "نجمة شمال إفريقيا" فقد تمكنت من الحياة والاستمرار في كفاحها طوال 12 سنة، وقد حلتها حكومة الجبهة الشعبية التي كان على رأسها "بلوم" يوم 29 مارس 1937 فبعثها المناضلون من جديد تحت اسم "حزب الشعب الجزائري" ثم "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" وأخيرا تكتلت جميع عناصر الأمة الصالحة في جبهة عامة انبثق عنها الكفاح المسلح للشعب الجزائري وهي: "جبهة التحرير الوطني الجزائري".

وكانت بالجزائر حركات أخرى تواكب الحركة الوطنية مع اختلاف جزئي في الوسائل وتقارب في الغاية. وهي حركة "وحدة النواب المسلمين الجزائريين" ثم حركة "أحباب البيان" التي كان يترأسها السيد "فرحات عباس" رئيس الجمهورية

1 - في الحقيقة، تأسست جمعية العلماء يوم 1931/5/5 كما أن "نجم شمال إفريقيا" [illegible] 1925 [illegible] في السرية في أوساط المهاجرين ليظهر في مارس سنة 1926، وبعقد أول اجتماع له يوم 1926/3/15 [illegible] نموها لأنها عرفت ظهور جريدة "المنتقد" لابن باديس التي [illegible] عمل علني إصلاحي يقوم به الشيخ ابن باديس.

الجزائرية المؤقتة حاليا بمعية المرحوم الدكتور سعدان والأستاذ احمد بومنجل الناطق باسم الحكومة الجزائرية حاليا. وسنتعرض لذكر هاتين الحركتين بإسهاب عند الحديث عن صحافتها.

جمعية العلماء : ابن باديس

وحيث أن الزعيم الأول للحركة الإصلاحية هو الإمام عبد الحميد ابن باديس نرى لزاما علينا قبل أن نتعرض للحديث عن الصحف الإصلاحية أن نفيد القارئ الكريم بموجز حياة هذا الرجل العظيم الذي كان باعث الانتفاضة الأولى بالقطر الجزائري، ولا نبالغ إذا قلنا بالمغرب العربي كله وقد جاهد في ميدان الصحافة مدة 10 سنين كاملة.

فمن هو عبد الحميد ابن باديس؟

إن ابن باديس الصنهاجي هو ذلك الرجل الذي أقسم لبلاده يوم أن رجع من تونس حاملا شهادة العالمية سنة 1912 وانتصب بقسنطينة يبني العقول وينشئ الأجيال، قال ابن باديس:

"هاأنا ذا أعاهدكم على أن أجعل حياتي وقفا مؤبدا على الإسلام عموما والأمة الجزائرية خصوصا ما بقيت الروح. ومن بدل أو غير فلينطبق عليه: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى، من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون" صدق الله العظيم)[1].

لم يكن ابن باديس[2] مصلحا دينيا فحسب، ولا وطنيا صادقا وصحفيا واعيا فقط كما يقولون، إنما ابن باديس كان أمة، إن ابن باديس كان أبا لجيل، ذلك

1 - [illegible]

2 - بداية الخطبة الثانية كانت كالتالي: (أيها القارئ الكريم [illegible]) [illegible] الحركة الإصلاحية هو ابن باديس [illegible] وحيث أن الزعيم الأول [illegible]

الجيل الصاعد الذي ابتدأ سنة 1925 بالثورة على الجهالة والضلال وانتهى سنة 1954 بالثورة على السلاسل والأغلال. إنه يفتخر بهذه الأبوة، إنه يقول: "أنا لم أنجب أولادا.. ولكني أب.. لأن كل الجزائريين أبنائي".

ولد ابن باديس في قسنطينة سنة 1889 في أحضان عائلة مترفة تتمتع بمركز اجتماعي ممتاز، وكان والده محمد مصطفى من أغنياء البلاد ووجهائها المحظوظين، ولو شاء عبد الحميد لعاش مثل أبيه وأفراد عائلته في بحبوحة من العيش ووفرة من الثراء وجانب من تقدير السلطة الحاكمة، وأن يبقى مدللا كما كان صبيا، ولما حرق مخه وأنهك جسمه بالعمل الفكري الكادح، وكان في إمكانه أن يتمتع بالحياة الزوجية الدافئة، ككل أمثاله من أبناء الذوات المترفين، ولكنه استقبل الحياة يوم أن استقبلته الحياة، وهو يصرخ في وجهها: خلقت للجزائر وسأعيش للجزائر.

أدخله والده أحد الكتاتيب القرآنية وهو في الخامسة من عمره، فحفظ القرآن على الشيخ محمد المداسي، ثم درس العلوم الدينية في قسنطينة على الشيخ حمدان لونيسي، وقد كان يحذره من الالتحاق بأي وظيفة، وهي أغلى نصيحة سمعها في حياته.

أرسله والده مصطفى إلى تونس ليأخذ نصيبه الأوفر من المعارف فعكف على التحصيل وأتم[1] دراسته سنة 1908 حيث تحصل على شهادة التدريس العليا ثم رجع إلى قسنطينة مسقط رأسه، وسافر إلى البقاع المقدسة سنة 1912 لأداء فريضة الحج، وطاف بالأقطار العربية (سوريا، لبنان، مصر وفلسطين) واتصل بعلماء هذه الأقطار العربية وأجازه المرحوم الشيخ محمد بخيت إجازة العالمية. وفي رحلته هذه التقى في الحجاز بكل من الشيخين البشير الإبراهيمي والطيب العقبي، حيث كان

1 - في الحقيقة سافر بن باديس في هذا التاريخ 1908 إلى تونس وانتسب إلى جامع الزيتونة حيث أخذ العلوم العربية الإسلامية عن كبار علمائها أمثال محمد النخلي ومحمد الطاهر بن عاشور ومحمد الخضر حسين الطولقي، وتخرج منها بشهادة التطويع سنة 1911/1912.

الأول مدرسا بسوريا، والثاني بالمدينة، وهناك تعاهد الثلاثة على القيام بحركة إصلاحية بالجزائر لإنقاذ الأمة من براثن مشائخ الزوايا الطرقية الذين سخروا أنفسهم مطية لأغراض المستعمرين في الجزائر لنشر الأوهام والضلالات وتخدير العقول.

وبمجرد رجوع الشيخ ابن باديس إلى قسنطينة سنة 1913 انتصب مدرسا بالجامع الكبير، ثم الجامع الأخضر، يهذب النفوس، وينشر المبادئ القومية والفكرة الإصلاحية، فكان يقوم بإلقاء أثنى عشر درسا يوميا، وقد ابتكر طريقة جديدة لتفسير القرآن بالجزائر، كما ابتكر مثلها الشيخ رشيد رضا بمصر.

وإلى جانب كفاحه في الحقل الإصلاحي، فتح واجهة جديدة للكفاح القلمي فأسس جريدة "المنتقد" ثم "الشهاب" كمجلة، ثم "السنة المحمدية" ثم "الشريعة" ثم "السراط" وأحيوا "البصائر" التي احتجبت بعد اندلاع الثورة المسلحة العارمة.

كان من البديهي أن تتضايق الحكومة الاستعمارية بالجزائر من هذه الحركة وأن تعتبرها -كما هي في الواقع- حركة خطيرة ترمي إلى تحرير الأفكار والعقول من الاستعمار العقائدي المريع الذي ظل ردحا من الزمن يحجب العقول عن المعرفة والحقيقة والنور، ويصد النفوس التي تنهشها المخاوف بأنيابها عن الانطلاق وراء حياة سعيدة وعيش كريم. صمد ابن باديس الصنهاجي أمام كل معارضيه ووقف ساخرا من الأحداث في نخوة وكبرياء يردد ذلك الصوت الذي يجلجل في أعماقه: تستطيع الظروف أن تكيفنا، ولكنها لا تستطيع أبدا أن تقهرنا.

فإذا ما اعتصرت حلمه الآلام، وداعبت روحه الآمال الفساح حدج الأقدار العاتية بعينين تتوقان كالقبس، ونظر إلى الأفق اللازوردي الحالم في أحضان اللانهاية، وقال: إن جميع الأبواب يمكن أن تغلق أمامنا، ولكن بابا واحدا لن يغلق أبدا وهو باب السماء.

وما كان ابن باديس أن يغتر بمناورات الاستعمار التي دبرت حوله إبان الحرب العالمية الثانية ليقول كلمة تأييد لفرنسا، وحلفائها ضد الألمان، إنه لا يثق بالاستعمار، ولا يطمئن لرجاله، فهو يرتاب حتى في كلمة الشهادة إذا طلب إليه المستعمرون أن يقولها: "والله لو قالوا لي قل لا إله إلا الله لما قلتها".

هذا هو عبد الحميد ابن باديس في إيمانه.. ذلك هو ابن باديس في شخصيته وتضحيته النفيسة الفذة .. ذلك هو أب الجزائر في جهاده وهذه هي صيحاته المدوية يقذفها في صدر الزمن:

هـذا كم عهدي بـه	حتى أوشك في الترب
فإذا هلكت فصيحتـي	تحيى الجزائر والعـرب

ولقد التحق ابن باديس بموكب الخلود في جوار ربه يوم 16 أفريل قبل عشرين سنة (1940)، ولفظ أنفاسه الأخيرة مبتهلا: "رب إني مسني الضر، وأنت أرحم الراحمين".

وكان الخضم الزاخر من الشباب الجزائري يسير في خشوع وراء جثمانه الطاهر وهو يردد هذه الكلمات الصارخة: "لقد كان عبد الحميد هو الجزائر، والآن على الجزائر أن تكون هي عبد الحميد"..[1]

جريدة " المنتقد "

صدرت "المنتقد"[2] بعاصمة قسنطينة يوم 2 جويلية /تموز سنة 1925م يتولى تحريرها نخبة من الشبيبة الجزائرية، ويدير شؤونها الإدارية السيد أحمد بوشمال، ويوجهها الإمام عبد الحميد ابن باديس. وهي أسبوعية تصدر يوم الخميس من كل

1 - اختتم المؤلف هذه الحلقة الثامنة بقوله: (وهذه نبذة وجيزة عن تاريخ هذا الرجل العظيم جعلتها مقدمة بين يدي القارئ لأحادثه عن صحافة هذا العهد، ولنبدأ بعد هذا بالحديث عن جريدة "المنتقد" التي كانت باكورة جرائد العهد الإصلاحي الجديد وسيكون ذلك موضوع حلقتنا المقبلة بحول الله وإلى هنا نودع القارئ الكريم على وعد اللقاء في الأسبوع المقبل والسلام عليكم ورحمة الله)

2 - افتتح المؤلف الحلقة التاسعة بقوله: (كنا قد أسلفنا الحديث في حصتنا الماضية عن نبذة وجيزة عن حياة المصلح الإمام عبد الحميد ابن باديس واليوم نتناول استعراض صحف هذا العهد ونبدأ بجريدة "المنتقد".

أسبوع، كما أنها أول صحف العهد الإصلاحي، وكانت تشدد الحملات على أنصار البدعة والضلال، وتنتقد تصرفات الحكومة الاستعمارية بشكل متزن رصين إلا أنه قوي وصريح. وما كان لفرنسا الاستعمارية وعملائها أن تتحمل سماع أصوات تزعجهم وتفسد عليهم خططهم النكراء خصوصا وان إدارة الأمور الأهلية بالجزائر كان على رأسها ذلك المستشرق الخبيث "ميرانط" ومن ورائه أمثال محمود كحول من الخونة الأنذال، فخنقت الحكومة أنفاس "المنتقد" ولم تمر سنة على ولادتها، وذلك في ربيع سنة 1925[1] وكان آخر عدد صدر منها هو العدد الثامن عشر.

وإلى القارئ نموذجا من فصولها من نقتطفه من عدد 3 سبتمبر/ أيلول 1925 تحت عنوان "دعاء إلى واجب":

"أيها العلماء الذين اعترفت لهم الأمة بالعالمية، وصار في استطاعتهم إنقاذها من مهاوي الضلال. إنكم تعلمون أن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ابتدأ دعوته بتطهير العقائد من الوثنية، ومعلوم أن العلماء بالدين العاملين به هم ورثة الأنبياء القائمين برد كل محدث خالف ما كان عليه الدين، فعلام نراكم صامتين، لم تكتبوا بالجرائد أو تجمعوا الأمة وتخطبون لها بما توضحون به نهج الدين القويم ..؟ خصوصا في هذه الأونة التي صار من يكره الناس على الاعتراف له بالعلم، يقول: الله (بريمار) في السماء، والشيخ الفلاني (بريمار) في الأرض... كذا إلى ألفاظ توسع مدلول هذه العبارة وتشرحها، وبريمار بالاسبانية معناها "الأول" ... سبحانك لا إله إلا أنت آمنت بقولك: (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) وآمنت بأن هذا غير خاص بنزول هذه الآية."

هذا هو أسلوب الدعوة إلى الإصلاح الذي بدأ الإمام ابن باديس بثه في الأمة، بلين ونزاهة واعتدال على لسان جريدة "المنتقد"، وكان من أبرز كتابها العلامة

1 - أوقفت "المنتقد" من قبل السلطات الاستعمارية يوم 1925/10/29

المؤرخ الشيخ مبارك الميلي أحد مؤسسي "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" فيما بعد، وقلما لا يخلو عدد من "المنتقد" من فصوله المتزنة الصريحة الممتعة، وكان يحرر فيها مقالا متسلسلا تحت عنوان "هل نحن في بداية لحظة ؟" وآخر تحت عنوان "كيف نعيش سعداء ؟". ومن عناوين جريدة "المنتقد" الأحلام الطائشة، من الناس قوم، من ملاحظاتي. وقد صادفت رواجا منقطع النظير في أوساط الشعب الجزائري بل والمغرب العربي كله حيث كانت الوحيدة من نوعها في ذلك العهد أصدق لهجة في حكمة واتزان.

وما إن اختفت هذه الجريدة حتى خلفتها جريدة "الشهاب"

جريدة "الشهاب"

برزت بعاصمة قسنطينة سنة 1925 تصدرها نخبة من الشبيبة الجزائرية، مدير شؤونها وصاحب امتيازها السيد أحمد بوشمال[1] تبرز صبيحة الخميس من كل أسبوع. وقد صدرت عددها الأول بمقال افتتاحي طويل فيه بيان عن تعطيل "المنتقد" وإنشاء "الشهاب" وبداية من العدد 32 الصادر في 11 ذي الحجة سنة 1344[2] صارت تصدر مرتين في الأسبوع يومي الخميس والاثنين، واستمرت "الشهاب" تقوم بواجبها للدعوة الإصلاحية بدون أن يعلم قراؤها الأباعد شيئا عن أسرتها، إذ أن الشيخ ابن باديس هو الذي يكيف مناهجها ويشرف على تحريرها إلى أن ظهر العدد 49 بتاريخ 10 صفر سنة 1345[3] مكتوب عليه "الشهاب" تصدر تحت إشراف مؤسسها الأستاذ عبد الحميد ابن باديس؛ وهكذا واصلت سيرها الأول في شكل جريدة إلى العدد 75 المؤرخ في 11 جمادى الثانية سنة 1345[4] ثم تطورت في شكل مجلة.

1 - المؤسس الحقيقي للشهاب هو عبد الحميد بن باديس، وبوشمال كان مسؤول الجوانب الإدارية والطبعة، وسيظهر اسم بن باديس باعتباره مؤسس الشهاب ابتداء من العدد 49 كما سيذكر المؤلف. وقد صدر أول عدد يوم 1925/11/12 وتوقفت عن الصدور في أوت 1939.
2 - الموافق لـ: 1926/6/21
3 - الموافق لـ: 1926/8/19
4 - الموافق لـ: 1926/12/16

وكانت لهجتها غاية في الاتزان والليونة والدعوة بالحسنى ودليلا على ذلك ننقل للقارئ الكريم فصلا من عددها المؤرخ ب 28 جانفي / كانون الثاني سنة 1926 - 14 رجب 1344 وفي هذا الفصل يشرح محررها خطة الشهاب بلباقة وصراحة قال:

(لقد كان المسلك الذي سلكناه من الصراحة في يوم أن دخلنا ميدان الصحافة جديرا بأن يغنينا عن كل بيان، ولا نشك أنه كان كذلك عند من يقرؤون صحيفتنا غير متأثرين بعوامل من عند أنفسهم من الداخل أو بعوامل مصالح أقوام احتاجت إلى بيانات أكثر مما يحتاج إليه كلام المراوغين والمداجين، وذلك لأنها تلقى من أعداء الحقائق من يصرفونها إلى أبعد الاحتمالات ويحملونها ما لا تدل عليه بوجه من وجوه الدلالات، ويلزمون أهلها بأبعد اللوازم في مذاهبهم، وينسبونهم إلى كل غاية من غاياتهم، وهذا الذي تعانيه يا قارئنا الكريم في حياتنا الصحافية من بدايتها إلى اليوم وهذا هو الذي دعانا إلى تقديم هذه البيانات لجميع الناس.

1) نحن والسياسة الجزائرية: ليس لنا في الوقت الحاضر من سياسة إلا سياسة الديمقراطيين من أحرار فرنسا، تلك السياسة المنبثقة عن المبادئ الثلاثة (الحرية والأخوة والعدالة).

فنحن : نريد من فرنسا ولفرنسا، الحرية التي يريدها كل فرنسي، أو متصل بفرنسا، بسبب حرية القول والنشر والاجتماع.

نريد من فرنسا وبفرنسا، الأخوة التي تنشأ من الإحسان العام، وترسخ برفع كل ميز بين العناصر المتساكنة بالبلاد.

نريد من فرنسا وبفرنسا، العدالة في الأحكام وفي أسباب التقدم الفكري والرقي الاجتماعي والعمراني، حتى تصبح الجزائر عضوا عاملا لا عضوا فاشلا.

2) نحن والإصلاح الديني: ليس لنا أمل في هذا السبيل إلا القرآن والسنة وسير السلف الصحيح. وليست لنا غاية إلا تصحيح العقائد، وتهذيب الأخلاق، وتقويم الأعمال، وتنزيه الدين مما أحدثه فيه المحدثون. وليس لنا داع يدعونا إلى هذا إلا الشعور بواجب النصح، ومحبة الخير لإخواننا المسلمين الجزائريين. ذلك الشعور

وتلك المحبة اللذان لم يزالا يحملان أمثالنا في جميع الأمم إلى سلوك مثل هذا السبيل إننا نسعى إلى الإصلاح الديني في خصوص الأمة الجزائرية التي نحن منها دون غيرها من الأمم الغنية برجالها عنا، وبدون أن تكون لنا أدنى علاقة خاصة بأي مصلح في أية أمة أخرى. فأعمالنا في هذا السبيل كلها منا ولنا غير خارجة عن دائرة القانون، ولا موجهة ضد أحد.

3) نحن والزوايا: لا نريد هدم الزوايا وإنما نريد إصلاحها، لا كلام لنا مع الأموات، وإنما كلامنا مع الأحياء، لا ننكر الولاية، وإنما ننكر الغلو في تقدير أهلها، لا ننكر الكرامة وإنما نتحرى في توفر شروطها، لا ننهى عن زيارة السنة، وإنما ننهى عن زيارة البدعة.

في الزوايا وفينا وفي غيرنا شيء من الفساد، غير أن الفساد إذا نشأ من الزوايا عم انتشاره لما لها من كثرة الأتباع. فهي جديرة بأن تقدم على غيرها في الإصلاح، وتخصص بجانب كبير من دعوة المصلحين. ونحن -بحمد الله- قد أسمعنا أصحابها- مع احترامهم- كلمة الحق وحركنا الكتاب على اختلاف مشاربهم إلى تبادل الأفكار في إصلاحها. وعرفنا الأمة أن فيها ما ليس من الدين. فأصبحت مسألة مطروحة على بساط البحث. معروضة على المحك الإصلاحي بعد سكون طويل في زمن بعيد. وإذا نحن قمنا بواجبنا فلنتركها بيد العلماء يتناظرون فيها بالحق والإنصاف حتى تتجلى الحقيقة التي يجب على الجميع قبولها والعمل بمقتضاها، وقد فتحنا للكتاب كلهم بابا في صحيفة "صفحة المتناظرين" ننشر فيها كل ما يرد علينا منهم على اختلاف مشاربهم، بشرط أن يكون بصريح إمضاءاتهم، ونعدهم بشرف الصحافة. إننا لا نؤثر أحدا منهم على أحد في التقديم والتأخير، ولا نتحيز لفريق على فريق.)

هذا هو المنهاج العام الذي سطرته جريدة "الشهاب" وسارت على ضوئه سائر جرائد العهد الإصلاحي[1].

1 - كانت غاية الحلقة التاسعة بقوله: (ولنقف مع القارئ في هذا الحد على وعد اللقاء معه في الحلقة الآتية حيث نتحدث عن الشهاب في شكل مجلة والسلام عليكم ورحمة الله.)

لقد علم القراء مما سبق أن الشهاب تطورت إلى مجلة بداية من عددها 75 المؤرخ في 11 جمادى الثانية سنة 1345. وكانت تطبع بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة. تلك المطبعة التي واكبت الانتفاضة الإصلاحية من أول يوم، وساهمت بأكبر قسط في نشر الدعوة إلى التحرر الفكري والتخلص من الضلال العقائدي الذي كان يسدل حجبا كثيفة بين الشعب وبين الحقيقة والمعرفة والنور. وكانت هذه المطبعة التي يديرها الجندي المجهول السيد أحمد بوشمال تقوم بطبع جميع جرائد المدرسة الإصلاحية، سواء كانت إدارتها بقسنطينة أو بعاصمة الجزائر كما كانت تطبع جل الإنتاج الأدبي والفكري في الفترة المتراوحة بين سنة 1923 وسنة 1947 وهذا واضح في المقال الذي نشر بمجلة الشهاب عدد 105 المؤرخ في 14 محرم 1346 الموافق لـ 14 جويلية / تموز سنة 1927 بإمضاء "المطبعة الإسلامية الجزائرية" وقد جاء فيه ما يلي ردا على احتجاج في جريدة "البرق" بلهجة قاسية ضد المطبعة.

"قد علم الناس أن المطبعة الإسلامية الجزائرية في خدمة النهضة الفكرية في هذا الوطن منذ تأسيسها كما هي غايتها. ففيها طبعت صحيفة "الجزائر" لشاعر الجزائر وكاتبها الكبير الشيخ محمد السعيد الزاهري. وفيها طبعت صحيفة "صدى الصحراء" للأديب الوطني السيد أحمد بن العابد العقبي إلى آخر عدد منها. وكانت مقالات جريدة "الجزائر" تأتينا من عاصمة الجزائر حيث كانت إدارتها، كما أن مقالات جريدة "صدى الصحراء" كانت تأتينا من بسكرة، ورغم ذلك فقد كانت الجريدتان تصدران في أوقاتها، وما عرف صاحباها من المطبعة الإسلامية الجزائرية خيانة ولا تقصيرا، بل عرفا منها عناية حسب جهدها، وتساهلا في معاملتها، وما يذكر أنه دائما مقرونا بالثناء والاعتراف بالجميل، وقد جاءت في هذه الأشهر "جريدة البرق" تطبع بمطبعتها إلى عددها الخامس عشر، وكانت تبرز في أوقاتها رغم تأخر أصحابها في إرجاع المقالات بعد التصحيح ورغم تكرر تنبيهاتنا لهم في ذلك وإلفات نظرهم لما يلحق المطبعة من الضرر المادي واختلال النظام في الأعمال

بسبب ذلك التأخير. ومع الأسف فقد حصل ما كان يخشى، فصدر عدد 102 من "الشهاب" في 16 صفحة وتأخر عدد 103 منه سماها السيد الرحموني (مدير جريدة البرق) خيانة وسعى بها قوما لئاما. ونحن قد كتبنا هذا خدمة للحقيقة. أما ما تلفظ به فإننا لا نحسن الجواب عنه. ونرجو بعد هذا لجريدة "البرق" اللامعة كل تقدم ورواج."

لقد وجد الإمام ابن باديس وإخوانه المصلحون ميدانا رحبا في مجلة "الشهاب" لبث أفكارهم، والدفاع عن آرائهم في توجيه الأمة توجيها صحيحا سواء في الميدان السياسي والاجتماعي أو الإصلاحي ورغم أن المعركة كانت حامية الوطيس بين المعسكرين، معسكر الإصلاح تسانده الأمة، ومعسكر الرجعية تسانده الحكومة الاستعمارية. فإن المنهج الذي سلكته مجلة "الشهاب" في كفاحها كان منهجا رصينا يتسم باللين والمرونة والحسنى، وطالما كانت ترفض نشر مقالات أنصارها الأقربين إذا كانت عنيفة اللهجة، ناشزة عن مبدأ الدعوة الذي سطره الإمام ابن باديس لمجلته، ونفذه في دروسه ومواعظه الأسبوعية في مساجد قسنطينة ومساجد القرى التي كان يزورها بدون انقطاع. بل ذهبت مجلة "الشهاب" إلى أبعد من ذلك فكانت تفتح منابر حرة للناظر، لا تضيق صدرا عن نشر آراء المعارضين بكل حرية ونزاهة، وكثيرا ما كانت المجلة مضطرة إلى الحد من انطلاق الكتاب وراء عواطفهم، بنشر تنبيهات مثل الذي نشرته في عددها 107 المؤرخ بـ 28 محرم سنة 1346 الموافق 28 جويلية / تموز سنة 1927 تحت عنوان (متى تجاب الدعوة إلى الحسنى). وقد جاء فيه "فقد كنا نظن أن تجاب الدعوة إلى الحسنى في انتصار الكتاب على البحث والمناظرة، بدون فحش ولا سباب، ولكن مع الأسف إن بعضهم لا يزال مندفعا وراء ذلك التيار. نكرر لهم تلك الدعوة سائلين لنا ولهم حسن القول وحسن الاستماع والتوفيق في كل حال."

وقد استمرت المناظرة الحرة بين الفريقين مدة طويلة كان من أبطالها في الجانب الإصلاحي الطيب العقبي -ابن باديس- مبارك الميلي أبو يعلى الزواوي-

الأمين العمودي، السعيد الزاهري، ومن جانب الطرقيين، المولود الحافظي- عدة بن تونس- الأخضر عمروش، وتطورت المناظرة القلمية إلى دعوة رسمية للمباهلة (المجادلة أو المجاهلة) بين أقطاب الطريقة العلوية وبين الطيب العقبي الذي كان من أبرز المصارعين في ذلك العهد. وقد نشرت مجلة "الشهاب" في عددها 107 إحدى مراحل هذه "المباهلة" في كلمة للطيب العقبي هذا نصها :

"طالعت بعدد "البلاغ" الأخير كلمة تحت عنوان (المباهلة) يدعوني فيها أصحابها إلى مباهلتهم أو مناظرتهم ولكن في الجزائر. وفي يوم موسم ابن عليوة وزيارته التي أنا من أول المنكرين لها، وحيث أن حديث (المباهلة) كان بدؤه مع سكيرج قاضي الجديدة بلاد المغرب الأقصى، وبين المغرب وبسكرة مسافة بعيدة، فتعيين الاجتماع بها ظلم وحيف، واليوم يطلب العليويون الاجتماع بعاصمة الجزائر يوم حجهم الأكبر ليحشرونا مع زمرة أتباعهم، والعدل والإنصاف يقتضي بقسم المسافة بيننا لكي لا يغبن أحد الطرفين لهذا أجبنا العليويين -ونحن براهقنا الوقت- بتلغراف ممضي (روكماندي) هذا نصه:

"إنا مستعدون للقائكم في اليوم الذي عينتموه ولكن بقسنطينة لا بالجزائر، كنا عينا الجزائر سابقا (لسكيرج) الذي يسكن المغرب الأقصى، وقد امتنع عن الإجابة. أعلموا بذلك سيدي ابن عليوة وأبرقوا لنا بغاية السرعة. ولكم أن تعينوا يوما آخر وأعلمونا لنتفق عليه- تاريخ التلغراف 19 سبتمبر 1927 الإمضاء الطيب العقبي.

ويقول: قد أرسلت هذه الكلمة وصورة التلغراف لتنشر "بالشهاب" فيطلع عليها الناس كافة كي لا يضلهم العليويون أو يلبسوا عليهم في أمرهم ما يلبسون والى الله تصير الأمور".

ولم تقع هذه (المباهلة) قط لأن العليويين كانوا يختلقون الأسباب لإحباطها كما أن الحكومة لا ترى من مصلحتها وقوع هذه (المباهلة) لعلمها بعجز من

تسائلهم عن مناهضة الحق، وجهلهم بأسرار الدين، وتجردهم من الضمير، فانهزامهم آنذاك انهزام لجهاز السياسة الاستعمارية وانهيار لهيمنتها على النفوس، وهكذا ظل العقبي ينتظر جواب خصومه، وما زال ينتظر إلى أن وافاه الأجل المحتوم يوم الأحد الماضي 22 مايو 1960 في سن يناهز الثمانين بعد مرض ألزمه ما يربو عن خمس سنوات. وذهب لمحكمة العدل يحمل في يمينه ملفا وفي يساره كتابا وشفتاه تردد الآية الكريمة "وآخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم...".

ولكن جواب العليويين في قصة "المباهلة" تلقاه الإمام ابن باديس بطريقة تلغرافية طريفة، وذلك بواسطة هراوة هوى بها أحد قرامطة ابن عليوه في ليل دامس على رأس الإمام ابن باديس من وراء باب داره. وحتى في هذه المباهلة القاتلة قد انتصر ابن باديس وهو الشيخ المسالم الوديع واستطاع أن يقبض على الجاني، وأن يتصارع معه حقبة من الزمن، ليجرد يمناه أخيرا من الخنجر المسلول الذي أعده العليوي خصيصا للإجهاز على ابن باديس بعد تدويخه بضربة الهراوة ولنترك الشاعر الفحل محمد العيد يقص علينا الواقعة في قصيدة نشرها في عدد 105 من مجلة "الشهاب"[1] :

حمتك يد المولى وكنت بها أولى — فيالك من شيخ حمته يد المولى
وأحطاك الموت الزؤام، بقوده — إليك امرؤ أملى له الغي ما أملى
فيا لوضيع النفس، كيف تطاولت — به نفسه، حتى أسر لك القتلا ؟
ونالك في جنح الدجى بهراوة — فأدماك بل أدمى الكرامة والفضلا
وأهوى إلى نصل بكف أثيمة — تعود أن يقضي بها ذلك النصلا

1 – كانت نهاية الحلقة العاشرة بقوله و إلى اللقاء في حلقتنا المقبلة حيث نقرأ عليكم بقية حديثنا والسلام عليكم ورحمة الله، أما بداية الحلقة الحادية عشر فقد كانت كالتالي: (أيها القارئ الكريم رأينا في حديثنا الماضي انتظار الشيخ الطيب العقبي جواب خصومه الطرقيين في قصة المباهلة لكن هذا الجواب تلقاه الإمام ابن باديس بضربة هراوة على يد أحد الأشقياء وقد أثارت هذه الحادثة الشاعر محمد العيد وذي هو ذا يقصها علينا في براعة وروعة ويقول:

فأوسعتها وهنا، وأوسعها قوى ... وأجهدتها عقدا، وأجهدها حلا
وكادت يد الجاني العلوي تعتلي ... يد الشيخ لولا الله أدركها لسولا
فوافتك بالنصر العزيز طلائع ... مباركة تسلى من الملأ الأعلى
وغادرك الجاني الشقي موليا ... وهل يسلم الجاني الشقي إذا ولى؟
وإن أنس لا أنسى الذين تظافروا ... على الفتك بالجاني، فقلت لهم مهلا
أليس من الأيمان أنك بيننا ... تعامل بالعدل الذي أغضب العدلا
وترضى، ولو عمن تبرم بالرضى ... وتسلى، ولو عمن أبى لك أن تسلى
وتحفظ حق من أراد بك الأذى ... وتنصر حق من أراد لك الخذلا

ولقد دفعت شاعرنا غيرته على الفكرة الإصلاحية إلى حد خوفه من أن تؤثر الحادثة على إيمان الإمام فيضعف في تأدية رسالته فقال يخاطبه في نوع من التشجيع والاستعطاف:

قدم يا ابن باديس كما كنت راشدا ... فإني رأيت الرشد يستأصل الدخلا
وجد بيمين الحق تعلو عليهم ... فإني رأيت الحق يعلو ولا يعلى
وأن لك قد مستك منهم بلية ... لذلك، فالداعي جدير بأن يبلى
جنايتك لا تأخذ بها الشعب إنها ... جناية أفراد ذوي همم سفلى
جنايتك لا تعرض على الشعب وافتكر ... بأدوائه. واجمع لأحزابه الشملا
ولا تأس فالتاريخ يا شيخ حافظ ... لأعمالك الكبرى، وآمالك الحلى
سيتلو على الأجيال شكرك مرحبا ... إليك وأبناء الورى سور تتلى

وما كانت محاربة الطرقيين لتقف في هذا الحد فقد فتحوا واجهة أخرى من الوشاية بمجلة "الشهاب" وصاحبها ابن باديس ولم تنحصر هذه المساعي الأثيمة في حدود الجزائر، بل تعدتها إلى كامل أجزاء المغرب العربي، فوقع تحجير دخولها

للمغرب بوشاية من عميد الطرقيين، وعميل الاستعمار، طريد البلاد العربية اليوم المسمى عبد الحي الكتاني، وإليكم شهادة تصريح عن صاحب جريدة فرنسية بالمغرب الشقيق تحت عنوان (صحف محجورة):

"نشرت جريدة "لوكوريي ماروكان" (البريد المغربي) في عددها 214 الصادر في 23 جويلية/تموز 1927 مقالا بقلم محررها "كاريط بوي" هذا تعريبه:

(وتلا تحجير عدد كبير من الصحف العربية المختلفة المصادر، وقد ذكرنا في عددنا الأخير التحجير الواقع على "جريدة البرق" و"مجلة الشهاب" وما طرقنا مسألتهما إلا بعد أن خاضت فيها جريدتنا "لافيجي ماروكان" و"ليكو دي ماروك" وقد أظهرتا فرحهما بذلك.

نحن لا نعرف "البرق" ولكننا نعارض ما أبدته الجريدتان من الكلام الباطل بدافع الحقد على "مجلة الشهاب" وقد اعتادت هاتان الجريدتان أن لا تنقلا من الأخبار إلا ما كان مثيرا للأفكار، فهل تثبتنا فيما تنشران ؟ هيهات أن تكون لهما هذه الصفة من النزاهة وهما تطمحان إليها.

"الشهاب" مجلة تطبع بقسنطينة أسست لمطالبة الحكومة بجعل نواب من مسلمي الجزائر بالبرلمان الفرنسي، لأنها ترى أن الحق يجب أن يعطي لكل من يؤدي قسطا وافرا من الضرائب، وأن يمكنه من حق التمثيل بالبرلمان، ثم إن تلك المجلة التي أسسها صحافي مقتدر، ألا وهو السيد عبد الحميد ابن باديس. خرجت في بعض الأحيان عن هاته الخطة كي تتصدى لمقاومة الطرق التي تقف عقبة في سبيل التطور والرقي بالجزائر والمغرب، لكن ويا للأسف رجال الطرق يعضدهم رجال الحكومة الفرنسية التي يظهر لها أن تكون منهم "حرفاء" — كلمات: Client حسب ما يقتضيه هذا اللفظ باللاتينية — إن ذلك يقلل تعبها ويسهل لها الوصول لمقاصدها. إن أرباب الطرق يعترضون بكل قواهم لكل جديد، وعللهم تماثل علل رجال "الفاتيكان" في هذه المسائل، والمسألة مسألة استيلاء ومسألة "فلوس". إن هذه

المقاومة في صميم الغموض الذي تعمل تحته طائفة تريد الاستيلاء على الأموال باسم الدين.

قبل الثورة الفرنسية كان رجال الإدارة، ورجال الدين يؤثرون تأثيرا سيئا في الأمة بكثرة الإلحاح عليها في الصدقات، وكانوا يلعبون دورا كالذي يقوم به اليوم رجال الطرق في إفريقيا الشمالية.

فمجلة "الشهاب" تحت رئاسة ابن باديس صاحب القلم شديد الوقع، تعترضها في طريقها التقدمي، هذه القوة المسيرة بالمصالح والغايات، نحن لا ننكر أن تلك القوة كانت لنا عونا فيما سلف... أما الآن فغايتها مقصورة على استعباد الشعب وتضليل أفكاره بالخرافات المنافية لروح القرآن. فالطرق هي أعظم عقبة تقف بإفريقيا في سبيل نشر أفكارنا، وآرائنا فهي تنافي روح الجمهورية، ومبادئ الديمقراطية، يبثها التعصب بين طبقات الأمة، ومحاربتها للتعليم. زد على ذلك أنها تتخذ ذلك التعصب وسيلة للاستيلاء على أرباب الحكومة حتى لا يلبثوا أن يعتقدوا أن نفوذهم متوقف على تأثير الطرقيين، يجب على النزيه أن يتخذ الوسائل إذا أراد أن يصرح بالحقيقة، ولا ريب أننا إذا أوضحنا للناس كيف يستغل الإنسان أخاه فإنما نقوم بواجبنا. نعم ليس هناك استغلال أفظع من الذي يكون باسم مذهب أو عقيدة، إن جريدة "السعادة" التي هي جريدة قلم الاستعلامات الأهلية نشرت كلاما معناه أن "الشهاب" منع من الدخول إلى المغرب بأمر من الجنرال "فيدالون" بعدما أشار بذلك المقيم العام مسيو "ستيق". وهذا غلط في الإخبار بالحقيقة تعمدته رصيفتنا، فهي لا تجهل قط أن عبد الحي الكتاني هو الذي قدم تقريرا للجنرال "دوشامبران" الحاكم بناحية فاس شأن الفاضل ابن باديس، و لم تدر هل أوقعنا في الغلط أو روت "السعادة" خبرها عن مصدر كاذب؟؟".

وتواصل الجريدة كلامها عن الكتاني فتقول:

وعبد الحي هذا هو نائب الطرقيين بفاس، وإن شئت قل سفيرهم ذو الرجلين القصيرين والبطن العظيم، أما اسمه فينطبق عليه غاية المطابقة، إذ معناه (عبد القبيلة)

أي الحي باللغة العربية، كيف لا والطرقيون بين سائر المؤمنين كقبيلة خصوصية أسست لجمع الصدقات والنذور بدعوى الإصلاح والكرامة والولاية؟؟.

وخلاصة القول أن الطرقيين أعداء المبادئ الجمهورية التي تتوق إليها كل نفس كريمة، وهم خدمة في ركاب الاستغلاليين، ولنا الرجاء أن مسيو "ستيق" الذي مازال يظهر لنا من حين لآخر علامات التبصر والاعتناء، سينظر إلى نظيرنا بعين العدل، وسيأذن لمجلته في الدخول للمغرب بعد أن تحقق أن كل ما زعموه في حق الشهاب محض زور وبهتان".

هذا ما نشرته جريدة فرنسية تصدر بالمغرب الأقصى "وشهد شاهد من أهلها" ولم يبق أدنى شك في أن الطرقيين بالجزائر كانوا مطايا يبلغ الاستعمار على أكتافها إلى ما يرمي إليه من إبقاء الطبقات الشعبية في ظلام الجهالة والعمى حتى لا تطمح لبعث قوميتها واسترجاع كرامتها[1].

1 - ختم المؤلف هذه الحلقة بقوله: (وموعدنا مع القارئ الكريم في حلقة القادمة لنواصل معه حديثنا عن مجلة الشهاب).

الفصل الرابع

مجلة "الشهاب" ومعركة الانتماء

صور صادقة عن حركة جيل

ما زلنا أيها القارئ الكريم[1] نوالي دراستنا حول مجلة "الشهاب" ونحن إذ نطيل في هذه الدراسة إنما نستعرض صورا صادقة عن حركة جيل كامل مليء بالأحداث والانقلابات، سواء كان ذلك في الميدان السياسي أو في الميدان الاجتماعي، أو في الميادين العلمية والثقافية، وإن الفترة التي عاشتها "الشهاب" بين سنتي 1925 و1939 لهي الفترة الحساسة في تاريخ التطور الجزائري. وهي المرحلة الخطيرة ولا نقول الحاسمة التي تصادمت فيها النزعات والآراء واشتبكت فيها التيارات المتباينة، واحتدمت فيها المعارك بين اليقظة والجمود، بين الصلاح والأوهام، بين الاستعمار والنزعة القومية، بين العلم والجهل، بين الفقر والأخذ بأسباب المنعة. بين الفردية والانعزال، بين فكر التكتل وتأليف الجماعات.

ففي هذه المرحلة نشأت الأحزاب السياسية، وتولدت المعركة الاستقلالية، وتأسست جمعية العلماء وتكون نادي الترقي، وبرزت جل الجرائد العربية بمختلف نزعاتها واتجاهاتها. وفي هذه المرحلة ظهر الاستعمار بوجهه السافر يتحدى الأمة ويواجهها بحرب صليبية سافلة. فيقيم مهرجانات الذكرى المئوية للاحتلال البغيض، ويدس المكائد بواسطة العملاء، ويناهض الحركات القومية. ويغلق المدارس الحرة، ويصادر الصحافة الصادقة، ويحل الأحزاب الوطنية، ويعتقل الأحرار، وينسج المؤامرات الوضيعة كمقتل المفتي كحول وغيرها.

1 - حافظنا على بداية الحلقة الثانية عشر، كما هي.

فليس إذن في باب الحديث الممل، إذا نحن تبسطنا في دراسة وافية عن مجلة "الشهاب" التي تعد من طلائع هذا العهد الخصب إذ من خلال هذه الدراسة يمكننا أن نأخذ فكرة صحيحة عن تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية بالجزائر.

لهذا رأينا- من الإنصاف للواقع التاريخي- بعد أن تحدثنا عن موقف الاستعمار من مجلة "الشهاب" أن نسوق نماذج عن أهم المواضيع الحية التي عالجتها المجلة في ذلك العهد...

عودة إلى نادي الترقي

كنا ذكرنا في بعض أحاديثنا السالفة أن نادي "الترقي" بالجزائر يعد وحده مرحلة من مراحل تاريخ المقاومة الجزائرية، حيث أنه كان يحتضن بإخلاص جميع الحركات التي تحتمي برعايته أو تتولد بين جدرانه. وقد نشرت مجلة "الشهاب" في عددها رقم 108 المؤرخ يوم الخميس 5 صفر سنة 1346 الموافق لـ 4 أوت /آب 1927 كلمة بقلم المرحوم الشيخ العاصمي، تعطينا بيانات دقيقة عن هذا النادي الذي بقي صامدا كالجبل في جهة العاصمة الجزائرية، يؤدي رسالته، ويواكب ثورتها المقدسة، حيث قد انفتحت أبوابه لإيواء حركة الاتحاد العام للشغالين الجزائريين سنة 1955-1956 حتى وقع أسيرا بيد الجند الفرنسي، إذ احتله الجنرال ماسو، واتخذه مركزا من مراكز الدعاية النفسانية، تحت إشراف مدام ماسو، وتحت حماية جنود المظلات، أسوة بأخيه في الكفاح وجاره "مركز حزب أحباب البيان" الذي أصبح مركزا للتعذيب في يد أعوان بيجار من جنود المظلات "وأسراب العصافير الزرقاء" و"العصافير الزرقاء" لقب أطلقه الفرنسيون بالجزائر على الخونة والعملاء الذين يعملون في صفوف بيجار، وقد ألبسوهم لباس جنود المظلات، إلا أنه يمتاز بلونه الأزرق حتى يتمكن جنود بيجار من مراقبتهم، إنهم ليسوا بالجنود، وليسوا بالمدنيين، ليسوا بالفرنسيين وليسوا بالمسلمين، فهم طابور خاص لوضعية شاذة، مغمورة النسب، ومشكوكة الأصل، وولد غير شرعي، كحالة المتجنسين بالجنسية الفرنسية في عرف السياسة الاستعمارية، أو كالمعلقة في عرف الفقهاء لا هي بالمزوجة ولا بالمطلقة.

قالت مجلة "الشهاب" عن نادي "الترقي" تحت عنوان (أعظم ناد بالجزائر.. أجمع مسامرة، ألقاها بالنادي الزعيم السلفي الأستاذ عبد الحميد ابن باديس، وأشعل خاتمة حلب بها الألباب العبقري السياسي الكبير الأستاذ أحمد توفيق المدني):

"للشعب الجزائري اليوم أن يبتهج بتأسيس ناد ضخم بعاصمة الجزائر باسم (نادي الترقي). وهي خطوة واسعة إلى الأمام، وإن أردنا الإيضاح قلنا بل هي ثورة، متى نظرنا إلى الركود الطويل أو الماضي الحافل بالغموض، أو إلى سبات مائة عام، وهي المدة التي أخذ فيها الاحتكاك بالمدنية الغربية يبعث بصريره هذه الأمة في سبات الأموات، وقيود الجهل والجمود. وبما أن النوادي وكثرتها وانتظامها على النسق البديع، هو الميزان الذي توزن به الأمم في رقيها وأخذها بأسباب الحضارة، كان من الميسور أن ينعت شعب الجزائر اليوم بأنه شعب دب فيه الشعور وأخذ في النهوض، والتخلص من ماضيه الحالك نظرا لتأسيس هذا النادي، وهو بفخامته وضخامته الفنية خليق بأن يكون زينة للعواصم، وتاجا وهاجا في جبين الحواضر، بل هو يستهوي الأفئدة، ويخلب الألباب بما حوى من مرافق كاملة، وأثاث نفيس وطنافس نقية، وزرابي مبثوثة، وموائد مرصوفة، وخزائن مصففة، وخمس قاعات واسعة بهيجة، أوسعها وأروعها البهو، أو قاعة المحاضرات المطلة على بطحاء الحكومة[1]. وكأن مؤسسيه الكرام ما اجتمعوا في إخراجه على هذا القالب الجميل الجذاب إلا ليعدوه للاضطلاع بأعباء عظيمة أكبر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هو دليل على أن شبيبة الجزائر تعتمد على الحقائق والإنجازات، وتستند على التفكير الرشيد، لا على مجرد الدعايات الفارغة.

لهذا فإن كل منصف لا يسعه اليوم إلا أن يقرن أسماء مؤسسي هذا النادي في سجل المجد بأسماء الأفذاذ الذين عملوا لإنهاض شعوبهم، فخلد لهم التاريخ أحسن أحدوثة وأجمل ذكرى. وقد أنجز هؤلاء السراة الجزائريون أعمالهم الجريئة بهمة ونشاط، سواء من الوجهة الأدبية أو الناحية المادية، وكل من استقصى قيمة

1 - بطحاء الحكومة هو الاسم القديم لساحة الشهداء.

بجهودهم الجماعي بفضل إخلاصهم، رأى من الأليق العدول عن تفصيل الجهود الفردية، وعن ذكر أسماء المؤسسين، لأن كلا منهم لا يرمي من وراء هذا العمل إلا إرضاء ضميره ووجدانه في خدمة شعبه، وبالأحرى تلبية صوت الواجب المقدس. إما من حيث مقاصد النادي فحسب الخبير أن يقتطف من القانون الأساسي للنادي هذه النبذة:

الفصل 2: القصد من تأسيس هذه الجمعية هو مساعدة المشاريع التمدنية، وذلك بالسعي في تثقيف مسلمي الجزائر علميا واجتماعيا، لذلك فالجمعية تبذل كل مجهوداتها للوصول إلى ما يأتي:

أولا- نشر التعليم العام والتعليم الصناعي.

ثانيا- مساعدة التجارة والصناعة والفنون.

ثالثا- مد يد الإعانة للفقراء.

ولهذه الجمعية أن تفتح محلا، أو عدة محلات للاجتماع حتى يمكن لأعضائها أن يتذاكروا ويتشاوروا ويتفقوا، وعليها أن تنظم دروسا، وتقوم بمحاضرات ومسامرات، وتمنح للتلامذة إعانات لإتمام تعليمهم، وتنشر النشريات، وتنشئ محلات للإرشاد، ومراكز للاسترشادات القانونية، وعيادات طبية مجانا للفقراء والمساكين، وأن تنشئ مكتبة جامعة ينتفع بها الشعب والتلاميذ والطلبة، ولها زيادة على ذلك أن تنشئ أي مشروع اقتصادي أو اجتماعي يوصلها إلى غايتها".

ثم يقول الشيخ محمد العاصمي:

"وصل العلامة الأستاذ عبد الحميد ابن باديس العاصمة، وألقى محاضرة بنادي الترقي في يوم 18 جويلية على الساعة السادسة بعد الزوال، تضمنت بيانا إضافيا عن منفعة النوادي، وتاريخ النوادي والجامع من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي، إلى اليوم.

ثم قام بعد ذلك كاتب القطرين (أي تونس والجزائر) الأستاذ أحمد توفيق المدني، وختم الندوة بكلمة خالدة، شعر الإمام بثقل مسئوليتها حتى تصبب جبينه عرقا، قال:

"إن الشعب أيها الأستاذ قد قلدك رتبة الزعامة الإصلاحية، فأقض بها راضيا عاملا متقدما نحو الأمام".

هنا ينتهي كلام الشيخ العاصمي، ولسنا في حاجة لتحليل نوع الرسالة التي يقوم بها هذا النادي على ضوء قانونه الأساسي، فإن ذكاء القارئ الكريم لكفيل بالقيام بهذه المهمة، واستخلاص الحقيقة التاريخية، ولم يقف هذا النادي في حدود العمل للجزائر، فقد قام بواجبه في نطاق المغرب العربي الكبير، حيث انعقدت في أرجائه مؤتمرات الطلبة المسلمين بشمال إفريقيا مثل، المؤتمر الذي انعقد بعاصمة الجزائر في صيف 1935 والذي اشترك فيها من تونس كل من الإخوان الشحي سليم المرحوم علي البلهوان، المرحوم الحبيب ثامر، المرحوم عبد الرحمن ياسين، ومن المغرب: الشيخ إبراهيم الكتاني والأستاذ عبد الخالق الطريس، ومن الجزائر سليمي فائح، مفدي زكرياء، أحمد فرنسيس، وغيرهم.

وكان نادي الترقي إلى جانب كل هذا سوقا قائمة للشعر والأدب، ومبعثا للقرائح ومصدرا للإنتاج الفكري، ولم يغفل شعراء الجزائر آنذاك عن التغني بهذا النادي[1].

نادي الترقي في قصيدة لمفدي زكرياء

مازلنا أيها القارئ الكريم[2] نواصل حديثنا عن "مجلة الشهاب" وقد نقلنا لك عنها[3] معلومات قيمة من نادي الترقي بعاصمة الجزائر، ومدى إسهامه في انبعاث

---

1 - اختتم المؤلف الحلقة الثانية عشر بقوله: (وموعدنا مع القارئ الكريم في الحلقة المقبلة لنقول له شيئا عن هذا النادي فإلى اللقاء، والسلام عليكم ورحمة الله).

2 - حافظنا على بداية الحلقة 13 كما هي.

3 - في النص الأصلي توجد عبارة (في الحلقة الماضية).

الحركات الإصلاحية والوطنية بالقطر الجزائري في فترة اليقظة الشعبية / والانطلاق الثائر نحو الأهداف القومية التي انبثق عنها حدث غرة نوفمبر 1954 وكنا في ميعاد معك أيها القارئ الكريم في هذه الحلقة للاستماع إلى القصيدة الدالية التي أنشدها الشاعر مفدي زكرياء إشادة بهذا النادي وتكريما للمؤتمر الثاني لطلبة شمال افريقيا المسلمين المنعقد بأرجائه سنة 1933 وإليك هذا القصيد الموعود:

على منبر النادي أحيي بني النــــادي   لتستمع الدنيا روائـــع إنشادي

واملأ أكـــواب النجـــوم سلافـــة   من الشعر جبريل بها رائح وغـــاد

ويتلو فم الأجيال فرقان حكمتـــي   وإعجاز آياتي على فتيـــة الضـــاد

وتلقيـــه أمـــلاك السماء رسالـــة   لإفريقيا، يسطع بها نورها الهـــادي

ســـلاما بني فـــاس وأكباد تونـــس   وأبناء تومـــرت، وأشبـــال حمـــاد

سلاما بني الفصحى وحـــراس جنـــة   على بابها، رضوان علم، وإرشـــاد

نزلتـــم على النادي الرحيـــب وإنـــه   لمعقل أبطـــال، ومربـــض آســـاد

أتى بكـــم حـــادي العروبة، مرحبا   بموكـــب أبناء العروبة والحـــادي

وجئتـــم تناجـــون الحياة كريمـــة   مناجـــاة صدار عليهـــا ووراد

رعى الله والتاريـــخ والعلم والحجـــى   قـــرائح من تبر هنـــاك، ومن زاد

وأكـــرم أرواح الشـــبـــاب فإنـــها   رسالة آباء كـــرام لأحـــفـــاد

وأيـــد للعـــلا عزائـــم دونـــها[1]   إلى طلـــب العليا عزائم أطـــواد

ســـلاما بني العلـــم الشريف، تحيـــة   من الله والأملاك ياعترة الحـــادي

كفى ما جرى يا قوم بالعلم فانهضوا   ورووا بعلم غلة الوطن الصـــادي

1 - هكذا في النص [illegible]

كفى ما جرى من ذلـــة واستكانـــة   وساحق ويلات وماحق أنكـــاد

إلام الرضا بالـــذل، والعلم صـــارخ   بنا نعتلي للعـــز مقعـــد أسيـــاد؟

ألم تك أولى الناس بالشمس، إنـــها   من الشرق ضاف نورها ساطع باد

نهوضا بني الشرق الكـــرام ورحمـــة   لذلة أوطـــان، تـــدق كأوتـــاد

نهوضا بني إفريقيا مـــن سباتـــكـــم   فإن عيـــون الحادثـــات بمرصـــاد

تناديكم الأجـــداد من الثـــرى[1]   فلبـــوا إلى العلـــياء دعوة أجـــداد

بني المغرب الجبار جـــودوا بنظـــرة   إلى لغة، أصبحـــت بلبلها الشـــادي

ولا بدع إن ملكت طوعا رقـــابها   وصرفته في آمالـــها كـــف نقـــاد

وسقـــت سفيني فوق لجـــة بحـــرها   وألقيـــت دودي ضلعـــها من رواد[2]

وكللت من شعري جبيـــن جمالـــها   وأرغمت من أبنائها أنف حسادي

ألا فلتعش وليحي نادي شبابـــها   فقولوا معي آمين: يا فتية النـــادي

"الشهاب" وموقفها من التجنيس

ولم تكن مجلة "الشهاب" لتقتصر في كفاحها على الدعوة للإصلاح ومناهضة البدع والأوهام، بل كانت ميادينها النضالية متنوعة، فلم تهمل الجانب الاجتماعي، ولا الناحية السياسية وتحطيم برامج الاستعمار الرامية قبل كل شيء إلى تجريد المسلم الجزائري من كل شعور قومي، وقطع الصلة بينه وبين الأجداد والأمجاد، وذلك بالعمل على إغرائه بالتجنيس، واستدراجه إلى الفرنسية والاندماج. فيما الحقوق السياسية لا يتمتع بها إلا من كان فرنسيا إما أصالة أو تجنيسا على أن

1 - هكذا في الأصل، ولكي يستقيم الوزن يكون الصدر كالتالي: وتناديكم الأجداد من طيب "أو تحت" الثرى [illegible]

2 - هكذا في الأصل والمعنى غير واضح

التجنس بالجنسية الفرنسية لا يتمتع هو الآخر بكامل الحقوق، فقد وضعوه في وضعية خاصة تتأرجح حسب المصالح بين فرنسية وإسلامية فهو كالوليد غير الشرعي.

والجدير بالملاحظة هو أن الشعب الجزائري المتمسك بإيمانه وقوميته لم ينخدع ببروق التجنيس الزائفة فكانت نسبة المتجنسين بالجزائر باعتبار عدد سكانها أقل من نسبة المتجنسين في البلاد الإسلامية الأخرى سواء في المغرب العربي أو بالشرق وذلك رغم وسائل الإغراء الخبيثة، ورغم وسائل الترغيب والترهيب المختلفة، و"الشهاب" ساهمت بقسط وافر في معركة التجنيس، وكتبت فصولا متتابعة، ننقل منها نموذجا للقارئ الكريم من عددها الصادر بتاريخ 9 ربيع الثاني سنة 1346 الموافق 16 أكتوبر سنة 1927 قالت في مقال بعنوان "مسألة التجنيس والضجة الصحافية الأخيرة":

"غير لائق أن نحرم قراء الشهاب في الاطلاع على ما كتبته الجرائد الفرنسية في مسألة تهمهم، ليطلعوا على الفكر العام الفرنساوي فيها:

فأول فائدة نستنتجها في الضجة الصحافية القائمة في الموضوع هي أن الفكر العام الفرنسي في المسائل المتعلقة بالأهالي ناله تغيير عجيب بالنسبة لما كان فيه في الأعوام الفارطة، فإن نحن تذكرنا ما كان يكتب في المسألة الأهلية، والآراء التي كانت أساس الخوض فيها، دعانا الإنصاف إلى أن نقول: تلك مدة قد مضت، أفكار قد خلت، وسياسة قد انعدمت، فلنحي في الفكر الجديد، ولكن مع كثير من اليقظة والاحتراز.

كان مسيو (اندري سرفي) في الجريدة اليومية القسنطينية لا يعترف للمسلمين نحو فرنسا إلا بتعصبهم الديني، ورغبتهم في الثورة، وهو صاحب التآليف المشهورة في التحامل عليهم، وعلى معتقداتهم الدينية، فصار اليوم نفسه في جريدته التي تصدر بعنابة يبحث في التفاهم والتآخي، و يرى أن للجزائريين حقوقا يجب أن

ينظر إليها بجانب كبير من الاهتمام والاعتبار، وأن القطر الجزائري لا يحيا بحياة عنصر واحد وإهمال العنصر الآخر، بل لا يمكن إلا بمشاركة العنصرين في الثمرات الناتجة عن مشاركتهم في الأتعاب.

كما كان مسيو (بايلاك) بجريدة "صدى الجزائر" لا يرى في النخبة المتنورة المتخرجة من المدارس الفرنسية، والكليات إلا خطرا على فرنسا في هذا الوطن، وعلى سياستها ونفوذها فصار اليوم نفسه في جريدته الجديدة وهي (الصحافة الحرة) يدعو إلى الاعتناء بتلك النخبة ويرى أن لها حظا، وأنها جديرة بالمشاركة مع الفرنسيين في الآمال السياسية المتعلقة بالجزائر.

وكان مسيو (جولي) النائب المالي على قلة لا يرى شيئا إلا في مرآة الاستعمار، فصار اليوم يعلن أنه منذ زار قبر أبيه الذي مات أثناء الحرب الكبرى، ووجده مدفونا بجانب قبر جندي مسلم مات أيضا في صفوف القتال، تبدلت أفكاره، ووجد في قلبه إحساسات نبيلة نحو المسلمين الجزائريين لم يكن قد شعر بها من قبل.

هكذا تحولت الأفكار نحو قضيتنا، غير أن سماء القضية الأهلية لا تزال ملبدة بالغيوم، فلنرجع إلى الحديث عن المعركة الصحافية التي هي موضوعنا، وبعدها تتمايز الأشياء.

ذكر مسيو (مورينو) في جريدته "ريبيبكان" أن مسيو (طومسون) تلقى بتعجب وغضب من شخصية معتبرة، له عزم على طلب تجنيس جماعي لنخبة المسلمين، عددها نحو عشرة آلاف، وذلك التجنيس يكون مع الاحتفاظ بشريعتهم الإسلامية في الأحوال الشخصية، وتجعلهم متضمنين مع الفرنسيين في قوائم الانتخابات مع كل الحقوق.

نشر مسيو (مورينو) هذا النبأ ثم حمل على الشخصية المعتبرة المجهولة، وعلى فكرة التجنيس الجماعي، وصرح أن الجزائر أصبحت في خطر ودعا أبناء جنسه

الفرنسيين للتحزب معه ضد الفكرة القتالة لسمعة فرنسا ونفوذها، وصارت جريدته تصدر كل يوم ملطخة بحروف غليظة: إن الجزائر في خطر، وهكذا يحسدوننا على الموت.

هم يحسدوني على موتى فوا عجبا حتى على الموت لا أخلو من الحسد

ودون حجج هؤلاء باختصار:

1) لا يمكن تجنيس نخبة من المسلمين، من دون خروجهم عن مبادئ شريعتهم، لأن هذا التجنيس يجعلهم سيطوايان (أي مواطنين) من طبقة عليا. حيث لا يمكنهم تعدد الزوجات وتفضيل الرجل عن المرأة في الميراث، وتزوج البكر جبرا، دون الرضى، في حين أن الفرنسيين محرومون من هذه الامتيازات. إنها مخالفة للقانون الفرنسي، وهنا يمكن أن نعلمهم، فهم معتبرون هذه الخصوصيات امتيازات، ولا يتورعون في مكان آخر عن تسميتها بالهمجية.

2) إن تجنيس عدد من المسلمين، يقدرون اليوم بعشرة آلاف، قد يبلغ عددهم في المستقبل مئات الآلاف، فيكون خطرا على العنصر الفرنسي، وإن مشاركتهم في الانتخابات تجعلهم يزاحمون الفرنسيين في مجالس النيابة.

3) ومن جملة الجرائد التي أجابت مسيو (موريتو) جريدة تصدر بعنابة وهي "رفاي بونوا" أعلن صاحبها أن الشخصية المعتبرة المجهولة التي ينسب إليها فكرة تجنيس طائفة من الأهالي المسلمين مع احتفاظهم بالدين الإسلامي، إنما هو مسيو (فيوليت) الوالي العام، وذكر أن فيوليت كان قد أعرب عن أفكاره أثناء محادثة وقعت بينه وبين مكاتب لجريدة تونسية، ثم علقت "الشهاب" قائلة لسنا ندري لما يتصادم هؤلاء في شيء لا يعنيهم، ولا يعنينا؟ فما لنا وللتجنس؟؟ بوصفنا مسلمين جزائريين فما أغناها وأغنانا، وسنعود لهذا الموضوع في أعداد مقبلة ونشبعه درسا وتمحيصا."

بهذه الجملة ختم الكاتب فصله والملاحظ أن الفصل منشور بدون إمضاء، مما يدل على أنه من إنشاء قلم التحرير وعلى أصح تعبير بقلم الأستاذ عبد الحميد ابن باديس [1].

"الشهاب" والحملة ضد الاندماج

كانت مساعي الاستعمار الفرنسي ترمي إلى سياسة التخدير والتنويم سيما بعد أن لاحظت في الشعب الجزائري بوادر اليقظة، والطموح إلى حياة كريمة، نتيجة حتمية لاشتداد الظلم وتفاقم العسف، والتحدي السافر لشعور الجزائريين بإقامة الاحتفالات المئوية، تلك الاحتفالات التي تدل بصفة واضحة على فساد ذوق الفرنسيين وحماقة سياستهم الرعناء وليس أقدر من الفرنسيين على ابتكار الصيغ الجديدة والتراكيب اللغوية العجيبة وأفكارهم الهدامة، وإخفاء ما فيها من سموم قاتلة وراء الألفاظ المعسولة، وكانت أنشودة ذلك العهد هي الاندماج الجزئي أي إدغام (الفائقين) في الجنسية الفرنسية إدغاما جماعيا وفصل هؤلاء الفائقين المحظوظين عن بقية الشعب احتيابا للعدوى تلك الأنشودة التي وضع كلماتها وقام بتلحينها في آن واحد (موريس فيوليت) وعزفتها المجموعة الصوتية المتركبة من أفراد الجبهة الشعبية وأنصارها.

إلا أن هذه الدعاية لهذه الفكرة وتهيئة الجو لها بدأ سنة 1931 أي إثر الاحتفالات المئوية مباشرة وذلك لتحويل المكول (العقول) الجزائرية عن التفكير في الجزائر.

وكانت فكرة الاندماج حديث الصحف آنذاك، سواء منها الفرنسية الاستعمارية، أو القومية، حيث خاضت مجلة "الشهاب" هذه المعركة في طليعة

---

1 - وختم المؤلف الحلقة الثالثة عشر بقوله: (وسنرى في حلقتنا المقبلة وهي الأخيرة عن "الشهاب" كيف كان رأي الشهاب في مسألة الاندماج. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.)

صحف ذلك العهد. وكتبت فصولا اضافية في الموضوع، نرى من الفائدة أن ننقل للقارئ الكريم نموذجا منها حتى يكون إلمامه بسياسة ذلك العهد كاملا.

نشرت الشهاب في عددها المؤرخ بشهر نوفمبر/ تشرين الثاني سنة 1931 الفصل الآتي بقلم التحرير فقالت: تحت عناوين:

"الاتحاد والاندماج"

"السياسة المنتجة والسياسة العقيمة"

"رب أخ لك لم تلده أمك"

(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا).

"هذا الوطن الجزائري تعمره اليوم أمتنا، الأمة الجزائرية الأصيلة، والأمة الفرنسية الطارئة، وطوائف من أوروبا. والمصالح المشتركة والحاجات المتبادلة ومواقف التناصر في السلم والحرب المتكررة، ربطت بين الأمتين برباط من الود وجعلت بينهما لحمة أخوة على تباين الأصل والنسب، ورب أخ لم تلده أمك، ولا زال العقلاء من الأبناء يعملون على تقوية ذلك الاتصال، ويسعون لتوفير أسبابه، ولا يزالون يلقون فوزا في سعيهم، ونجاحا في عملهم، رغم كل ما يعترضهم مما يكسر قلب الجزائري، ويخدش وجه تلك الصلة من إجحاف بحقوقه في مثل العسكرية والأحكام الاستثنائية وأقوال يسمعها حتى بعض الرجال الموالين كالتي يتمضمض بها مسيو (كيتولي) السيناتور هذه الأيام من دعاية (بروباغندا) لمنتخبيه ليحملهم على انتخابه بها.. ونجاح أولئك العقلاء وفوزهم إنما كان مع هذا كله لأن الشعب الجزائري شعب هادئ مسالم يقدر الجميل، ويملكه الإحسان، وهو يرى نفسه- عن حق ويقين- أنه قد أسدى إلى الراية الفرنسية جميلا، وقدم إليها إحسانا عظيما بالدفاع عنها، والموت لحتها، وإراقة دماء الأولياء من أبنائه لنصرتها، فهو يعتقد أن هذا الإحسان وهذا الجميل لا يذهب عندها، فوضع كل ثقته فيما

يصير لدعوة أولئك العقلاء وينتظر بصبر وأناة تحقيق الجزاء، معرضا عن ذلك الإجحاف، متصامما عن تلك الأقوال ونعم ما فعل.

يقسم العقلاء الدعاة إلى الاتصال إلى قسمين اثنين: دعاة الاتحاد، ودعاة الاندماج. فيرمي أولئك إلى محافظة الجزائري على جنسه ولغته وجميع مقوماته مع أخيه الفرنسي تحت راية واحدة في مواطن الحياة ومواطن الموت، ويرمي هؤلاء إلى طرح جميع مقوماته واندماجه في الجنس الفرنسي.. تلك سياسة الاتحاد، وهذه سياسة الاندماج ولكل أنصار.

ليس الترجيح بين إحدى السياستين بالأمر العسير، فإن المعقول من العلم، والثابت في التاريخ، والمشاهد في الواقع، يقضي بعقم سياسة الاندماج، وفشلها هو نجاح سياسة الاتحاد وإنتاجها، فقد فطر الله الخلق شعوبا متباينة كتباين الأفراد، ومرت على كل شعب ظروف وأحوال خاصة في قرون كثيرة زادت ذلك التباين رسوخا ووضوحا يستحيل معها اندماجها في بعضها. ولكنه لا يمنع من تقاربها لتتحد وتتعاون على النفع المشترك بينها وبين ذلك كله. شأن الأفراد وتواريخ الأمم شاهدة بنفوذ هذا الناموس في الأجيال ثم الواقع المشاهد هو جوهر الاتحاد بالفعل بين الأمتين وظهور ثمراته وتأييد دعاته وكثرتهم خصوصا في الشعب الجزائري وترى الفشل في سياسة الاندماج وعقمها. فالمتجنسون من الجزائريين قليلون جدا جدا في الخمسة ملايين، وترى النفور باديا من الشعب الجزائري لدعوة الاندماج ودعايتها ولو علم منهم حسن نية.

هذ (حان حيليا) لا نشك في إخلاصه للقضية الجزائرية وخطبه ومقالاته أصدق شاهد على ذلك وهو -عن حسن نية- من دعاة الاندماج، وما علم كتاب الأمة هذا حتى هبوا لإنكاره عليه في ذلك معربين عن فكرة الشعب، ونريد أن نثبت هنا قطعة مناسبة من مقال جاءنا من شاب ناهض تنديدا بسياسة الاندماج قال:

يكن ما أراد لنا (م. ميليا) من ترك شخصيتنا والاندماج في "العائلة الكبيرة الفرنسية" ليس هو بالأمر الحديث العهد حتى لا يجد أنصارا فهنالك من استهواهم هذا المبدأ فأسسوا جمعيات تحث على التجنيس وأنشئوا مجلة باللغة الفرنسية تدعو إلى تحقيق مبدئهم مرتكزين في ذلك آراء يكسونها لباسا علميا ويخرجونها للناس كأنها حقائق مسلمة، من لم يجر عليها في حياته الراهنة قضى على نفسه بالاضمحلال لا محالة.

وهذه الفكرة وإن ملأت رؤوس أصحابها وبذلوا الجهد في تحقيقها فأنا لا أعتقد بإمكان خروج ثمرات للوجود، وإليك السبب:

إن في أمتنا صفات وكنوزا معنوية كامنة في نفوس أفرادها كمون النار في الزناد، وأخلاقا تميزها عن غيرها وتجعل لها شخصية بارزة على حدة يستحيل أن تزول.. أو تزول الأمة نفسها.

وإن تلك الميزة حتى ولو بقيت مطوية في البصر، في سكون وجمود، إلا أنها لا تموت، فإذا أتيحت لها فرصة ظهرت.. تلك الميزة، وتلك الشخصية كم في سالف الأمم من أرادها على الاندماج فلم تترك نواياه إلا حديثا للسمر، والروح الجزائرية باقية كما هي، ما أشبهها بطبيعة أرضها: تهطل عليها الأمطار وأمواه تكاد تعيد الطوفان فتفيض منها الشعاب والوديان وتغمر المياه البطاح والانجاد وترغو على سطحها الأمواج وتزبد، ثم إذا طلعت الشمس واخترقت السحب بأشعتها النارية جففت الخالي والعامر فلا ترى فيهما إلا أثر السيل وبعض الخدوش لا تكاد تذكر.

إن من يحلم بالاندماج، ومن يعمل لتحقيقه في هذه البلاد يجهل نفسية الجزائري، وغاب عن ذهنه أنه المثال الأعلى في العض بميزته من أن تدمج في غيرها وأن الطبيعة الغالبة عليه: إنه المحافظ الذي لا يسمح ولو بجزء من قوميته وعوائدها وتقاليدها وشعائرها ومعتقداتها وعرفانها وإحساسها ونزعاتها وطرق تخيلاتها وتفكيرها وكل ما نطلق عليه لفظ "الشخصية" وهذه المحافظة هي السر في بقاء جنسه رغم الكوارث السافة الجبال.

أسأل المؤرخ الفينيقي أو الروماني، أو العربي، أو التركي، أنك لا تجد وصفا للجزائري إلا واحدا في كتب أولئك الأقوام الغابرين: وصف لا يزول: محافظ إلى الأبد؟

كيف لم يتمكن الرومان، وهم من ثبتت لهم قدم في هذا الدار، من إدماج الجزائري ولم يكن إذ ذاك -فيما نعلم- آثار مدنية سابقة أو ديانة صحيحة تحول دون الوصول به إلى تلك الغاية؟

أفبعد أن جاء الإسلام وغرس في نفس الجزائري ذلك الأثر الخالد، يتقدم (ميليا) وأصحاب فكرة الاندماج ليبلغوا به إليها؟

وليس أعجب من أمر م. (ميليا) إلا أولئك الشبان متخرجو مدرسة المعلمين- أو طائفة منهم — وفيهم المتغور العارف بأخلاق الأمم و"بسيكولوجيتها"- كما يقولون- يثقون بإمكانية تحقيق فكرة الاندماج ويعلمون جهدهم في الوصول إلى ذلك ولم يعلموا أن الشعب يسخر بأحلامهم ويهزأ بأمانيهم. أبعد أن توثقت ميزته وبعثت فيه من العصور روحا جديدة وجعل يشعر بكيانه- تريد شرذمة من الخياليين أن تدحره دحرا وتقلبه بطنا لظهر طمعا في فائدة مادية بحتة؟ والإنسان مهما كانت جنسيته فهو -غالبا- يؤثر الاحتفاظ بقوميته على كل مغنم، حل من حل.

إلا أن نظرية الاندماج يصعب بل يستحيل تحقيقها، ومن الأسباب في ذلك- الأثر العميق الخالد الذي أبقى الدين الإسلامي في نفس الجزائري كما قدمنا: وهو عمل ثلاثة عشر قرنا ونيف تنوء بمحو أثره جهود أجيال طوال- هو بناء لا تنحت منه الموجات الخارجية إلا بقدر ما ينال الشاطئ من البحر في مده وجزره: تأتي الموجة بسرعة الريح كأنما سيرت الجبال فما تدنو من الشاطئ إلا وهي مخففة من غلوائها خافضة من كبريائها حتى تصير كطريق معبد فتلمس الصخر لمسا وتعود أدراجها مشمرة أذيالها، والصخر بان بطاولها في سكونه الرهيب وسكونه العجيب يحدث عن الدهور المنصرمة غير حافل بالحوادث الحاضرة التي تتألب عليه ولا يعبأ بحنق البحر وبجرته".

قد أعرب هذا الشاب الفاضل عن فكرة عامة وحقيقة مشاهدة نود أن يعلمها الذين يحبون الخير للجزائر، فيعدلوا عن سياسة الاندماج العقيمة والتي تلقى كل معارضة من الأمة وتزلزل ثقتها بالدعاة إليها ويعملوا معنا -لخير الجزائر وفرنسا- على سياسة الاتحاد المثمرة التي تجعل من الأمتين أخوة متعاونين تحت راية المحبة والسلام.

ولنحتفظ برأينا الخاص في هذا الموضوع مكتفين بعرض الفكرة السائدة في ذلك العهد بدون تعليق وبدون سبق للظروف وتطورات الزمن.

ولنترك القارئ يستخلص النتائج على ضوء المقارنات في كنف الأحداث[1].

"الشهاب" وأبطال المغرب العربي

أيها القارئ الكريم حدثناك في حلقاتنا الماضية عن كفاح مجلة "الشهاب" في الميدان الداخلي، سواء الاجتماعي أو مقاومة الاستعمار في ميدان التجنيس والإدماج، وغير ذلك من المشكلات التي اعترضت المجلة في ذلك الوقت. و"للشهاب" جهود أخرى فهي ما كانت لتحصر كفاحها في الميدان الداخلي فحسب بل تناولت بالبحث أهم القضايا الإسلامية في المغرب العربي والمشرق العربي، وساهمت في نشر أحداث الكفاح العربي البطولي، سواء كان مسلحا، أم سياسيا في جميع البلاد العربية، وعلى سبيل المثال ننقل للقارئ الكريم نبذة وجيزة من فصل نشرته المجلة في عددها لشهر نوفمبر/تشرين الثاني 1931 بقلم كاتب الشرق الأكبر شكيب أرسلان عن الزعيم الليبي الشهيد: عمر المختار. فقالت تحت عنوان:

"عمر المختار لم يكن ثائرا على حكومة شرعية بل كان مجاهدا عن وطن مغصوب بالقوة"

1 - جاء في ختام هذه الحلقة 14 ما يلي: [illegible] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جاء فيه: "إن الشهيد عمر المختار هو من أعظم رجال هذا العصر، ومن تتزين بسيرته صحائف التاريخ العام، فلا يماري في ذلك أحد ...

منذ شنت إيطاليا غارتها الغادرة على هذا القطر الطرابلسي السيء البخت، أي منذ عشرين سنة تامة، وعمر المختار واقف في وجهها، بل واقف وقفة الأسد وفي مقدمة المجاهدين.

عشرون سنة مرت على غارة الطليان على طرابلس وبرقة وعمر المختار متقلد سلاحه يناضل عن وطنه ودينه نضالا نادر المثال، يقاوم بوسائله القليلة الضئيلة - وهو من كل الجهات محصور - دولة عدد سكانها اثنان وأربعين مليونا وعندها من الأعتاد الحربية ما لا يقل عن أعتاد أكبر دولة في العالم.

كم وقعة شهد عمر المختار في هذه (20) سنة للطليان؟

الجواب على هذا متعذر وربما يعرف ذلك المجاهدون من أهل وطنه، وربما لا يعرفونه كله لأن المجاهدين قد يعرفون شيئا من وقائعه في مكان ويجهلون غيرها في مكان آخر، والسابقون الأولون منه قد استشهدوا أو ماتوا فلا يعرفون ماذا فعل عمر المختار من بعدهم، واللاحقون المحدثون قد عرفوا وقائعه الأخيرة ولم يعرفوا وقائعه السابقة. وهو قد كان دائما على قدم الجهاد لا ملل ولا فتور ولا وهن ولا عجز. ولقد روى مراسل "جريدة اللطان" الذي أنفذته هذه الجريدة عمدا إلى بنغازي منذ نحو شهرين لتوافيكم بأخبار عمر المختار: إنه منذ عشرين سنة لم يخل يوما واحدا من جهاده ضد الطليان، وأنه قد تجاوز الثمانين وهو لا يزال يقضي أكثر وقته على ظهر حصانه.

فعمر المختار هو من رجال هذا العصر، ومن أكبر ربطان الإسلام بلا نزاع، ولا مندوحة من تدوين سيرته وتقييد ما يمكن تذكره من وقائعه التي تفوت الحصر، وذلك في كتاب خاص مرسوم باسمه ينشر في جميع العالم الإسلامي فتتلقى منه

الناشئة الإسلامية الدروس اللازمة في البسالة والصبر والثبات والإخلاص وسائر الأخلاق العظام التي لا يصعد المسلمون إلى الذروة، بعد هذا الانحدار الذي انحدروه، إلا بها.

وإذا خرج الأدباء العالمون بأخبار عمر المختار كتابا كهذا بالعربية أسرع في ترجمته إلى اللغات الأوروبية وفي ذلك معنى سياسي كبير لا يخفى على أحد، فإن تاريخ هذا البطل عبارة عن احتجاج مجسد من الأمة الطرابلسية على ايطاليا المعتدية الغاصبة.

ولم يكن عمر المختار رجل حرب فقط، بل كان رجلا حكيما خبيرا بسياسة قومه مطلعا على أحوال وطنه، كان العبقري الأكبر في شجاعته وصبره وشدة إيمانه وكأنه كان صحابيا كبيرا عاش في هذا القرن. وقد استشهد ابنه وابن أخيه وكثير من أهله في هذه الحرب وأخيرا ختم الله له بالشهادة حتى تتم محاسنه في الدنيا والآخرة.

عرفته يوم كنت في طرابلس سنة 1911 ميلادية، وكنت يومئذ في معسكر أنور باشا في عين منصور بظاهر "درنة" وكان الشهيد آنذاك من جملة مشائخ الزوايا الناهضين القائمين بأمر الجهاد لكنه كان مشارا إليه بالبنان- من بينهم- في شدة إقدامه وسعة بصيرته في أمور الحرب وكان أكثر تعويل السيد السنوسي عليه في اقتحام لظى الوقائع رحمه الله تعالى وجازاه خيرا.

ولم تقع بيني وبينه مكاتبة إلا منذ شهر بعد أن كتبت وقائع عن فظائع الطليان في طرابلس وبرقة وأحدث نشرها في الخافقين ما أحدثه من تأثير، وأفهمت دول الاستعمار أن الإسلام حي لم يمت وأن الآمال التي عندهم في القضاء عليه بعيدة على أن تتحقق، فظهر أن السيد عمر المختار اطلع على تلك المقالة فشفت غليله كما شفت غليل الأكثرين، وبعث إلي بالكتاب الآتي:

بعد السلام الأتم، والرضوان الشامل الأعم، ورحمة الله وبركاته، قد قرأنا ما دبجه يراعكم السيال من فظائع الطليان، وما اقترفته أيديهم الأثيمة من الظلمان، بهذه الديار، فإني وعموم إخواني المجاهدين نقدم لسامي شخصكم (مقامكم) خالص الشكر وعظيم الممنونية وكل ما ذكرتموه عما اقترفته أيدي الإيطاليين هو قليل من كثير وقد اقتصدتم كثيرا، وإما لو يذكر للعالم كل ما يقع من الإيطاليين لا تكد آذانا تسمع لما يرونه من استحالة وقوعه، والحقيقة والله وملائكته شهود أنه صحيح، وإننا في الدفاع عن أوطاننا وديننا صامدون، وعلى الله نصرنا متوكلون، وقد قال تعالى: (لو كان حقا علينا نصر المؤمنين).

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

في ذي الحجة سنة 1349 هـ.

وهكذا راح أمير البيان يدحض بدافع الحجج ووثيق المستندات التاريخية مزاعم الاستعماريين الذين يحاولون تبرير اغتيال عمر المختار بوصفه رئيس عصابة، وختم حديثه الطويل الممتع المليء بالشواهد التاريخية فقال:

"فزعم إيطاليا أن عمر المختار رحمه الله زعيم أشقياء بطشت به السلطة وعاملته بموجب القانون ليس فيه ذروة من الحق، وسيبقى دم عمر المختار ورفاقه المجاهدين وصمة في جبين إيطاليا وإن كانت مغترة الآن بقوتها مستخفة بالعالم الإسلامي فسوف يأتي زمان تعرف فيه إيطاليا عاقبة غرورها، تتعلم أن المسلمين لم يموتوا وأن حقهم لن يضيع وأن الدهر أطول من أهله".

جونيف 30 ديسمبر 1930

جناية على حرمة الصحافة:

وقبل أن نختم حديثنا هنا عن "الشهاب" المكافحة لا يسعنا إلا أن نبرز ظاهرة نبيلة لا يمكن لنا أن نهملها، وهي وإن دلت على شيء فإنما تدل على مدى اتساع

الأفق الفكري، وعلى منتهى السمو الخلقي الذي يتسم به مسير قافلة "الشهاب" ومحرر فصول الشباب، وهذه الظاهرة تتجلى في الموقف التضامني إزاء الاعتداء القطيع الذي نزل بمدير جريدة تناهض مناهج "الشهاب" وتحارب فكرة "الشهاب" فالمدير هو "مامي إسماعيل" والجريدة هي جريدة "النجاح" ومهما تكن الفوارق بين جريدة "النجاح" و"جريدة الشهاب" فإن الوفاء بمهنة الصحافة والإخلاص "لصاحبة الجلالة" يفرضان على "الشهاب" وعلى مدير "الشهاب" أن يكتب ما يأتي:

اعتداء فظيع وتوحش شنيع:

"بينما كان زميلنا الصحافي الشهير السيد مامي إسماعيل رئيس تحرير صحيفة "النجاح" الغراء ماشيا بقرية أم البواقي من وطن الحركتة إذا بشقي يضرب بهراوة على أم رأسه وفر هاربا، فبادر السيد مامي إلى طبيب عين البيضاء ومن لطف الله إن كانت الضربة غير مهلكة، وقد حصل له اليوم تمام العافية، وأما الجاني فقد قبض عليه ومازال منكرا لفعله رغم وجود شاهد عليه، فنحن نبدي أسفنا الشديد لما لحق زميلنا العزيز مشاركين له في المصيبة التي هي جناية على حرمة الصحافة مهنئين له بالسلامة، و راجون أن ينال الجاني ما يستحقه من العقاب حتى يرتدع أمثاله من المعتدين على رجال الصحافة المحترمين عند جميع الأمم."

ولعلنا قد استوفينا الحديث عن مجلة "الشهاب" المكافحة، وأعطينا للقارئ الكريم فكرة واسعة عن أسلوب الكفاح القلمي في ذلك العهد، ونمط السياسة الاستعمارية التي وإن اختلفت بعض الشيء في الأساليب، فهي متفقة في الأهداف مهما تقدمت العصور[1].

---

1 - [illegible] 15 [illegible]

الفصل الخامس

صحيفة "المنهاج" ومعركة التحرير العربية

تطبع بالقاهرة وتوزع بالمغرب العربي

من الصحف الجزائرية التي قامت بدور مشرف في فجر اليقظة القومية بالجزائر، مجلة "المنهاج" . وقد أصدرها مؤسسها العلامة الشيخ أبو إسحاق إبراهيم إطفيش في أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1925 وكانت تطبع بالقاهرة، وتوزع بالمغرب العربي وجميع أقطار البلاد العربية، تعالج قضايا المغرب العربي والجزائر خاصة، وتخصص قسما كبيرا من صفحاتها لمعالجة القضايا الإسلامية العامة. وكانت صادقة اللهجة، سلفية المنهج، عربية النزعة، على غرار مجلة "الفتح" التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب، أو مجلة "الرابطة القلمية" التي كان يحررها الأستاذ محمد علي طاهر، وما إن قطعت سنة من عمرها حتى ناصبتها السلطة الفرنسية العداء، فمنعت نشرها بالجزائر وتونس، كما منعت إيطاليا نشرها بطرابلس.

وقد كان أنشأها الشيخ أبو إسحاق إبراهيم إطفيش إثر نفيه من تونس بقرار إداري، من طرف حكومة الاستعمار الفرنسي حيث كان من أبرز الأعضاء العاملين في اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ومن أكبر أعضاد الزعيم العربي الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي.

الشيخ أبو إسحاق إبراهيم إطفيش

نشأ بميزاب بقرية بني يزقن، وتلقى مبادئ العلوم من علماء بلده الموجودين آنذاك، ومن أبرزهم العلامة الشيخ محمد بن يوسف إطفيش، ثم اشتغل مدة قصيرة

بالتجارة فلم ينسجم مع دنيا الأرقام. وهجر الدكان والتجأ لعاصمة الجزائر حيث تتلمذ على العلامة الجزائري الشيخ عبد القادر الحاوي سنة 1910 وانكب على الدراسة والتدريس، ثم انتقل إلى مسقط رأسه بني يزقن ولازم دروس عمه الشيخ امحمد إطفيش إلى أواخر سنة 1914. ولما توفي الشيخ إطفيش المذكور اشتغل بالدراسة لدى صهره العلامة الحاج إسماعيل ابن إبراهيم زرقون.

انتقل إلى تونس سنة 1917 وانخرط في سلك طلبة جامع الزيتونة المعمور حيث لازم دروس عدة مشائخ، أبرزهم الشيخ محمد بن يوسف شيخ الإسلام الحنفي والشيخ محمد النخلي والشيخ عثمان بن الخوجة.

وبعد نفيه واستقراره بالقاهرة، اشتغل بالتأليف وطبع الكتب النافعة، ومن جملتها "الدعاية إلى سبيل المؤمنين" و"رسالة النقد الجليل على العتب الجميل" وجدد طبع كتاب النيل المعتمد في المذهب الإباضي للمؤلف العلامة الشيخ عبد العزيز التعالي بشرح الشيخ محمد اطفيش كما طبع كتاب "الذهب الخالص" وغيره من تآليف له في الفقه الإباضي وألف كتابا ضخما في عدة أجزاء عن تاريخ الإباضية لم يطبع حد الآن.

واشترك في عدة جمعيات إسلامية، كجمعية "الشبان المسلمين" و"الهداية الإسلامية" و"الرابطة الشرقية" التي كان يرأسها الأستاذ أحمد زكي باشا، كما شارك في عدة مؤتمرات إسلامية كالمؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد بالقدس سنة 1936.

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية توظف في القسم الشرعي بدار الكتب المصرية حيث لا يزال إلى الساعة موظفا بها.

يعد من أبرز المصححين في القسم الشرعي بالدار المذكورة. حيث عهد إليه تصحيح الطبعة الثانية من تفسير القرطبي، وقد عهد إليه بتصحيح بعض الأجزاء من "نهاية الأرب" للنويري، كما اشترك في تصحيح الطبعة الأخيرة من مصحف "الملك".

"المنهاج" من منظور "المنتقد"

وقد جاء تقريظ مجلة "المنهاج" بجريدة "المنتقد" حيث كتبت عنها في عددها الصادر بـ 13 محرم سنة 1344 الموافق لـ13 أوت/آب سنة 1925 فقالت تحت عنوان "مجلة المنهاج" :

"أكتب هذا، وبين يدي العدد الأول من مجلة "المنهاج" التي أنشأها العلامة الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الجزائري المقيم بالقاهرة، لأقدم لإخواني الجزائريين هذه المجلة الراقية التي هي أول نشرة جزائرية في الشرق، وأدعوهم إلى موازرتها، لتظهر هنالك بالمظهر الشريف، وتعرب عن حالهم أمام أمم الشرق وأبناء العربية، وتقوم بنشر الحقيقة عن حالتهم بالجزائر في كفاح مجيد، وهي مجلة علمية اجتماعية سياسية نصف شهرية تصدرها بالقاهرة غرة كل شهر موقتا، عنوانها: المطبعة السلفية بشارع خيرت رقم 40 بالقاهرة. وهاكم شيئا مما قال في افتتاحيتها، وهو يبين خطتها ومشربها قال:

"ولا نألو جهدا ولا ندخر وسعا في الإلمام بمواضيع علمية ومسائل اجتماعية ومقتطفات أدبية إفادة للقراء الكرام. ومن الدفاع عن الأمة (يعني الأمة الجزائرية) وإيقافها على مجاري الأمور بالبلاد العربية، وفي إخلاص النصح لها، وللحكومة التي تدبر شؤونها، كما أننا لا نحرم إخواننا أهل الشرق من أنباء بلادنا المغرب العربي، ليحصل التعارف والارتباط التامان بين الأقطار الإسلامية وشعوبها لتتضامن في العمل على إحياء المجد المندثر للإسلام. ذلك المجد الذي جاء به القرآن فسعد به العالم حينا من الدهر، وأعطى للبشر أرقى تشريع وأسمى نظام. عسى أن يعود شبابه، وما ذلك على الله بعزيز".

هذا ما كتبته جريدة "المنتقد" عن مجلة "المنهاج". وكتبت عن "المنهاج" مجلة "الوفاق" التي كانت تصدرها شهريا البعثة الجزائرية بتونس وذلك في عددها الممتاز رقم 30 المؤرخ في 01 محرم 1344.

قالت:

مجلة "المنهاج" .. تحت هذا العنوان أصدر أستاذنا الجليل مجلته فتقبلها الشعب المصري وشعب شمال إفريقيا بغاية الإعجاب والثناء. وقد أسهمت الصحف في الكلام عنها وتفننت ما شاءت في تقريظها. وقد اتصلنا بالجزء الأول من هذه المجلة و"الوفاق" تحت الطبع، فإذا "بالمنهاج" قرة عين الكمال وغرة مفرق الأجيال، علم ناضج، أفكار سامية، فلسفة دقيقة، أدب غض، جهاد مجيد؛ ولا عجب فمؤسسها هو ذلك النابغة الذي أخذت عنه الأمة دروسا في التضحية الوطنية. فنرجو لمجلتنا الرواج وسعة الانتشار، ولأستاذنا سداد الخطى، وعون الله الذي لا يضيع أجر العاملين. وسنعود إلى المنهاج في عدد آخر".[1]

"المنهاج" والنهوض بالأمة

كانت هذه المجلة[2] حافلة بالمواضيع الحية، فتعالج أدواء المجتمع الإسلامي على ضوء الشريعة السمحة، والتعاليم القرآنية الصحيحة الخالصة من سخف الدجالين، وهراء الجامدين. والدين الإسلامي الحنيف يمتاز عن بقية الأديان السماوية بأنه دين الروح، ودين الواقع في وقت واحد. فهو إذ يطهر النفوس من رواسب الجاهلية وأقانيم الوثنية، يطهر الأرواح كذلك من أقذار العادات والأخلاق البائدة، ويرقى بها في المحيط التربوي إلى حظيرة الفضيلة والكرامة، ونصاعة الأخلاق البائدة.. إلى آفاق التفكير الحر الصحيح المرتكز على التأمل في الكائنات، واستخلاص العبرة من نظام التعايش السلمي بين الأمم، وهو إلى ذلك دستور الجمهوريات الديمقراطية، ومجلة الأحكام القضائية والأحوال الشخصية، ودائرة معارف، وديوان فن، وقصة وأدب، صادق التعبير عن أحاسيس الإنسان وعوالجه الباطنية "علم الله أنكم كنتم

1 - اختتم الكاتب هذه الحلقة 16 بقوله: [illegible] في الأسبوع الآتي [illegible] من مجلة المنهاج وصاحبها، [illegible]

2 - بدأ هذه الحلقة 17 بقوله: [illegible] مجلة المنهاج، والسلام [illegible] إبراهيم أطفيش في مجلة المنهاج.

تختانون أنفسكم فتاب عليكم". هذا ما كان يفهمه أبو إسحاق وأضرابه من الدين الإسلامي، وهي من اشمام[1] المدرسة الإصلاحية الكبرى التي كان يبث تعاليمها في المجتمع الإسلامي زعيم الشرق الأكبر جمال الدين الأفغاني، ورفيقه في الكفاح الشيخ محمد عبده.

ومجلة "المنهاج" زاخرة بمثل هذه المواضيع، ويتجلى ذلك في عناوينها:

نتيجة الجهل في الأمة؛

الحق بنظرة إلى العالم؛

أسباب ضياع الأمة وضياع عزها؛

تكالب أوروبا على الشرق؛

الجمود وآثاره في النفوس؛

مظهر الحرية في الأمم؛

القوة نتيجة اجتماعية.

إلى جانب المواضيع الخاصة بالاستعمار الغربي في الشرق، وفي الشمال الإفريقي، والجزائر خاصة، ونحن على سبيل المثال نسوق نماذج للقارئ الكريم تحت عنوان (واجب الأمة)[2] في العدد 17 من مجلة "الشهاب"، قال:

"مما لا مرية فيه، رقي الغربيين في الفنون والصنائع، وانفرادهم بالنفوذين: السياسي والاقتصادي. ولا جحود لما يبتكرون للبشر من مواد الحياة والعمران والتمدن، فإنك لا ترد صوبا، ولا تقطع قطرا، ولا تقف على صناعة، ولا تدخل سوقا، إلا رأيت من آثارهم، ونتاج قرائحهم ما يبهر العقول ويحير الألباب، ولا

1 - هكذا في الأصل، ربما يقصد (إلهام).

2 - هكذا في الأصل، ربما سقطت كلمة " منشورة أو صادرة".

يمر حين من الدهر، إلا ونسمع مؤتمرا لهم في الميدان العلمي، ولا تأت بلدا أو قرية إلا وجدت فيها مدارس لتعليم أبنائهم، فما تركوا صنعا من صنائع الشرقيين إلا اتخذوه وهذبوه وبرزوا فيه، حتى كادوا يقضون على سائر صناعتنا، وهذه إحدى غاياتهم في الشرق.

تسابقوا في ميدان النبوغ وسبر أعماق الفنون، واستنبطوا كثيرا صالحا، ووسعوا دوائرها بعد أن كانت مسائل ضمن علوم أخرى، وبرع فيها مؤلفون اختصاصيون، ما منهم إلا من يرى واجبه إظهار ما لم يسبق إليه، كي يخلد له ولأمته حميد الأثر، ويرفع رأس أمته عاليا بين الشعوب.

فما هو واجب الأمة تلقاء البيانات وهاتيك القوى، والمكانة التي طولبت بها على لسان نبيها في آيات الذكر الحكيم؟

أواجبها وضع الأصر[1] عنها والأغلال التي عليها بالأخذ بتلك الأسباب المسعدة. أم الإعراض عنها والبقاء تحت كلاكل الجهل والفاقة كما يدعو إليه الناعقون:

هل تقعدن على ضر ومسغبة
وعيشة شأنها التعذيب والكدر

إن مواهب النفوس البشرية لا تحدها الحدود وليست متجهة إلى وجهة واحدة، سنة الله في عباده، ليحصل العمران ويظهر سر الكون وخباته فتجلى وحدانية الله وجلاله وصمدانيته (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) إذن فالواجب على الأمة أن تثور على الجمود الفكري، وأن تتوجه إلى مناهل المعرفة، فتغترف من كل نوع بتوزيع الأفراد كل حسب استعداده كما أمر الله تعالى. أن تقوم طائفة بحماية الدعوة والكفاح في سبيل تحرير الأقطار الإسلامية الرازحة تحت كلاكل أوروبا نتيجة لجهلها وجمودها، وأن تقوم طائفة أخرى

1 - الأصر: الثقل والذنب

بتنظيم البعثات وتجشم المشاق في اكتساب المعرفة والنور، فينقطع أفراد إلى العلوم الحيوية، وآخرون إلى علوم الآداب، وآخرون إلى العلوم الدينية، وآخرون إلى الصنائع.

أما الجمود دام المزاحم[1] فاستسلام وخذلان يربأ عنهما كل عاقل، والزاعمون أن العلوم الحيوية منافية الدين كاذبون على الدين، واصفون له بالنقص، وهم يشعرون، وقد وصفه الله بالكمال وتمام النعمة:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم.. وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾.

لماذا لا تضارع الأمة الإسلامية غيرها من الأمم المتمدنة، وهي الأمم المتمدنة بالدين الذي فتح أبواب الشرف والكرامة في وجوه الأنفس الحرة، وليست هذه المضارعة دفعا للتفوق فقط — بل الواجب يأمر بذلك — وهي الأمة التي أنبأها دينها بأنها ستحاسب على ما منحها الله من المواهب والقوة الاختيارية التي هي مناط الثواب والعقاب والمدح والذم.

﴿من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

إن ركب المدنية لا يتوقف حتى يلتحق به السلم وأن العلوم الحيوية قوة مندفعة إلى الأمام لا يمكن إيقافها ولا حصرها، فليتدبر العاقل ما دام في الوقت ما يمكن أن يلحقنا بالقافلة.

هذه فكرة "المنهاج" وصاحب المنهاج منذ خمسة وثلاثين سنة مضت وهي نسبة ذلك العصر فكرة ثورية تقدمية جريئة[2].

1 - هكذا في الأصل، والمعنى غير مفهوم.
2 - نهاية الحلقة الإذاعية 17 وبداية الحلقة 18 المتعلقة بقضية فلسطين.

عالجت مجلة "المنهاج" مختلف المواضيع الحية الحساسة التي كانت تشغل بال أقطاب العروبة في ذلك العهد، وتهم قادة الحركات الإصلاحية والسياسية في كامل الشعوب العربية المغلوبة على أمرها، فنجد فيها فصولا قيمة للفضيلة (فضيلة الشيخ علي الزنكلوني) تحت عنوان: "بحث فلسفي في الاستعمار".

ونجد حملات موفقة للمجاهد الطرابلسي الشيخ سليمان الباروني ضد المعاهد الإنجليزية السعودية وضد "مؤتمر الخلافة الإسلامية" المنعقد بالقاهرة في شهر رجب سنة 1344 ونقرأ ونقرأ للأستاذ عبد الرحمن الرافعي فصلا ممتعا عنوانه "فرنسا والجزائر"، كما أن "المنهاج" تناولت الأحداث الهامة التي نزلت بالجزائر في ذلك العهد، كمسألة "الأندجينا" أو "الأحكام الاستثنائية" ومحاربة فرنسا للغة البلاد، وعرقلة حركات المصلحين بالوقوف في وجه جمعياتهم ومدارسهم الحرة، إلى غير ذلك من المظالم التي كانت الحكومة الاستعمارية تصبها على الشعب الجزائري بلا شفقة، ولا رحمة باسم النظام والمدنية واحترام القانون.

- إذا كانت السلطة الاستعمارية قد منعت انتشار المجلة بالجزائر وتونس ومراكش وطرابلس فإنها كانت تتسلل إلى هذه الأقطار بطرق سرية مختلفة، وكانت رسالتها تنتشر في الأوساط بطريقة منظمة، كما أن مركزها في الشرق ضمن لها أن تعمر أربع سنوات كاملة حافلة بالجهاد القلمي الماجد في الميدانين: السياسي والفكري، وما بينهما من تعديل المجتمع وتصحيح أوضاعه، ومن بين النماذج التي نسوقها للقارئ الكريم عن مجلة "المنهاج" هذا الفصل الذي كتبه محررها الشيخ إبراهيم إطفيش عن فلسطين أيام كانت الدسائس البريطانية تعمل في خفاء وخبث لتدعيم اليهود بفلسطين وتنشيط هجرتهم إليها استعدادا لإنشاء الوطن القومي اليهودي وفاء لوعد بلفور.

قالت "المنهاج" في عددها السابع في العدد الأول بتاريخ فاتح رجب 1344 تحت عنوان:

"أحوال فلسطين": "لا ريب أن الصهيونية خطر كبير يهدد الشرق، ولا سيما الحركات الإسلامية على الأخص، وما أوجدتها السياسة البريطانية إلا لتتخذها عدة بين يديها لتوطيد مطامعها الاستعمارية وعلى الأخص لتمكين نفوذها في جزيرة العرب، وهي لعمر الحق خيانة خبيثة مدبرة بمهارة، وقد كانت الصهيونية أحلاما فارغة أو خيالات وهمية حققها المستعمرون، وأظهرتها يد الاستعمار الملوثة بحقوق الشعوب الضعيفة وقد كانت ولا تزال الصحف الفلسطينية تعقد الفصول الطوال على ما ترتكبه الحكومة من الحيف والضيم في جنب الفلسطينيين، بينما الصهيونيون الأغراب عنا[1] يرغبون في برد العيش، وبحبوحة العافية، وهم يرتكبون نحو الأهالي كل عسف ولا يخجلون إذ يقولون إنهم أهل البلاد الأصليون وأنهم استحقوا ذلك بأعمالهم، وأشباه ذلك في الكلام الفارغ.

بينما كانت الأفواج منهم ترد على الجبال في شمتها واغوارها[2] من أرجاء الأرض، ولو حمدوا النعمة وشكروا البلاد التي آوتهم وصافوا أهلها بقلوب سليمة وجدوا منهم كرما وافيا".

وقد نشرت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني السابع فصولا في الهجرة المتدفقة على البلاد، واحتكار اليهود لامتيازات الحكومة، وإلى القارئ فصلا منها يشرح في جلاء تام محاباة الصهيونيين واستئثارهم بخيرات بلاد الناس، لا بعجز أهلها، ولكن بتأييد السلطة لهم وحرمان الفلسطينيين.

قالت اللّجنة:

"إن الحكومة لم تظهر محاباة لليهود أكثر من سخائها المستمر في منح الامتيازات لأفراد تلك الطائفة، وأن الامتيازات الكبرى التي منحت لهم لحد الآن هي امتيازات "روتنبرغ" في الأردن و"يافا" و"حيفا" لتوصيل الكهرباء، وامتياز "الكبارة" وامتياز استخراج الملح في "عتليت" وامتياز اللاسلكي.

1 - في النص الأصلي (الصهيونيون الأغراب عنا الطائش يرغبون في برد العيش) وقد رأينا تصويبه على النحو السابق.
2 - هكذا في الأصل، والمعنى غامض.

ورغبة في الاختصار نعدد فيما يلي نقاط الاعتراض التي يرفعها أصحاب البلاد العربية على كل في هذه الامتيازات:

1) امتياز "روتنبرغ" في الأردن:

أ- لم يوضع للمناقصة العلنية، وأعطي سرا.

ب- أعطي لرجل يهودي روسي التبعية مع أن أحد مقاولي العرب الفلسطينيين طلب هذا الامتياز قبله فرفض الطلب.

ج- إن الحكومة لم تستشر السكان أمر هذا الامتياز مع أنه يؤثر تأثيرا مباشرا على مصالحهم الحيوية.

2) إن المادة التي تنص على وضع القانون الأساسي للشركة لم تعتبر ضمنا لعرب فلسطين وشرق الأردن، أو لحكومة شرق الأردن أي وجود على الإطلاق:

هـ- لا يزال الرأي العام جاهلا ماهية ذلك القانون الأساسي.

و- إن صاحب الامتياز لم يتحصل على 200 ألف جنيه في المدة المعنية في رأس مال هذه الشركة كما نصت على ذلك الاتفاقية، ولهذا وجب إلغاء الامتياز.

وهكذا راح تقرير اللجنة يحلل على ضوء القانون والمنطق فحوى تلك الامتيازات الظالمة التي كانت توزع على اليهود بسخاء على حساب العرب أبناء البلاد، مما يدل أن تصميم دولة إسرائيل كان أقدم مما يتصوره الكثيرون، وكان ينفذ في أجزائه الصغيرة قبل أن تتمخض السياسة الغربية عن هذا الوليد غير الشرعي، دولة إسرائيل اللقيطة.

وتختم اللجنة تقريرها قائلة:

"مما تقدم يتضح أن العربي الفلسطيني لا حظ له في بلاده إلا الانتساب الصوري، أما خيرات البلاد فقد احتكرها اليهود المهاجرون بواسطة الامتيازات

والتشجيعات الحكومية المادية والأدبية، وهذا لا يكون في نظر اللجنة عائقا أساسيا دون كفاح العرب في سبيل استرجاع حقوقهم وفرض وجودهم في بلادهم، وإقامة السدود دون هذه الهجرة اليهودية الجارفة المنذرة بأجسم الأخطار والمهددة بضياع فلسطين من يد أبنائها العرب، في يوم ما، إذا لم يأخذ العرب بأسباب الجد".

هكذا تختم اللجنة تقريرها الطويل الذي نشرته "المنهاج" بحذافيره، ونحن نقول اليوم لهذه اللجنة الموقرة بعد خمسة وثلاثين سنة أن أكبر قسط في جريمة فلسطين يتحمله العرب أنفسهم، تلك الجريمة النكراء التي بدأت بالأسلحة الفاسدة، وختمت باتفاقيات تجارية مع إسرائيل، وأخيرا باعتراف الشاه. وقديما قيل في حكاية الزباء: "وهل يحزن الغير دم أضاعه أهله ؟"[1].

1 - حافظنا على نهاية الحلقة 18 كما أرادها المؤلف.

الفصل السادس

صحافة الأفراد ومواصلة الإصلاح

بسكرة وبوادر النهضة

كانت[1] بلدة "بسكرة" بقطة حماسية بالقطر الجزائري، وهي أجمل بلدة في جنوب قسنطينة، وتعتبر عاصمة الصحراء الشرقية، ومحور الحركات الاقتصادية بإقليم "الزاب"، ذلك الإقليم الغني بمنتوجاته ذات السمعة العالمية من تمر (دقلة النور) وتمر الغرس وغيره من الأنواع التي أصبحت أوروبا تستورد منها الكميات الضخمة في الأيام الأخيرة سيما إنجلترا، كما أن إقليم (الزاب) يتمتع بماض مجيد في تاريخ الحركة السياسية والفكرية ببلاد الجزائر. وناهيك "بمسيلة" التي كانت عاصمة الحماديين السياسية والعلمية، وازدهرت في عهد جعفر بن علي أحد ملوكها العظام الذين كانوا سببا لنبوغ كثير من فحول الشعراء، أمثال ابن هاني وغيره.

كانت بسكرة إبان الفتح الإسلامي الثالث مركزا للقيادة الإسلامية العليا، ولا تزال أحد قراها تحمل اسم الفاتح العظيم عقبة بن نافع، وهي القرية التي تسمى "سيدي عقبة" إلى يومنا هذا، كما ساهمت بسكرة في النهضة الإصلاحية بأكبر قسط ما بين عام 1925 و1940. لقد ضربت الرقم القياسي في مناصرة الثورة التحريرية الكبرى، وكانت في طليعة البلدان التي لبت داعي الجهاد منذ اللحظة الأولى، ومن حباها انبعثت الشرارة الأولى لثورة نوفمبر 1954 المباركة.

---

1 - هكذا كانت بداية الحلقة التاسعة عشر.

وفي فجر المقاومة القلمية كانت بسكرة والزاب سوقا نشيطة لاستهلاك منشورات وصحف الحزب الإصلاحي المطبوعة بمطبعة قسنطينة، وبعاصمة الجزائر، وكانت مرتعا خصبا لنمو الدعوات الإصلاحية لما في سكان الصحراء عادة من استعداد فطري قديم احتضان المبادئ الإنسانية، والرسالات السماوية نتيجة للذكاء الوقاد والفكر الثاقب والقريحة البناءة وتلك، هي أبرز الصفات التي يمتاز بها غالبا سكان الصحراء.

التعريف بـ "صدى الصحراء"

كان في مقدمة الصحف التي شاركت في هذه المعركة سنة 1925 جريدة: "صدى الصحراء" وهي جريدة علمية أدبية اجتماعية، انتقادية، شعارها "العمل على درء المفسدة قبل جلب المصلحة".

تبرز يوم الاثنين من كل أسبوع ببسكرة. صدر عددها الأول يوم 23 نوفمبر/تشرين الثاني سنة 1925 وكان يديرها ويحررها السيد أحمد بن العابد العقبي، وتطبع بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة، وهي المطبعة التي كان يديرها أحمد بوشمال، وكانت جميع الصحف الإصلاحية تطبع فيها.

أما صاحب هذه الجريدة، فكان من أنشط دعاة[1] الإصلاح، ومن أعضائه البارزين[2] الشيخ الطيب العقبي، إذ ينتسبان معا لقرية "سيدي عقبة". وكان يعالج في جريدته "صدى الصحراء" أهم القضايا الاجتماعية والسياسية مثلما تدـ ع عناوينها المتعددة مثلا:

— الإسراف في المهور، تنشيط في العزوبة.

— اتقوا الله في آبائكم.

1 - في النص الأصلي "من أنشط الإصلاح".
2 - في النص الأصلي "ومن أعضاء الشيخ الطيب العقبي البارزين"

ـ افتحوا المدارس وأغلقوا السجون والحانات.

ـ لا واسطة بين العبد وربه.

ـ أسباب فساد المجتمع العربي.

ـ العرب أمة واحدة.

كانت هذه عناوين جريدة "صدى الصحراء" ومنها أهمية نستشف المواضيع الحساسة التي تكافح من أجلها، وقد عاشت هذه الجريدة في محيط من التضييق الإداري حتى وقع تعطيلها من طرف إدارة الاستعمار يوم 26 ديسمبر/كانون أول سنة 1926.

جريدة "الحق" البسكرية

وعلى إثر تعطيلها قام أحد أبناء "سيدي عقبة" بإصدار[1] جريدة أخرى سماها "الحق" وهي جريدة حرة أسبوعية مباحثها في العلم والدين والتهذيب والسياسة، مديرها وصاحب امتيازها الأستاذ علي موسى العقبي، تصدر بمدينة بسكرة يوم الجمعة من كل أسبوع. تطبع بمطبعة النجاح بقسنطينة، صدرت في أفريل/نيسان سنة 1926 الموافق لـــ 07 شوال سنة 1344 وكانت كزميلتها "صدى الصحراء" تواصل الكفاح في نفس الميادين الاجتماعية والإصلاحية والسياسية، وقد كتب لها أن تعمر سنة واحدة بعد صدى الصحراء، ولفظت أنفاسها مخنوقة بيد الإدارة الاستعمارية يوم 16 ماي/أيار سنة 1927.

نقدم إلى القارئ نموذجا من جريدة "الحق" فنجد في عددها الحادي عشر المؤرخ في 15 محرم 1345 الموافق لـــ 25 جويلية/تموز سنة 1926، دراسة تاريخية حول: "الحمامات" بقلم مدير الجريدة، قال:

1 - في النص الأصلي "قام أحد أبناء "سيدي عقبة" بجريدة...إلخ"

"يبتدئ تاريخ الحمامات من أول التاريخ القديم، لأن الاستحمام كان في غابر
الأيام من الواجبات الأولية للشعائر والمواسم الدينية، ولا تزال آثار هذه الحمامات
العتيقة إلى يومنا هذا قرب الهياكل والمعابد في الهند وإيران ومصر وبلاد الآشوريين،
وكان قدماء المصريين يقدسون نهر النيل السعيد، وكذا أهل الهند لا يزالون يعدون
نهر "الكنج" مقدسا.

وأول ديانة فرضت التطهير بالماء قبل الشروع في العبادة، هي الديانة الموسوية
- كذلك أيام الدولة اليونانية القديمة كان استعمال الحمامات شائعا جدا، وقد
ذكر الشاعر اليوناني العظيم (هومير) فوائد الحمام السخن بعد التعب والرياضة،
ولذلك كان يوجد كثيرا من الحمامات العمومية والخصوصية في أثينا- وفي أيام
الرومان اشتهرت الحمامات وانتشر استعمالها في بلادهم ومستعمراتهم.

بعد القرن الخامس من الميلاد أهملت الحمامات وقل استعمالها في أوروبا، وفي
القرن الثامن عشر كانت الحمامات العمومية مجهولة بالكلية، ولكنها اشتهرت
وذاعت في الشرق في تلك العصور، وجدد شهرتها العرب في بلادهم خصوصا في
الإسكندرية وبلاد الأندلس، ومن ثم أخذ الصليبيون يجددونها في أوروبا بعدما
انتشرت في بلاد الشرق، وفي سنة 1844م صدر قانون بالتصريح بناء حمامات
عمومية في بلاد الإنجليز وازدادت من ذلك الوقت حتى عمت معظم مدنها
وقراها"[1].

في مواجهة الحركات المعادية للإصلاح

وسط هذه الانتفاضة الإصلاحية التي أحدثت في المجتمع الجزائري هزة في
العقول والأفكار، وكونت اتجاها صحيحا لحركات المقاومة المختلفة المناهج، رأت
المصالح الإدارية المختصة بالشؤون الإسلامية في الجزائر أن تبعث حركة جزائرية

1 – [illegible]

تكون شوكة في جنب دعاة الإصلاح، (وشراكا للعاملين على بث)[1] الأفكار
التحررية وتركيز فكرة القومية العربية بإنعاش الوعي الوطني، وإشاعة التعليم القومي
بأرجاء البلاد.

بين عشية وضحاها تبنت طريقة "العليوية" بمستغانم هذه الحركة الدينية ظاهرا،
الإداريـــة من وراء الكواليس السوداء، والطريقة العليوية هذه برأسها مؤسسها
الحاج أحمد بن مصطفى بن عليوة بمدينة مستغانم بالغرب الجزائري، وهي إلى
جانب إسرافها في (مدرسة البدع والخرافات)[2] تمتاز بعمالاتها للاستعمار، وخدمة
ركاب العدو الغاصب، وشيخهـا يدعي العصمـة وينسب إلى نفسـه من
المعجـزات والكرامات ما قد يجعله في مصاف الأنبياء والمرسلين، وأتباعه يحجون
إليه كل سنة، في مواكب زاحفة، يلتمسون لديه المغفرة والزلفى، وهم يلقبونه
بالعربي الأكبر، غيث الأنام، وحامي الإسلام، وحامل لواء الشريعة المطهرة، وله
صلات وثيقة بالكنيسة الكاثوليكية، وهي التي مهدت له الطرق لإنشاء زوايا
عليوية بإيطاليا وفرنسا وإنجلترا وإسبانيا وألمانيا وحتى أمريكا.

وقد زود بيت "الخلوة" في زاويته بجهاز كهربائي غريب، أحكم تصميمه من
طرف بعض الجهات الخليقة، وهذا الجهاز يعينه على انتزاع الثقة العمياء من مريديه
وصورة ذلك:

يقضي أتباعه مدة طويلة من غير أن يظفروا برؤيته، فهم فقراء وإخوان لا
يتصلون إلا بمستوليهم من (المقادم)، فإذا اقتضت الحاجة ترقية أحد الإخوان إلى
درجة إما لذكائه، وإما لإخلاصه، وللاحتياج إليه في القيام بمهمة، يتكرم عليه
برؤية الشيخ بن عليوة، وزيارته في الخلوة، فلا يخرج منها إلا وقد أصبح أكثر إيمانا
بالطريقة من ابن عليوة نفسه فماذا يقع في هذه الخلوة الغامضة؟

الشيخ جالس في دهليز مظلم، وعلى جنبيه أسدان مصنوعان بكيفية خاصة،
وعيناهما أنابيب كهربائية صغيرة حمراء، ورجلاهما تتحركان بطريقة آلية، وقد أطلق

1 - في النص الأصلي "وشجى في حلق العاملين بث..." وهو كلام غير مفهوم.
2 - القوسان من وضع المؤلف.

على درج السلالم المؤدية للدهليز تيار كهربائي مكيف، ويشترط على الزائر أن يهبط حافي الرجلين، فما أن يضع رجليه في الدرجة الأولى في السلم، حتى يقفز مرعوبا من لسع التيار الكهربائي، فهناك يأمره الإخوان بالرجوع، وزيادة التطهير، وتصحيح النية والإيمان بالشيخ، مفسرين تلك الظاهرة بأنها أثر من آثار غضب الشيخ على الزائر، لأن نيته لم تكن خالصة، ثم تتكرر اللعبة ثانية وثالثة ورابعة، حتى إذا سمح له برؤية الشيخ (بعد تهديم أعصابه وإعداده نفسانيا للاقتناع بكل شيء)[1] أمسكوا من إطلاق التيار الكهربائي على السلالم، فيرى الأسدين وعيناهما تبرقان، وقد ملأ المكان زئيرا مزعجا، وذلك كله متوقف على ضغطة فوق زر كهربائي بجانب الشيخ الوقور، ولن ينفك الأسدان عن هذه المسرحية إلا بعد أن يغمى على الزائر الكريم، ثم يسعف بالمنعشات، فيستفيق في جو من الهدوء والسلام، من هنالك يفوز (بلثم مرضيا)[2] ويذهب إلى حيث اختارته العناية. بهذه الطريقة الأتوماتيكية يسلط الشيخ على العقول ويسحر النفوس والجيوب.

جريدة "البلاغ الجزائري"

وكان لزاما لحركة كهذه أن تعتمد على طريقة جديدة لنشر دعايتها، ومناهضة خصومها، وما دامت تستعمل الوسائل العصرية العجيبة لإقناع مريديها، فأصدرت (جريدة)[3] "البلاغ الجزائري" بمدينة مستغانم يوم 24 ديسمبر/كانون أول 1926، وقد أسندت إدارتها لصاحب امتيازها السيد حمدوني محمد محي الدين، ثم انتقلت إلى إدارة السيد عمروش الأخضر الذي واصل إصدارها إلى سنة 1956 حيث توقف بعاصمة الجزائر، وهي تصدر يوم الجمعة من كل أسبوع وقد كتب عليها أنها جريدة دينية علمية إرشادية إخبارية تحررها نخبة من أبناء الجزائر شعارهم: "نحن مسلمون قبل كل شيء"[4]. وقد طرزت بالآيات الكريمة الآتية:

1 - [illegible] من وضع المؤلف.
2 - هكذا في الأصل، [illegible]
3 - [illegible]
4 - شعار البلاغ الجزائري [illegible]

"فإن أسلموا لقد اهتدوا فإن تولوا فإنما عليك البلاغ" ـــ "أن الدين عند الله الإسلام" ـــ "إن في هذا البلاغ لقوم عابدين" ـــ "ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه".

ومن فصولها: فصل تحت عنوان "كتاب مسيو فيوليت":

"لقد نشر مسيو فيوليت الوالي العام على القطر الجزائري كتابا تحت عنوان (هل الجزائر ستعيش؟) وإنه والله لكتاب قيم نزيه موافق للمبادئ الإسلامية الطاهرة، خلافا لما يقوله بعض المغرضين الانفصاليين الذين يتبجحون بالاستقلال، وهو في الحقيقة ضرب من الخيال لا يكون إلا في رؤوس المجانين. إن فكرة الرجل العظيم مسيو فيوليت تتلخص في اعتبار جزء من الجزائريين فرنسيين، وإدماجهم في المجموعة الكبرى، مجموعة فرنسا أم الوطن، ذات العلم المثلث الألوان ذلك العلم الذي نستظل بظله، ونداقع عنه بنفوسنا وأرواحنا، وقد دافعنا عنه في الحرب الكبرى، وقمنا بجميع الواجبات نحو فرنسا صديقة الإسلام والمسلمين.

واليوم يجب أن نتمتع بالحقوق التي يتمتع بها إخواننا وأشقائنا الفرنسيين، وهذه الحقوق على رأس مسيو فيوليت لا تمنح إلا للنخبة المثقفة، وكبار التجار والموظفين، وهو على صواب في رأيه لأن ورقة الانتخاب سيف ذو حدين، قد تعود بالضرر العظيم على الجهال الذين لا يحسنون استعمالها على حد قول المتنبي قديما:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته	وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى	مضر كوضع السيف في موضع الندى

فنحن نشكر مسيو فيوليت على هذه النية الخالصة، وننصح إخواننا المسلمين الجزائريين بموازرته، والثقة به، فإنه وإن كان واليا عاما على الجزائر إلا أنه لم يكن ظالما بل كان من أحرار فرنسا المنصفين، نسأله تعالى أن يطيل عمره، وأن يكثر أمثاله وأن ينصر العاملين تحت ظل الراية المثلثة المبقاة".

نعرض هذا الفصل على القارئ الكريم بدون تعليق أما بقية فصول هذه الجريدة، فهي كلها في الطعن والتهجم على رجال الإصلاح، وصحافة "جمعية العلماء"، وعلى الأخ الأستاذ ابن باديس والطيب العقبي والشيخ مبارك الميلي، وأبي اليقظان، والزاهري، والعمودي، وقد نشرت في عددها الصادر يوم 16 سبتمبر 1929[1] فصلا في الرد على ابن باديس والعقبي جاء فيه:

"سمعنا بتأسيس جمعية تضم العلماء المسلمين الجزائريين، فحسبنا أنها جمعية أسست على التقوى في أول يوم، وأنها ستقوم بنشر العلم، وبث المبادئ الإسلامية في عقول أبناء الجزائر، فإذا بها تنحرف عن مبادئها الأساسية، وتشن حربا شعواء ضد الصالحين من عبد الله، أولئك الذين حباهم الله بأنواره الربانية، وأفاض عليهم من أسراره الروحانية، ونفحاته اللدنية، ما جعلهم من المقربين لسدته العليا، أمثال القطب الرباني مصباح الظلام، وحامي الإسلام السيد أحمد بن مصطفى العليـوي - إن ابن باديس وصاحبه العقبي ومن يلوذ بهم من المشوشين المشاغبين أصبحوا يهدمون الشريعة الإسلامية بنكرانهم للوسيلة والزيارة، ويتهجمون على أولياء الله معرضين عن الوعيد الذي جاء[2] في قوله ﷺ: "من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب".

وذهب الكاتب في هذا النوع من الهذيان ليختم فصله بالوشاية والتحريض ويقول:

"نحن نلفت أنظار أولي الأمر إلى ما يقوم به العلماء هؤلاء، من الفتنة والتشويش، أن تهتم العدالة بإيقافهم عند حدهم، وحماية رجال الدين الحقيقيين الذين تعهدت دولتنا العزيزة بحمايتهم".

وجاء في عدد 12 أكتوبر سنة 1930 تحت عنوان "وتأتون في ناديكم المنكر":

1 - هكذا في الأصل، [illegible] يوم 17 من ذي القعدة عام 1349 هـ الموافق 05 ماي 1931 م ولا بد أن [illegible]
2 - في النص الأصلي "[illegible]"

"لماذا تأسس نادي الترقي بالجزائر؟

ـــ كنا نظن سيكون ناديا يضم رجالا لخدمة الدين الحنيف، وبث الأخلاق الفاضلة، فإذا بجمعية العلماء تحتكره، وتتخذه ناديا لشتم في الزوايا والمشايخ إلى آخر ما في الفصل من التحريش والإساءة للنادي ورجال النادي".

هذه نماذج مقتضبة نضعها بين يدي القارئ الكريم حتى يتصور كيف كانت الإدارة تحرك رجال الزوايا بأصابعها الجهنمية من وراء الستار، ولسنا والله ضد الزوايا ولا ضد الطرق ومشائخها، فإن للزوايا تاريخا حافلا (بالحفلات بالحسان)[1] قبل سبعين سنة مضت.

وهل بقيت اللغة العربية محفوظة ببلاد الجزائر إلى هذا اليوم بالرغم من سياسة التجهيل التي تتبعها فرنسا، منذ أن دبت في أرض الجزائر[2].

فأكبر فضل في ذلك يعود ما قامت به الزوايا عبر التاريخ من صيانة هذه اللغة وإيصالها من الأجداد إلى الأحفاد، وأن الثورات المسلحة التي قامت بالجزائر بعد الاحتلال إلى نهاية القرن التاسع عشر كانت تتبناها الزوايا، كثورة الزعاطشة بالجنوب الجزائري، وثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني، وثورة جبال جرجرة التي قام بها المقراني، وثورة الأوراس سنة 1853 إلا أن هذا السلف الصالح ترك خلفا انحرفوا عن الجادة وحادوا عن واجبهم الوطني والديني، فاستغل الاستعمار انحرافهم واتخذهم مطايا لأغراضه ومعاول لهدم القومية باسم القومية، وتحطيم الدين باسم الدين، هذا الانحراف يرجع إلى أسباب مختلفة ليس هنا محل شرحها[3].

1 - هكذا في النص الأصلي ، والمعنى غير واضح.
2 - في النص الأصلي "كتابة لم نتمكن من فك رموزها، والعبارة ليس واضحة بالقدر الكافي.
3 - اختتم المؤلف الحلقة 20 بقوله: "وموعدنا مع القارئ الكريم في الحلقة المقبلة لنحدثه عن صحيفة أخرى من هذا العهد، والسلام."

الفصل السابع

شيخ الصحافة ومقاومة المنع

القانون الاستثنائي والكفاح القلمي

إذا كان لقب شيخ الصحافة[1] جديرا بأحد من أرباب الصحافة بالجزائر، فالشيخ أبو اليقظان يمتاز بهذا اللقب عن جدارة واستحقاق، فلقد قطع عشر سنوات كاملة من الكفاح الصحفي المجيد يتحدى إدارة الاستعمار بالجزائر، بصبر وأناة وعزم، لا يعرف التراجع، وذلك في فترة تعد من أصعب الفترات وأقساها في مراحل الكفاح القلمي بالجزائر، فالأمة في يقظة واندفاع، والحكومة الاستعمارية ومن ورائها العملاء والصناع في نوبة عصبية حادة، والقانون الاستثنائي الجائر سيف بيدها مسلط على الحريات والرقاب، فهي تحجز وتصادر لأدنى سبب، وتحكم بدون مبرر، وبمجرد ترديد كلمات: الوطن، المجد، القومية، الحرية، الأمة الجزائرية العربية، الكرامة، العزة، يعد مساسا بأمن الدولة الداخلي والخارجي وتحريضا على التمرد والعصيان وكفيلا بأن يعجل بنهاية الصحيفة التي نشرتها إن لم يقذف بكاتبها في الظلمات.

أما كلمة "استقلال" في مقال أو خطاب فإنها كانت تعد من أكبر الجرائم التي لا يعفيها قرار مسيو "ريني" عن ستين سجنا ومن كمشة من الآلاف تغريما، والجرائد لا يسمح لها بالانتشار إلا إذا ترجمت حرفيا بمصالح الرقابة وفحصت بآلة المكرسكوب، وكان على رأس الشؤون الأهلية (قهرمان عجوز) ومن لفيف المستشرقين ويقال له "ميرانط" وهو من أخبث الثعالب الاستعمارية التي بليت بها

1 - هكذا كانت بداية الحلقة 21.

الجزائر، وكان الحاكم بأمره في قصر الولاية العامة يعز من يشاء ويذل من يشاء فلا معقب لحكمه ولا رقيب، وبدون محاكمة يستطيع أن يحجز وأن يزج بصاحبها في السجن أو يقذف به في إحدى المنافي النائية بالصحراء، وطالما كان يسطر للصحف الجزائرية مناهجها ويقوم في بعض الأحيان بوظيفة رئاسة التحرير من وراء الكواليس.

سبع جرائد في عشر سنوات

في هذا الجو المكهرب المسموم كان أبو اليقظان يصارع الأحداث ويتحدى "موانط" وما إن تستشهد صحيفة من صحفه حتى تتلقف الراية باليمين جريدة جديدة تحمل اسما جديدا وكان القانون الفرنسي آنذاك لا يربط صاحب الجريدة باستصدار رخصة خاصة بل كان يكتفي بمجرد التصريح لذلك ترى للشيخ أبي اليقظان سبع جرائد في ظرف عشر سنوات وهي على ترتيب التاريخ:

(وادي ميزاب– ميزاب– المغرب – الأمة – النور– البستان– النبراس).

صحيفة "وادي ميزاب"

صدرت وادي ميزاب يوم 01 أكتوبر/تشرين الأول سنة 1926 وهي تصدر كل يوم جمعة، تطبع بتونس وتوزع بالجزائر، وكان أول الداعين لتأسيسها والعاملين على صدورها كالأستاذ السيد محمد ابن الحاج صالح الثميني، وهو الذي تولى رئاسة تحريرها وطبعها بتونس والإشراف على تصحيحها وتوجيهها جاهزة للجزائر.

وكان الشيخ الثميني بتونس — رئيسا للبعثة الميزابية — إلى جانب الشيخين:

— أبي إسحاق إبراهيم الذي نفي فيما بعد إلى مصر من طرف الإدارة الاستعمارية.

— وأبي اليقظان إبراهيم الذي انتقل إلى عاصمة الجزائر وفتح مكتبا بها لجريدة "وادي ميزاب".

وجل جرائد أبي اليقظان كانت تطبع بالمطبعة التونسية ثم انتقلت إلى المطبعة الأهلية بنهج الديوان فطلبت الحكومة الاستعمارية بالجزائر من حكومة تونس عدم السماح بطبع جرائد أبي اليقظان بتونس إلا برخصة خاصة من حكومة الجزائر، وآنذاك اضطر أبو اليقظان لطبع جرائده بمطبعة "المغرب" التي كان يملكها ابن علوة بعاصمة الجزائـر، ومديرهـا الأخضر عمـروش رئيس تحرير "البلاغ الجزائري" سنة 1929.

وقد جمع رأسمالها من إعانات وتبرعات أفاضل التجار الميزابيين، بواسطة السيد الثميني من مقاطعة قسنطينة، والشيخ إبراهيم امتياز من مقاطعة الجزائر.

ولتأسيس جريـدة "وادي ميزاب" أسبـاب كثيرة أهمهـا محاربـة الإدارة الاستعمارية لبعثات التعليم التي كانت تتقاطر من ميزاب على تونس (حيث يوزع أفراد هذه البعثات)[1] على مدارسها القرآنية الأهلية وجامع الزيتونة، وقد اعتمدت الحكومة في هذه المعركة كعادتها طائفة من الرجعيين المتحمسين، اتخذتهم أبواقا لدعايتها المغرضة في مساجد ميزاب ونواديه، لتنذر الميزابيين بالخطر الذي يتهدد مذهبهم وعوائدهم إذا سمحوا لأبنائهم أن يتعلموا بتونس في مدارس المخالفين.

وقد احتمدت المعركة واندلع لهيبها بين الطرفين فلم تقتصر على الحملات الصحفية بل احتازتها إلى تأليف الكتب ونشرها، فألف الرجعيون كتاب "كشف اللثام عن أغراض بعض اللئام" ورد عليه أنصار الفكرة التقدمية الإصلاحية بكتاب "إرشاد الحائرين"[2] من تأليف الشيخ أبي اليقظان، ودخل المعركة شيخ من شيوخ الوطنية القدامى وزعيم من زعماء الحزب الدستوري التونسي، الشيخ صالح بن يحيى الجزائري، فكتب عدة مقالات ضد الانهزاميين بجريدة "الصواب" وجريدة "لسان الشعب" التونسيتين، وكان أسلوبه فلسفيا متأثرا بأسلوب صديقه ورفيقه في الكفاح والسجن الزعيم العربي الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وهذه المقالات

1 - في النص الأصلي "وتوزع على ..." وحتى لا يلتبس على القارئ المعنى فقد رأينا إثبات الصياغة التالية "حيث يوزع أفراد هذه البعثات على ..."

2 - العنوان الكامل للكتاب هو "إرشاد الحائرين"

كانت سببا لصدور كتاب "البراهين القاصفة" للرد على الشيخ صالح بن يحيى، فرد عليه بدوره الشيخ أبو اسحاق ابراهيم اطفيش من القاهرة بكتاب "الدعاية إلى سبيل المؤمنين".

كانت هذه المعركة التي انتهت بفوز التقدميين سببا لإصدار جريدة "وادي ميزاب" على أن هناك سببا آخر أقل أهمية من الأول نذكره صيانة لأمانة التاريخ، وهو أن بعض الجرائد العربية الجزائرية كانت تمتنع عن نشر أي شيء يتعلق بميزاب، سواء بقلم كتابها أو بقلم بعض الكتاب الميزابيين كالشيخ الثميني، والشيخ أبي اليقظان، فساهمت جريدة "وادي ميزاب" في تطهير القلوب من بقية الرواسب المذهبية العتيقة، تلك الرواسب التي كان يغذيها الجهل وينميها الاستعمار، فكانت جريدة "وادي ميزاب" تعالج المشاكل الجزائرية العامة والمشاكل الإسلامية العربية، و(تساعد)[1] جمعية العلماء في معركتها الإصلاحية العتيدة. والشيخ أبو اليقظان من أبرز أعضاء "جمعية العلماء" منذ فجر تأسيسها.

وتمتاز جرائد أبي اليقظان بطابعها الوطني الصريح مما جعلها تلاقي حتفها بعد صدورها بقليل وقد ساهمت في الميدان الاجتماعي والميدان التربوي الأخلاقي بمجهودات موفقة، ومجموعات جرائد أبي اليقظان يمكن أن تكون مرجعا من أخصب المراجع وأوثقها سواء عن تاريخ المعارك التحريرية بالجزائر أو عن مراحل التقدم الفكري والاجتماعي.

واحة وادي ميزاب

وسميت الجريدة باسم واحة بالجنوب الجزائري تسمى "بوادي ميزاب" يسكنها قسم من الجزائريين انحدروا من سلالات بربرية وعربية وفارسية وأغلبها من فلول الرستميين الذين بسطوا نفوذهم على جل بلاد الجزائر مدة مائة وستين سنة، فيما بين القرن الأول والثاني للهجرة.

1 – ما بين القوسين إضافة من [illegible].

وكانت قاعدة ملكهم مدينة "تيهرت" بالجنوب الجزائري، فاكتسحهم الصفرية والأزارقة فلجئوا إلى "إسدراتن" بورقلة، ثم عمروا القرى السبع بوادي ميزاب وهم يتمذهبون بالمذهب الإباضي نسبة إلى عبد الله ابن إباض.

ويعتبر علماء الإسلام هذا المذهب أقرب المذاهب إلى الأشاعرة، بينما يعتبر الإباضيون أنفسهم "الفرقة الناجية" ويلقبون أنفسهم "بأهل الاستقامة".

ومن أكبر أئمتهم المتأخرين الشيخ عبد العزيز الثميني صاحب كتاب "النيل" المعتمد في الفقه الإباضي، والشيخ أمحمد اطفيش وقد ترك هذا الأخير ما يربو عن ثلاثمائة تأليف جلها غير مطبوع ومن تلاميذ الشيخ الثميني، الشيخ أبي اليقظان صاحب جريدة "وادي ميزاب"[1].

"وادي ميزاب" والقضايا الوطنية

واصلت جريدة "وادي ميزاب"[2] كفاحها بأقدام ثابتة، وكانت الجريدة الوحيدة من بين جرائد عصرها التي تعالج بصفة بارزة ومستمرة القضايا الوطنية، والأحداث السياسية بالجزائر، مثل حركة المؤتمر الإسلامي الجزائري عام 1936 وما يليها من مراحل، فكانت تتبع باهتمام بالغ خطوات الوفد الجزائري بباريس المنبثق من هذا المؤتمر كما أنها لم تتحرج من إبداء انتقاداتها الصريحة على بعض تصرفات الوفد، وعلى المبدأ الأساسي الذي اتخذه الوفد قاعدة لمطالبه، وهو ما يسمى بمشروع "بلوم فيوليت" القاضي بسلخ طبقة من النخبة الجزائرية المثقفة من المجموعة

1 – حذفت نهاية الحلقة 21 العبارة التالية: (وسنعرض حصتنا المقبلة بذكر بقية جرائد أبي اليقظان والمواضيع التي كان يعالجها والسلام عليكم ورحمة الله).. غير أن المؤلف لم يتناول في حلقته المقبلة إلا بعض القضايا التي كان يعالجها أبو اليقظان. أما الصحف التي أنشأها أبو اليقظان في معركته مع السلطات الاستعمارية، فهي:
— "وادي ميزاب" من يوم 1926/10/1 إلى 1929/01/08.
— "ميزاب" صدر منها عدد واحد يوم 1930/01/25.
— "المغرب" ابتداء من يوم 1930/05/29 إلى 1931/05/09 وقد أصدرها باسم تلميذه [illegible] عيسى.
— "النور" ابتداء من يوم 1931/09/15 إلى 1933/05/03.
— "البستان" ابتداء من يوم 1933/05/27 إلى 1933/07/13 باسم تلميذه [illegible] عيسى كذلك.
— "النبراس" ابتداء من يوم 1933/07/21 ولم يصدر منها سوى ستة أعداد.
— "الأمة" ابتداء من يوم 1933/09/08 إلى 1938/03/03.
— "الفرقان" ابتداء من يوم 1938/07/05 إلى 1938/08/18.

2 – حافظنا على بداية الحلقة 22 كما هي.

الجزائرية، وإدماجها في الجنسية الفرنسية مقابل التمتع بحقوق طبيعية مشروعة لا تحتاج إلى التخلي عن "المحموعة" ثمنا لها.

وكانت جريدة "وادي ميزاب" وما تلاها من جرائد أبي اليقظان تؤازر بصفة غير مباشرة، وتارة بطريقة مباشرة الحركة التحريرية التي كانت تتبناها "نجمة إفريقيا الشمالية" بين عام 1930[1] وعام 1937.

كما أن "المطبعة العربية" التي أسسها أبو اليقظان كانت لا تبخل على الحزب الوطني بطبع منشوراته السرية، مما سبب لأبي اليقظان ومطبعته تفتيشات متواصلة ومضايقات.

وقد اعتقل ابنه عيسى، وقضى سنة ببربروس لأنه طبع مناشير وجرائد "الحزب الشعب الجزائري" كما وقع اعتقاله إبان الثورة الجزائرية سنة 1956 وأطلق سبيله بعدما قضى شهرا كاملا بين يدي جنود المظلات يقاسي أنواع النكال والعذاب، وذلك بتهمة طبع مناشير لجبهة التحرير الوطني الجزائرية.

وكان للقضايا العربية العامة حظ كبير في صحف أبي اليقظان في الطليعة فلا يكاد يخلو عدد من "وادي ميزاب" أو غير "وادي ميزاب" من قصيدة أو قصيدتين، وقد كانت سوقا عكاظية يتبارى فيها شعراء الجزائر النابهين أمثال: محمد السعيد الزاهري، ومحمد العيد، ورمضان حمود، والهادي السنوسي، وبكير ابن الحاج سليمان، وعبد الرحمن البكري، ومفدي زكرياء.

وقد خصصت "وادي ميزاب" صفحة كاملة لمدة ثلاثة أشهر لنشر كل ما قيل في المهرجان التاريخ العظيم الذي أقيم في أوائل ماي 1927 بالقاهرة للاحتفال بتكريم أمير الشعراء أحمد شوقي بك، وقد صدرت الجريدة هذا الشريط بمقال افتتاحي في عددها المؤرخ في يوم الجمعة 18 جوان/حزيران 1927 بقلم رئيس التحرير الأستاذ محمد الثميني تحت عنوان "أثر الحياة في الشرق" أو "الاحتفال بتكريم أمير شعراء العرب" جاء فيه:

1 - [illegible] "نجم شمال إفريقيا" يوم 20 جوان 1926.

"في الشرق اليوم حركة مباركة في كل فرع من فروع الحياة علمية واقتصادية وسياسية.. وأظهر أثر هذه الحياة ما نراه اليوم في أقطار الشرق كلها من التحفز للنهوض ومجاراة الأمم الحية في مناهج الرقي والتشبث بأسباب العظمة.

وقد كان هذا موضوع شك واختلاف بين المفكرين في الشرق والغرب، بات اليوم حقيقة بينة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فأصبح الساسة والمفكرون في الشرق يعملون لتنمية هذه الحركة وتقويتها وإبلاغها إلى غاية يعرف بها الغرب للشرق مقامه، وظل أولئك في الغرب يكدون ويجدون في مختلف الوسائل لتفهم كنه هذه الحركة وبلغ أثرها وغايتها ويسعون لإيقافها عند حد (وما هم بناجحين).

وموقف الشرق إزاء هذا كله موقف الشاب الممتلئ قوة ونشاطا، أمام شيخ واهن القوى يستمد من ماضيه قوة لحاضره غافلا أن سنن الله في الخلق (بأن الدهر قلب) وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وأجلى برهان على ما قلنا المؤتمر الأدبي الذي أقيم في أوائل شهر ماي/أيار في القاهرة أو سوق عكاظ أو الاحتفال بتكريم أمير شعراء لعرب أحمد شوقي بك، بحيث جاء القاهرة نواب عن كثير من البلدان العربية، فوقفوا يتذاكرون ما للمحتفل به من الفضل والأثر الحميد في الأدب العربي، ولا يخفى ما في هذا من تقوية روابط أخوة بين الناطقين بالضاد.

ونحن نأسف لعدم وجود ممثلين رسميين لشمال إفريقيا في هذا العيد الذي يجب أن يقف فيه المغربي بجانب إخوانه الآخرين".

وقد كانت جرائد أبي اليقظان تتمتع بسمعة طيبة في الشرق العربي، وتنقل عنها شهيرات الجرائد والمجلات العربية مثل: "الرابطة القلمية" و"الفتح" و"المنهاج" و"الرسالة"، وقد كتب في تقريضها الأمير شكيب ارسلان، رسالة لأبي اليقظان نشرها في عدد يوم الجمعة 4 ماي/ أيار سنة 1928 جاء فيها:

" لوزان في 14 نيسان/أفريل 1928

حضرة الأجلاء الأفاضل أصحاب جريدة "وادي ميزاب" المحترمين، إني تلقيت رزمة عظيمة من أعداد جريدتكم، فأحببت أن أتصفحها ولو بنظرة متسرعة وقرأت أشياء لذيذة ومفيدة فسألت الله لكم النجاح.

وما من حاجة للبيان، أن القطر الجزائري يهمنا كما تهمنا الأقطار الشرقية فعسى أن لا نكون مخطئين في تقديرنا في إخواننا الجزائريين- نعم إلى الأمام.. لا إلى الوراء..

وقد سرني ما قرأته في كتابات بعض السواح من أدباء الإفرنج عن وادي ميزاب، وكنت نقلت عبارة عن هذه الكتب، تذكرة لنفسي، وهذه العبارة بقيت بين أوراقي إلى أن ورد لي ما أرسلت فأحببت أن أهديكم إياها، وأرجو أن يكون ما فيها صحيحا. إذ ما دمتم بهذه الأخلاق، ومحافظين على شعائركم الدينية والقومية فلا خوف عليكم.

(رأى بعض السواح الفرنسيين في وادي ميزاب ـــ المسيو أندري شافيون من أعضاء الأكاديمية الفرنسية في مقالة صدرت في 15 نيسان/ أفريل من مجلة "العالمين" عن الإباضية في ميزاب يقول:

"أنه زار مدينة بني يزقن في طرف الصحراء، وهي أشد بلدة إباضية تمسكا بتقاليد مذهبهم، فقال له سكرتير مجلس البلدة، وهو عندهم بالانتخابات: "في بلدتنا ليس وجود الفقهاء والعلماء منحصرا في المساجد، بل كل من في البلدة طالب، وكلهم درسوا طويلا، يحفظون القرآن غيبا مع تفسيره" فهذه مدينة الشرع، أهلها يرغبون في النظام والسلام. ويلاحظون العادات اللائقة، وهنا الغناء والصراخ ممنوعان، ولا يستحب الضحك الكثير، ثم قال: جماعة متمسكون بالتقليد، ولا يقبلون سواه، وليس عندهم غريب، بل كلهم من بني ميزاب أهل جد وعلم وانقياد للشرع)"[1].

1 - كانت هذه المقالة [illegible] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

الفصل الثامن

كرونولوجيا الصحافة

عام إصدار الصحف العربية ومنعها

كنا في حصصنا الماضية[1] أفضينا الحديث عن مجموع الصحافة الجزائرية العربية، ابتداء من عهد الاستعمار، إلى عهد اليقظة في عهد المقاومة القلمية الأولى إلى عهد المقاومة السياسية، وحيث انتهى بنا الحديث في حصتنا الأخيرة إلى الحديث عن الصحافة التي صدرت بعد الاحتفال المئوي، ونرى من الصواب أن نجمل القول عن بقية المراحل، حيث قد أعطينا للقارئ الكريم صورة عامة عن صحافة الإصلاح وصحافة العملاء واستعرضنا نماذج مختلفة للمواضيع التي كانت تعالجها.

نحن الآن على أبواب سنة 1933 وهي السنة التي سجلت أضخم رقم في تاريخ الصحافة العربية في الجزائر،إذ يمكننا أن نلقبها بعام الصحافة، فقد صدر فيها ما يزيد عن سبع جرائد، بينما كانت السنوات التي قبلها لا تشتمل إلا على صحيفة أو صحيفتين.

والسبب في ذلك هو انتشار الوعي الوطني في سائر طبقات الأمة عن طريق الحركات الاستقلالية والحركـات الإصلاحية بالجزائـر، فحزب "نجم شمال إفريقيا" "كان يؤدي رسالته بخطى ثابتة وجريئة ويصادف كل تشجيع من طرف طبقات الأمة العظيمة، و"جمعية العلماء" عن طريق نادي "الترقي" كانت تقوم في

1 - هكذا كانت بداية الحلقة 23.

رصانة واعتدال بالاستعانة بروح العروبة وتحطيم الأصنام النحسة التي كان الاستعمار يحيها بهالة من التهويل والتقديس.

فشقت الصحافة العربية في الجزائر طريقها قدما، وازدادت نموا وازدهارا مع نمو الأحداث وانتشار الحركات الوطنية، ويزيدها عنت الاستعمار واضطهاده تحفيا وانبعاثا، فقد لاقت هذه الحركات ولاقى أحرار الجزائريين المسيرون لها كل أنواع العسف والمعاكسة من طرف الحكومات الاستعمارية المتوالية، حتى على يد من يسمون أنفسهم بالديمقراطيين التقدميين، فقد تجرأت حكومة "الجبهة الشعبية" التي كان يرأسها سنة 1936 مسيو (بلوم) على حل حزب "نجم شمال إفريقيا"، والزج برجاله في أعماق السجون، فأسس على أنقاضه أتباع الحزب المنحل حركة باسم "حزب الشعب الجزائري"[1] فعمدت السلطات لتحجيرها لمجرد اندلاع الحرب الكبرى الثانية، وظلت تعمل في الخفاء، ثم ظهرت متقمصة حركة "أحباب البيان" ثم "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" إلى أن دق جرس الثورة الجزائرية العارمة، فسكت القلم ليتكلم الرصاص.

قائمة الجرائد في بداية الثلاثينيات

فلنستعرض الآن الجرائد التي صدرت بالجزائر في هذه الفترة الحية من تاريخ كفاحها:

البرق

صحيفة اجتماعية أدبية انتقادية سياسية اقتصادية تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع مديرها وصاحب امتيازها السيد الرحموني محمد عبد المجيد، شعارها خدمة الوطن والمصلحة العامة واستثمار المال.

صدر العدد الأول منها في مارس/آذار سنة 1927.

1 – [illegible] "حزب الشعب الجزائري" [illegible] يوم 1937/03/11، وكان مفدي زكرياء أحد قادته [illegible] "الشعب".

وقد حاول مديرها طبعها بتونس، وذلك في رسالة مؤرخة بيوم 21 ماي سنة 1927 للأستاذ زين العابدين السنوسي فلم يحصل الاتفاق على طبعها بتونس.

الإصلاح

جريدة إسلامية حرة، امتيازها ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول الشيخ الطيب العقبي، وهي جريدة حرة إسلامية (حرة في مباحثها وهي دينية قبل كل شيء) تصدر مرة في الأسبوع في بسكرة ثم بالجزائر.

صدر عددها الأول يوم 08 سبتمبر/أيلول سنة 1927، ساهم في تأسيسها وتحريرها الأستاذان محمد العيد والأمين العمودي.

المبصر الإفريقي

جريدة إشهارية اقتصادية سياسية، تبرز مرتين في الشهر بقسنطينة، ذات أربع صفحات واحدة بالعربية والبقية بالفرنسية، مديرها الاقتصادي السيد سندرلي محمد الصالح، صاحب امتيازها السيد عيشاش محمد الصالح.

الإخلاص

جريدة علمية اقتصادية إخبارية (تخدم ركاب الاستعمار) وهي لسان طائفة العليوية، كتب عليها: يحررها نخبة من العلماء العاملين المعتدلين، وإنها غير انتفاعية. توزع الفاضل من أرباحها على المشاريع الخيرية الإسلامية.

تصدر يوم الأربعاء من كل أسبوع، صدر عددها الأول يوم 14 ديسمبر/كانون الأول سنة 1932 بالجزائر، رئيس تحريرها المولود بن الصديق الحافظي الازهري، مديرها السيد عمر اسماعيل.

المرصاد

جريدة دينية أخلاقية، تصدر كل يوم جمعة بالجزائر صدر عددها الأول في 31 ديسمبر/كانون الأول 1931 مديرها شاعر الأعراش محمد عبابسة الأخضري، وصاحب امتيازها (جوكلاري محمد الشريف) تطبع بالمطبعة العربية بالجزائر.

لسان حال الجمعية الودادية للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا.

تصدر باللغتين العربية والفرنسية، صدرت بالجزائر في 4 نوفمبر/ تشرين الثاني 1932 مديراها السيدان علي الزواوش ومصطفى علواش، ووكيلها باسعيد بحدون بن بكو.

المعيار

جريدة سفيهة بذيئة، أسسها سفهاء الطريقة العليوية للنيل من أغراض العاملين في الحقل الإصلاحي والوطني في الجزائر، تغذيها الإدارة الاستعمارية.

تصدر مرتين في الشهر، مديرها هراس مصطفى، ومحررها جهينة، صدر العدد الأول منها في شهر ديسمبر سنة 1932.

الجحيم

جريدة فكاهية انتقادية، أصدرها سفهاء "جمعية العلماء" للرد على "المعيار" بلغة جريدة المعيار.

تطبع بالجزائر، وتصدر أسبوعيا، برز عددها الأول في مارس سنة 1932[1].

الحياة

صحيفة جامعة تصدر مرتين في الشهر تحت إشراف جمعية "الوفاق" وإدارة كاتبها العام بحررها مفدي زكرياء، صاحب امتيازها (حوكلاري محمد الشريف). صدر عددها الأول غرة أفريل سنة 1932 تطبع بالطبعة العربية بالجزائر.

الشريعة

لسان حال "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع بقسنطينة تحت إشراف الأستاذ عبد الحميد بن باديس، برأس تحريرها الأستاذان العقبي والزاهري، صاحب امتيازها السيد أحمد بوشمال.

1 – قد يكون هناك خطأ مطبعي، لأن أول عدد من "الجحيم" صدر يوم 30 مارس 1933 وآخرها العدد السابع الصادر يوم 11ماي 1933

صدر العدد الأول منها يوم 17 جويلية/تموز 1933، صدر منها ستة أعداد فقط ثم عطلتها الحكومة[1].

الحارس

جريدة انتقادية أخلاقية.

صدر عددها الأول بمدينة الجزائر يوم الجمعة 04 أوت/ آب 1933، مديرها المسؤول ومحررها السيد غريب عبد الرحمان، صاحب امتيازها المسؤول السيد جوالبل ماسي.

الصراط السوي

لسان "حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" تصدر يوم الاثنين من كل أسبوع تحت إشراف الأستاذ عبد الحميد بن باديس برأس تحريرها الأستاذان العقبي والزاهري، صاحب امتيازها أحمد بوشمال.

صدر العدد الأول منها يوم 11 مارس/آذار 1933 بقسنطينة، برز منها سبعة عشر عدد فقط ثم عطلتها الحكومة[2].

الثبات

جريدة اجتماعية سياسية وأخلاقية تصدر يوم الجمعة بالجزائر مديرها السيد محمد عابسة الأخضري، صاحب امتيازها حوكلاري محمد الشريف، صدر عددها الأول في 19 جانفي/كانون الثاني 1934، تطبع بالطبعة العربية بالجزائر.

البصائر

لسان حال جمعية العلماء بالجزائر، أسبوعية، صاحب امتيازها الأول للشيخ محمد خير الدين، ومديرها الأول الشيخ الطيب العقبي، ثم انتقلت إلى قسنطينة يوم 27 ديسمبر/كانون الأول 1935، وعطلتها الحكومة في سنة 1957[3].

1 – صدرت الشريعة ابتداء من يوم 17 جويلية 1933 ومنعت يوم 28 أوت 1933.
2 – تذكر أغلب المراجع أن "الصراط السوي" قد صدر منها 17 عددا، ابتداء من 11 ديسمبر 1933 إلى 08 جانفي 1934 ويتضح أن هناك خطأ مطبعيا.
3 – لجريدة "البصائر" سلسلتان، الأول كانت قبل الحرب العالمية الثانية من 1935/12/27 إلى سبتمبر 1939 والثانية كانت بعد الحرب ابتداء من 1947/07/25 إلى أفريل 1956 ولا شك أن المؤلف قد كتب ذلك من ذاكرته.

الليالي

نشرة فكاهية انتقادية تصدر مرتين في الشهر بالجزائر مديرها ومحررها السيد علي بن سعد، صاحب الامتياز جوكلاري محمد الشريف.

صدر عددها الأول يوم 8 فيفري / شباط سنة 1936.

السنة النبوية

لسان حال "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" يحررها الأساتذة ابن باديس والعقبي والزاهري، برز العدد الأول منها يوم 18 ديسمبر/ كانون الأول سنة 1933[1].

أبو العجائب

نشرة فكاهية نقدية تهذيبية. تصدر صبيحة كل يوم خميس بقسنطينة، صاحب امتيازها ابن الباي محمد، ورئيس تحريرها السيد العابد الجلالي.

صدر عددها الأول يوم 24 ماي / أيار 1934.

المغرب العربي

جريدة سياسية أدبية اجتماعية، لسان حال "الشبان المسلمين"، مديرها وصاحب امتيازها السيد محمود بيلي، رئيس تحريرها السيد حمزة بوكوشة، تصدر يوم الجمعة.

برز عددها الأول يوم 21 ماي/أيار سنة 1937 بوهران[2].

الميدان

جريدة اجتماعية سياسية، تبرز كل يوم أحد مديرها ومحررها السيد حسن الوارزقي، صاحب امتيازها الحاج الطيب بن حملة، صدرت بقسنطينة يوم 03 مارس 1937.

---

1 - صدرت "السنة النبوية" ما بين 10 افريل و03 جويلية 1933.

2 - [illegible] 1938 [illegible] "المغرب العربي" [illegible] 1947/03/13 [illegible] 1956.

الوفاق

جريدة سياسية أسبوعية تصدر بوهران كل يوم ثلاثاء، مديرها ورئيس تحريرها محمد السعيد الزاهري، صدر عددها الأول في 23 مارس/آذار سنة 1938[1].

الشعب

لسان "حزب الشعب الجزائري"،محررها مفدي زكرياء ومحمد قنانش، صدر منها عددان، اعتقل محررها الأول بعد صدور العدد الأول، ومحررها الثاني بعد صدور العدد الثاني.

ظهرت يوم 25 أوت سنة 1937.

الجزائر الجديدة

جريدة تصدرها بعاصمة الجزائر هيئة "الحزب الشيوعي"، صدر العدد الأول منها سنة 1943[2].

النصر

مجلة حكومية، أصدرتها الإدارة الفرنسية بالجزائر للدعاية سنة 1945.

المغربي العربي ..أيضا

أسبوعية يديرها ويحررها محمد السعيد الزاهري، يساندها حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" صدر عددها الأول يوم 13 جـوان (حزيـران) سنة 1947 بالجزائر[3].

العبقرية

تهتم بالآداب، والعلوم والفنون، شهرية، يديرها ويحررها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، صدر العدد الأول في شهر ماي /أيار سنة 1947.

---

1 - احتجبت صحيفة "الوفاق" في جويلية 1940 .

2 - بعض المصادر تذكر أن صحيفة "الجزائر الجديدة" صدرت في جويلية سنة 1947 واحتجبت في سبتمبر سنة 1955.

3 - انظر الهامش 8 أعلاه.

الوطن

جريدة وطنية تصدر مرتين في الشهر بعاصمة الجزائر، لسان "حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري"، مديرها السيد فرحات عباس.

صدرت في شهر مارس / آذار سنة 1948.

صوت المسجد

مجلة شهرية دينية، لسان حال الطرقية، الادارة والامتياز لمحمد العاصمي رئيس الجمعية الودادية الدينية بالجزائر.

صدر عددها الأول في شهر أكتوبر/تشرين الأول سنة 1958[1].

إفريقيا الشمالية

شهرية، علمية، أدبية وسياسية يديرها ويرأس تحريرها إسماعيل العربي.

صدر العدد الأول منها في شهر ماي / أيار سنة 1948[2].

الشعلة

جريدة أسبوعية لسان جمعية العلماء، امتيازها للصادق حماني وتحريرها لأحمد رضا حوحو وإدارتها لأحمد بوشمال صدر عددها الأول في 15 ديسمبر/كانون الأول سنة 1949[3].

عصا موسى

جريدة نصف شهرية مديرها مبارك بن عبد القادر يحررها نخبة من الشبان والإصلاحيين صدر العدد الأول منها في 20 جويلية / تموز سنة 1950 بالجزائر[4].

---

1 - لا شك أن هناك خطأ في الرقم، إذ أن "صوت المسجد" قد صدرت يوم 1948/10/08 واختفت في جانفي 1951.

2 - اختفت "إفريقيا الشمالية" في ماي 1949.

3 - لسان حال "جمعية العلماء" هي "البصائر" أما الشعلة فكانت جريدة إصلاحية تابعة للجمعية، توقفت عن الصدور في فيفري 1951.

4 - بعض المراجع تذكر أنها صدرت [illegible] في 31 أوت 1950، وكان عنوانها [illegible] على صحيفة "الشعلة".

الدعوة

أسبوعية مديرها أبو بكر جابر، محايدة صدر عددها الأول في 11 نوفمبر / تشرين الثاني سنة 1950.

النشاد

جريدة حكومية، تستدل بأحداث النشاد، صدرت في 13 أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1950 بالجزائر.

المنار

جريدة نصف شهرية، سياسية، ثقافية، يديرها ويحررها محمود بوزوزو، صدرت في 23 مارس 1951[1].

هنا الجزائر

لسان الإذاعة العربية لراديو الجزائر، شهرية ظهرت في شهر ماي/أيار سنة 1952.

الجمهورية الجزائرية

جريدة سياسية لسان حال حزب "أحباب البيان" صدرت بالجزائر في 1952.

صوت شمال إفريقيا

حكومية تصدرها الإدارة الفرنسية بالجزائر صدرت في شهر جانفي/ كانون الثاني 1954.

مصور إفريقيا والشرق

نشرة مصورة، ملحق لجريدة "الجمهورية الجزائرية" أصدرها الأستاذ فرحات عباس 1954.

---

1 - صدرت "المنار" في مارس 1951 وتوقفت عن الصدور في جانفي 1954.

وهي دينية، لسان حال "الشباب الموحدين"، مديرها الأستاذ أبو القاسم دبقو، صدرت في 30 أوت / آب 1952.

صوت الجزائر

جريدة أسبوعية جامعة، نصف شهرية مديرها مصطفى فروخي وهي لسان "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية"

صدر عددها الأول يوم 20 نوفمبر / تشرين الثاني 1953[1].

صوت الشعب

أسبوعية سياسية، لسان حزب "الانتصار للحريات الديمقراطية" مديرها مولاي مرباح رئيس تحريرها عبد الحميد مهري، صدر العدد الأول منها يوم 21 جويلية / تموز 1954[2].

المقاومة الجزائرية

لسان حال "جبهة التحرير الوطني الجزائري"، تصدر بتونس نصف شهرية ابتداء من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1956[3].

الشباب الجزائري

لسان حال جبهة التحرير الوطني الجزائري، شهرية، تصدر ابتداء من أفريل/ نيسان 1959.

المجاهد

جريدة ثورية، "اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني الجزائري"، ظهرت للوجود خلفا عن "المقاومة الجزائرية" سنة 1957 تطبع بتونس وهي لا تزال قائمة برسالتها الثورية.

---

1 – توقفت "صوت الجزائر" عن الصدور في نوفمبر 1954.
2 – توقفت "صوت الشعب" عن الصدور في نوفمبر 1954.
3 – [illegible] في 1956/08/20 الذي [illegible]

هذه أيها القارئ الكريم قائمة الجرائد العربية بالجزائر التي صدرت خلال فترة الكفاح السياسي، واستمرت إلى يوم اندلاع الثورة الجزائرية ومن خلالها يتضح لك أن الجزائر لم تضيع عروبتها قط رغم المحن والأهوال، سواء في أيام محنتها السوداء، أو في عهد انبعاثها، والنصر للحق والغلبة للضمير، والعزة للمغرب العربي الكبير.

أضواء على وادي ميزاب
ماضيه وحاضره

مراجعة وتعليق

جابر عبد الحميد باعمارة



تقديم

لقد كان ميزاب منذ نشأته الأولى مسرحًا لدراسات عديدة، يمكن أن تكون أوّلها تلك الّتي قام بها بعض المستشرقين والمبشرين قصد تهيئة الأرضيّة لاستقرار الاستعمار وتثبيت أقدامه في أرض الجزائر، وجاءت الدّراسة الموسومة "أضواء على وادي ميزاب" الّتي أنجزها الأستاذ مفدي زكرياء بين سنتي 1960 و1961، لتضاف إلى هذا الزّخم من الدّراسات، لكن بتميّزها عن سابقاتها، من حيث الغاية الّتي جاءت من أجلها، وحتّى بكونها أوّل دراسة عن ميزاب وأهلها، يقوم بها أحد أبناء هذا الجزء من الوطن العزيز الجزائر[1]، بهذا التّفصيل الّذي يشمل شتّى مجالات حياة بني ميزاب ومن جاورهم من قبائل أخرى، من حيث النّشأة والعادات والتّقاليد، نظمهم السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة.

فكان لمفدي زكرياء أن كتب هذه الأسطر ليبيّن حقيقة هؤلاء الميزابيين الّذين عاشوا في معزل نسبي عن إخوانهم الجزائريين، فالكثير من إخوانهم، ممّن جاورهم أو حتّى من أبناء الوطن الكبير، لا يعرفون الكثير عن هؤلاء الّذين برعوا في التّجارة، وأقاموا لأنفسهم أطرًا متميّزة، خاصّة في الجانب التّعبّدي.

وقد وجدنا هذه الدّراسة الّتي تقع في 97 صفحة من حجم (أ4) مرقونة في أوراق على شكل حصص، مجموعها 19 حصّة مرقّمة عدا الحصّة الأخيرة الّتي كانت مكتوبة باليد وليس بها ترقيم، وقد أذيعت من تونس خلال سنة 1961 وقد احتفظنا على العناوين الّتي وضعها مفدي بداية كلّ حصّة وأضفنا إليها بعض

1 - وجاءت بعد الاستقلال دراسات عديدة حول ميزاب والميزابيين قام بها أبناء هذه المنطقة، ونذكر من بين هذه الدّراسات: "وادي ميزاب في ظلّ الحضارة الإسلاميّة"، تأليف بكير بن سعيد أعوشت، المطبعة العربيّة - غرداية (1991)؛ "ميزاب بلد كفاح"، تأليف الشيخ إبراهيم بن محمّد طلاّي، طبع دار البعث - قسنطينة (1970)؛ "دور الميزابيين في تاريخ الجزائر، قديمًا وحديثًا"، تأليف حمو محمّد عيسى النوري، في أربعة أجزاء، طبع دار البعث - قسنطينة؛ "معجم أعلام الإباضيّة، من القرن الأوّل الهجري إلى العصر الحاضر"، تأليف: د. محمد بن موسى بابا عمّي، د. مصطفى بن صالح باجو، د. إبراهيم بن بكير بحّاز، أ. مصطفى بن محمّد شريفي، نشر جمعيّة التراث - القرارة، طبع دار الغرب الإسلامي - بيروت (1421هـ/2000م)

العناوين الفرعيّة والهوامش لتسهيل عمليّة القراءة والبحث في هذه الدّراسة القيّمة، مع العلم أنّ المؤلّف قد وضع بعض الهوامش لدراسته أشرنا عليها بعلامة (*)؛ كما حذفنا من النّص الأصلي بعض العبارات الإذاعيّة مثل "أخي المستمع أختي المستمعة"، والعبارات التي كان مفدي يفتتح ويختتم بها حصصه، كي تصبح متنًا واحدًا، وقد أشار رحمه الله إلى ذلك في ورقة مستقلّة، بخطّ يده، وجدناها مع مجموع الحصص، مكتوب عليها:

"من المفيد جدًّا ترجمة جميع النّصوص وإذا لم يتمكّن من ذلك فمن الضّروري تعريب النّصوص التي عليها هكذا (#)[1] وفي حالة ما إذا ترجمت جميع الحصص، فإنّ لي حصصًا أخرى، رقم 19، 20، 21، 22، 23، 24.

المرجو حذف كلمات (المستمع الكريم)، و(السّلام عليكم ورحمة الله) لأنّها اصطلاحات إذاعيّة".

وفي هذا السّياق تجدر الإشارة إلى أنّنا لم نحصل على الحصص التي ذكرها في الفقرة أعلاه ولا ندري هل الحصّة المخطوطة ضمن ما ذكر أم لا، والرّاجح أن تكون ضمنها لأنّ الحصص المرقونة مرقّمة إلى غاية الحصّة 18، والغير معروف هو ترتيب الحصّة المخطوطة بالنّسبة لما ذكر أي بين 19 و24، كما أنّنا لم نفهم من أي لغة وإلى أية لغة طلب الأستاذ مفدي ترجمة هذه الحصص، فهو يقول في تلك الورقة ترجمة ثمّ يقول تعريب!

هذا إلى جانب نصّ مخطوط تحصّلنا عليه من مكتبة جمعيّة "أبي إسحاق لخدمة التّراث"، بغرداية، اعتمدنا عليه كثيرًا في عمليّة الرّقن لعدم وضوح الحصص المرقونة، وقد جاءت هذه الفقرة في نهاية هذا المخطوط:

"انتهى ما وجدته من ورقات هيئت لتقدم للطبع وطبع منها نموذج بتونس".

1 - الحصص المشار عليها بهذه العلامة هي الحصص رقم: 2، 6، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15.

وفي صفحة أخرى:

"فيما يلي الدراسة التي شرع فيها الأستاذ الحاج الناصر[1] والشاعر الكبير مفدي زكرياء وعزما على إكمالها وإصدارها كتابًا وهي دراسة عن ميزاب والميزابيين، وذلك إبّـان المحنـة[2] القاسيـة التي حوربـه بها الميـزابيـون.. من المقاطعـة الاقتصاديـة لتجارتهم في الشمال واستمرت هذه المقاطعة بعض أشهر وذلك في 1 جوان 1955.

ولكن من الأسف أن هذه الدراسة القيمة لم تظهر إلى الوجود إذ لم يقدر لها الانتهاء..

الناسخ هو الشيخ إبراهيم طلاي[3] الأصل موجود عنده."

انتهى النّص.

غير أنّ هذا المخطوط الذي ذكرناه ليس كاملاً فهو ينتهي إلى غاية الاحتلال العسكري لميزاب سنة 1882.

ومن الجدير بالذّكر أنّ هذه الحصص كانت لدى الأستاذ عبد الحميد مهري، الذي ذكر في إحدى شهاداته حول المرحوم مفدي زكرياء، أنّه حين بدأت السّلطات الاستعماريّة في مراوغاتها لفصل الصّحراء عن الجزائر، حال في نفسه

1 - الحاج الناصر محمّد "الكبير": وهو خال المرحوم مفدي زكرياء، ولا يزال على قيد الحياة وهو يعيش حاليًا بالمملكة المغربية الشقيقة.

2 - فقد تعرّض التجّار الميزابيون إلى مقاطعة من طرف سكّان العاصمة والبليدة وبعض المدن المجاورة لها، دامت هذه المقاطعة قرابة السّنة (من ماي/جوان 1955 إلى أفريل 1956)، انتهت بتدخّل جبهة التحرير الوطني لإنصاف هؤلاء التجّار الذين كانوا من طلائع المجاهدين والفدائيين، كما شهدت لهم بدعمهم للثّورة التحريريّة المظفّرة ماديًا ومعنويًا، فقد كانت بعض متاجر الميزابيين في الشمال مراكز للثّورة المباركة تجمع فيها التبرّعات وتنشر من خلالها مناشير جبهة التحرير الوطني، وكانت مخبأً للفدائيين الذين يخوضون عمليّاتهم داخل المدن، فكانوا يتحصّنون فيها إلى حين.. هذه المقاطعة التي أشرنا إليها كانت من حركة الإدارة الاستعماريّة التي تنهض سياستها على مبدأ "فرّق تسُد"، فكانت وراء بعث النّعرات القبليّة والمذهبيّة بين أبناء الوطن الواحد، وساهم في إذكاء نار هذه الفتنة جماعة من صنيعة الاستعمار من المصاليين الذين هيّئوا لهذه المقاطعة وأشعلوا نارها وفي مقدّمتهم عميل للمخابرات الفرنسيّة المدعو رفاوي، وقد تمّ تناول دور مفدي زكرياء في إطفاء نار هذه الأزمة الدكتور سليمان الشيخ والدكتور محمّد عيسى وموسى في محاضرة بمناسبة الملتقى الدّولي مفدي زكرياء شاعر التحرّر (15 و16 مارس 2006).

3 - الشّيخ الحاج إبراهيم طلاّي من مشائخ ميزاب المعاصرين، عضو حلقة عزّابة بني يزقن، له آثار عديدة، أهمّها تحقيقه لتفسير الشّيخ محمّد بن يوسف اطفيّش "قطب الأئمة" للقرآن الكريم والموسوم "تيسير التفسير" إلى جانب كتب أخرى نذكر منها كتاب "ميزاب بلد كفاح" الذي اعتمدناه إلى جانب كتب أخرى للتعليق على هذه الدّراسة.

ريب في أن يستسلم سكّان الصّحراء للإغراءات التي وعدتهم بها حكومة الاحتلال،
وقد كان حينئذ وزيرًا للشّـؤون الاجتماعيّـة بالحكومـة المؤقّتة بتونس، وذكر
لمفدي زكرياء ذلك الرّيب الذي يجول بخاطره، إلاّ أنّ مفدي زكرياء سارع وقدّم
له هذه الحصص قائلاً: خذ وطالع كي تعرف من هم سكّان الصّحراء الجزائريّة،
وسلّم الأستاذ عبد الحميد مهري هذه الحصص للدّكتور سليمان الشّيخ نجل
الأديب الكبير مفدي زكرياء، مستيقنًا بعد تصفّحها أنّ الصّحراء ستبقى ولا تزال
جزائريّة.

جابر عبد الحميد باعمارة

الأمين العام لمؤسّسة مفدي زكرياء

مقدّمة[1]

ميزاب، أو وادي ميزاب، واحة بالجنوب الجزائري، تتألّف من سبعة قرى أو قصور[2]، وهو جزء لا يتجزّأ من مجموع الوطن الجزائري إلاّ أنّ ظروفًا خاصّة، تاريخيّة، أحاطته بإطارات غامضة، وتقاليد مركزيّة، لا يعرفها الكثير من أبناء المغرب العربي، وقد يجهلها قسم من الجزائريين، ونحن في هذه الدّراسة نحاول على إيجاز أن نقدّم للقارئ الكريم عرضًا نأمل أن يكون شاملاً وقريبًا من الدقّة لأهمّ معالم الحياة بوادي ميزاب ("معالم حياة بني ميزاب") منذ نشأته الأولى إلى الآن، من حيث الطّابع المذهبي، ومن حيث النّظام الاجتماعي والاقتصادي، والسّياسي، وهذه الخصائص والمميّزات تطوّرت مع الأيّام حتّى أصبحت ظاهرة يمكن أن تدرس مستقلّة بذاتها إلى حدّ ما. وفي دراستنا تحديد لهذه الحالات، وتعيين لما نشأت عنه، أو نشأت عنها من ظروف وملابسات.

ونشأة ميزاب وتطوّره وطبيعته حالات جعلت من هذا الجانب القصي من الوطن الجزائري ما يشبه أن يكون قطرًا صغيرًا له خصائص ومميّزات تطوّرت مع الأيّام وتجدّدت حتّى صنعت له ظروفًا تاريخيّة وواقعيّة خاصّة.

وفي كلّ باب من الأبواب المقبلة تحديدٌ لهذه الحالات وتعيين لما نشأت عنه ونشأ عنها من ظروف وخصائص لا نحرص فيه على الطّابع العلمي بقدر ما نحرص فيه على الإيجاز أو التّبسيط، وإن كنّا مقيّدين بالحقائق التّاريخيّة والواقعيّة لا نبيح لأنفسنا أن نعدوها أو ننقص منها تبعًا لما يقتضيه الإيجاز والتّبسيط.

وهذه الظّروف الخاصّة التي أشرنا إليها آنفًا أتاحت للسّياسة الاستعماريّة منذ ابتليت الجزائر بالاحتلال الفرنسي مرتعًا خصبًا ومركزًا يبدو -إلى الأمس القريب- وطيدًا، حصنًا أمينًا.

---

1 - هذه هي الحصّة الأولى من سلسلة أضواء، وقد ارتأينا أن تكون مقدّمة هذا الكتاب كما أراده الكاتب، فيها يشرح مفدي زكرياء هذه الدّراسة والهدف من وراء إنجازها، وهي واقعة في ثلاثة صفحات.

2 - القصر يطلق على قرية أو مدينة وادي ميزاب كونها تشبه القصر وهي محاطة بسور به عدّة بوابات تفتح في الصّباح وتغلق في الليل، كما يضم هذا السّور أبراج مراقبة في مواقع إستراتيجيّة منه.

فجليٌّ أنّ السّياسة الاستعماريّة و-خاصّة عند اللاتينيّين- إنّما تنهض على قاعدة "فرّق تسُد" وهذا التّميز الذّاتي الذي اتّسم به ميزاب، لا سيما ما يتّصل بالدّين أو بالأحرى الخلافات المذهبيّة بين عناصر تكوينه، وصغر هذا الجانب من الوطن الجزائري وقحوله وقلّة سكّانه وحاجتهم إلى الهجرة منه شطر الجوانب الخصبة الأخرى ابتغاء تعميره، كلّ ذلك أتاح للسّياسة الاستعماريّة البيض والتفريخ والنّماء، فكان أن عانى الميزابيون من جهة، وسائر أبناء الوطن الجزائري من جهة أخرى، ظروفًا شتّى من محن المكائد الاستعماريّة التي تهدف أبدًا إلى إيجاد الفرقة والجفوة والتّشاكُس والصّراع بين أبناء الوطن الواحد.

ومع أنّ المسافة منذ أُلغيت، أو كادت تُلغى، حتّى بين لأوطان البعيدة فضلاً عن أجزاء الوطن الواحد، وأنّ الخلافات الدينيّة قد امّحت أو كادت تنمحي، حتّى بين المتشاكسين من أتباع الأديان المختلفة فضلاً عن أبناء الوطن الواحد، فإنّ الأساطير ما فتئت تُحاك وتردّد قبل الثّورة الكبرى، وتجد لها في بعض النّفوس المريضة مجالاً حول ميزاب وسكّان ميزاب المسلمين، فكان من أثر ذلك أن استمرّ الرّيب، بل وشيء من عدم التّعارف والانسجام بين الميزابيين وبين إخوانهم الجزائريين، وتلك حالٌ خليقة بأن تهيّئ أفقًا صالحًا لإشاعة الفتنة بين الطّرفين كلّما ارتأت السّياسة الاستعماريّة أن من منفعتها اللّعب بورقة الأقليات.

ولقد كان من الممكن أن تستمرّ في إيكال القضاء على هذه الحال إلى تطوّر الأمّة الثّقافي وتطوّر الوعي الوطني والإنساني، وتطوّر الاختراعات التي ظلّت تعمل على طيّ الأبعاد والمسافات، حتّى لتوشك أن تجعل من العالم علبة صغيرة يزحم في عينيك أقصاها أدناها.

لولا أن يسّر الله للأمّة الجزائريّة الماجدة أسباب الوثوب والسّباق مع الزّمن وتطوّراته فإذا الأحداث تمخّض عن بروز الدّولة الجزائريّة المستقلّة من جديد مخاضًا أفقد السّياسة الاستعماريّة صوابها فراحوا يتخبّطون ويخلطون في التماس أسباب

الإبقاء على الوضع الشّاذ المسيطر على الجزائر منذ ما يربو قرن وربع، وكان من حيلهم هذا وخلطهم أن حاولوا صرف الأمّة المجاهدة عنهم إلى نفسها بإشاعة الفتنة مرّة أخرى بين عناصرها. فكان أن برزت وساوس حول ميزاب والميزابيين من جديد، حول وطنيّتهم حينًا وحول عروبتهم ودينهم حينًا آخر، وربّما حول بعض نظمهم الاجتماعيّة التي يعتزّون بها كأحسن ما احتفظوا به منذ أقدم العصور، وذلك بعد أن فشلوا في إثارة الفتنة البربريّة بأوراسْ والقبائل لأنّها مهد الثّورة المقدّسة، وجليٌّ أنّ واجب كلّ عربي مسلم في هذه البلاد أن يعمل جهده على إحباط ما يستطيع إحباطه من التّدابير الاستعماريّة إمدادًا للقوّة العاملة على استعادة حرّيتنا وكرامتنا وإسهامًا في إعادة بناء دولتنا من جديد.

لهذا الاعتبار -و له وحده- كتبنا هذه الصّفحات على أمل أن يكون -بما انبثقت عنه من قصد نبيل وفيما انطوت عليه من قصد أصيل- قضاءً على هذه الوسيلة البالية التي تلجأ إليها السياسة الاستعماريّة كلّما لزّها وعي الأمّة إلى مهمّة أضاع عليها رشدها وأضلّها عن هداها، وعاملاً قويًا لا على توثيق عرى التّعارف والانسجام فحسب، بل ووشائج الحب والامتزاج بين أبناء الوطن الواحد والدّين الواحد، والقوميّة الواحدة، فمهما اختلفت اللّهجات المحلّيّة أو بعض الآراء، دينيّة كانت أم مدنيّة بجماعات من الأمّة الجزائريّة فلن يبلغ منها هذا الاختلاف إلى تمايز أو تفرّق بعد أن تضافرت عوامل الطّبيعة واللّغة والدّين على صهرها في بوتقة واحدة وجعلها أمّة واحدة، ثمّ جاء الاستعمار فزادها بخطوبه وأهواله وحدة والتحامًا، ثمّ تُوّج بالجهاد وبارك بالدّماء الزكيّة هذه الوحدة وهذا الالتحام فأصبحا قدسًا خالدًا.

وجليٌّ أنّ الثّورة التي تجتثّ اليوم أسس الوضع الاستعماري الشّاذ من الوطن الجزائري الماجد بالحديد والنّار، ليست إلاّ تطوّرًا طبيعيًّا للكفاح المتواصل في أشكاله المختلفة والذي دأبت عليه الأمّة الجزائريّة قاطبة ودون تمييز منذ دنّست أقدام المستعمرين أرض الجزائر.

والباحث المؤرّخ لا يجد أيّ تمايز بين أنحاء الوطن المختلفة على تباعدها فيما تلك الأمّة الجزائريّة تبذله من جهاد تحرّري طيلة قرن وربع، فإذا اختلفت الظّاهرة الواحدة في جانبين أو أكثر من جوانب هذا الوطن فإنّ الجانب الذي يختلف اليوم في مرحلة يسبق في المرحلة الأخرى.

وفي الصّفحات المقبلة سيجد القارئ حقائق تدمغ تلك الأقاويل التي كان يرجف بها المستعمرون عن الميزابيين فيزعمون أنّهم قعدوا عن الأمّة في جهادها وقصّروا فيما عليهم للوطن، وكانوا لخصومه منفذًا إلى أعماقه أو مركزًا بين جوانبه أو سندًا حين يلزّه جهاد الوطنيّين إلى المآزق. ويجد أيضًا شواهد عمّا بذله جميع سكّان الجزائر من غير ما فرقٍ ولا ميزٍ في سبيل إنشاء وإنماء النّهضة الوطنيّة الجزائريّة في مختلف نواحيها الثّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة بل والدّامية أيضًا، ونحن نعلم إذ نعرض هذه الحقائق أن أناسًا سيحاولون الغضّ من قيمتها حميّة وتعصّبًا، ونحن إذ نعرضها لا نعرضها ابتغاء وجه هؤلاء وأولئك، ولكن إفادة للذين يريدون أن يهتدوا إلى الحقّ وأن يرفعوا من أبصارهم وبصائرهم أسباب الرّيب وأن يصافحوا كلّ يدٍ تمتدّ إليهم للتّعاون على تحقيق أهداف الوطن المثلى من جديد وعرى الوحدة وتعضيد قوى الجهاد والتّحرير[1].

مفدي زكرياء

1- [illegible]

موقع وجغرافية ميزاب[1]

فيما بين وادي ميزاب بالجنوب الغربي ووادي زقرير[2] بالشمال الشّرقي تقع منطقة تقدّر مساحتها بحوالي أربعمائة ألف هكتار، تتألّف من سلسلة من هضبات قليلة الارتفاع تجعل منها شبه منطقة مستقلّة عسيرة الاتّصال بما يجاورها من مناطق الصّحراء الجزائريّة الأخرى، كما تجعل صفحتها المتكوّنة أحجار الجصّ والمنبسطة الأفق قليلة النّبات وحشيشه، وكان من الممكن أن لا تعرف الزّخرف أو الحياة المؤنسة لولا أن قدّر لها أن تزدهر، رغم كلّ العوامل الطّبيعيّة القاسية، على يد الإنسان الذي لا يستعصي عليه أمرٌ حين يريد.

هذه المنطقة اصطلح منذ القديم تسميتها "ميزاب" تقع من عاصمة الجزائر على بعد 600 كلم إلى الجنوب الغربي، في أعماق القسم الرّملي "العرق" من الصّحراء الجزائريّة، وواضح أنّ شيئًا من طبيعتها ما كان ليشجّع على تعميرها، كلّا، ولا على التوقّف عندها إلاّ للدّراسة الجيولوجيّة، فهي إلى جانب قسوة أرضها التي أشرنا إليها آنفًا قاسية الطّقس، جافّة ترتفع فيها درجة الحرارة صيفًا حتّى قد تجاوز الخمسين درجة مئويّة وتنزل شتاءً إلى أكثر من درجة تحت الصّفر، وتتراوح كمّيّة الأمطار التي تنزل فيها خلال السّنة ما بين 31 و101 ملم، وليست لها أوعية طبيعيّة لحفظ ما ينزل فيها من المياه، فصفحتها الرّمليّة لا تلبث أن تمتصّ ما يجتمع في أوديتها من هضابها ذات الارتفاع القليل.

لكن إرادة الإنسان التي أنشأتها ظروف مختلفة في عواملها وأوقاتها، بيد أنّها كانت دائمًا قاسية قسوة تبلغ أحيانًا مستوى الشدّة والمرارة البائسة، جعلت من هذه المنطقة القاحلة الصمّاء الموحشة، مثابة لطائفة من سكّان الجزائر والمهاجرين إليها من أصقاع أخرى أخذت مع مرور الزّمن تتطوّر وتتحضّر وتزدهر حتّى استحالت واحات يكاد واقعها ينكر نسبها الأوّل لولا ما يزال محيط بها من كلّ

1- بداية المقدمة الثانية الواقعة في خمسة صفحات.
2- زقرير: وادٍ ناحية القرارة.

جانب من رمال الصّحراء الجافّة وهضابها الصمّاء القائمة هنالك أبدًا كأنّها لتعلن لها معالم نسبها الأصيل. بل وحتّى فرضت نفسها فرضًا قويًّا جاها على تاريخ الحضارة الجزائريّة ثمّ الإنسانيّة، فلا يستطيع الدّارس لتاريخ الحضارة في الجزائر دراسة تتّسم بالاستقصاء والشّمول، عدم العناية بآثار الإرادة البشريّة القاهرة[1] حين تقصد إلى أن تصنع من قسوة الطّبيعة وجفوتها لونًا ممتازًا من ألوان الحضارة الزّاهرة الباهرة التي جمعت بين جلال الطّبيعة السّاذجة وجمال اليد الإنسانيّة الجبّارة الصّنع.

نشأة مدن ميزاب :

وكذلك نشأت المدن الميزابيّة السّبع[2] ما بين سنة 1012 و1632 للميلاد على أنقاض قرى سبقتها إلى الوجود بأزمان لا تعرف على وجه الدقّة مداها. ولكنّها على ما يبدو ليست نازعة في العراقة، كما نشأت حول هذه المدن حدائق ومزارع ما فتئت إلى الآن ينمو أغلبها تعود على هذه المدن لا بالبهجة والرّواء فحسب بل بجانب من الغذاء الممكن أن يكفل الضّرورات الحيويّة للحياة السّاذجة، كما يمدّ بعض الكماليات من أتيح لهم من أسباب الترف ما ينفقون على أجنّتهم بسخاء جعلها تضارع من نواحي كثيرة أجمل ما عرفته الجزائر من حدائق غُلْب وجنّات فارعة، ويرجع الفضل في كثير من ذلك إلى الآبار الأرتوازيّة التي حفرت أخيرًا وبلّت لود العيش بميزاب رأسًا على عقب.

نسب الميزابيين :

ولسنا ندري على وجه الدقّة شيئًا عن أصل الذين عمّروا أو بالأحرى حاولوا أن يعمّروا هذه المنطقة قبل أوائل القرن الحادي عشر للميلاد، يوم لم تكن بينها إلاّ قرى ومساكن اندثرت اليوم جميعًا، إلاّ بقايا ضئيلة من رسوم وأطلال.

1 - [illegible]
2 - [illegible] 1012م/1060هـ [illegible]

وقصارى علمنا أن الحياة كانت قد اطمأنّت هناك لأناس اطمئنانًا جعلهم يفرغون للبحث العقلي، حتّى نزعوا في الكلام والجدل منزع الاعتزال، فكان من سكّانها دعاة جادلوا على مذهب المعتزلة، فنعثر في كتب علم الكلام للإباضيّة على آثار لمناقشاتهم وآرائهم، من أبرز هؤلاء "عيسى بن عبد الجبّار" الذي كان من سكّان منطقة العطف الحاليّة[1].

أمّا السكّان الحاليون فهم من سلالة الذين عمروا المدن السبعة الموجودة الآن، والتي يتألّف منها ما يسمّى "ميزاب"، والذين نزحوا إليها عقب انهيار دولة بني رستم[2] الإباضيّة بتاهرت[3]، نتيجة للغزو الفاطمي الكاسح والخلافات الدّاخليّة التي نخرت كيانها، وبعد أن حاولوا الاستقرار بمنطقة "وارجلان"[4] أو بالأحرى في مدينة "إسدراتن"[5] التي بلغت من الحضارة مبلغًا عظيمًا حتّى عرفت منازلها الرّخام وتعدّد الطّبقات، واتّخذت شكل قصور، ثمّ انقلبت إلى خرائب وأنقاض بفعل الحروب النّاشئة عن التعصّب الإقليمي البدائي ضدّ النّازحين[6] الذي مكّنتهم بقايا ما حملوا معهم من ثروة وما درجوا عليه من الحياة الحضريّة من الظّهور السّريع والتفوّق على السكّان الأصليين.

وقد يكون للسكّان الأوّلين[7] بقايا ولكن هذه البقايا -إن كانت لم تستطع أن تحفظ لنفسها بكيان، كلاّ ولا بمميّزات تفرزها عن النّازحين الجدد- فقد استطاع هؤلاء النّازحون أن يغمروا بأفكارهم وصفاتهم وتقاليدهم كلّ ما عسى أن يكون قد بقي من أثر للسكّان الأوّلين، ونحن نرى قراهم ومساكنهم لم يبق منها كما أسلفنا -إلاّ رسوم وأطلال-، وأن المدن الحاليّة إنّما تعاقب إنشاؤها على أيدي

1 - [illegible]
2 - الدولة الرستمية 160 هـ - 296 هـ.
3 - تيارت حاليًا.
4 - الاسم البربري لمدينة ورقلة
5 - الاسم البربري لمدينة سدراتة [illegible]
6 - [illegible]
7 - منطقة ميزاب.

أنواع هؤلاء النازحين[1]. ومع ذلك فمن الصّعب أن ندّعي بأنّ السكّان الأوّلين قد اندثروا تمامًا وإن كنّا نرجّح، استنادًا إلى خراب دساكرهم وقراهم وزوال ملعبهم وآزالهم، أنّ حرب إبادة وتشتيت قد حدثت بينهم وبين هؤلاء النازحين الذين عاشوها بروح استماتة وبما كان باعثها السّأم والبائس من الهجرة المستمرّة، وتعلّق الأمل بما في تلك المنطقة من حصانة طبيعيّة، وبقايا السكّان الأصليين التي يمكن أن تكون قد نجت من هذا الصّراع المرير، وفي الوقت نفسه أبت أن تبرح موطنها، قد رضيت لنفسها أن تنصهر في بوتقة النازحين الغالبين، ولعلّ ما يرجّح هذا ما يقول به بعض المؤرّخين من أنّ كلمة "ميزاب" التي أطلقت علمًا على المنطقة ما هي إلاّ تحريف لكلمة "مصاب" بالصّاد المهملة أو "مضاب" بالضّاد المنقوطة، وهي اسم لرئيس قبيلة كانت لها السّيطرة على تلك المنطقة قبل أن يغلب عليها النازحون، فقد لا تخلو من الغرابة إذا صحّ هذا القول، أن يقبل الغالبون، وهم إنما تحمّلوا ما تحمّلوا من وهي في سبيل مذهب ومثل، الإبقاء على اسم كبير من ناصبوهم العداء كعلم على منطقة غلبوا عليها إلاّ أن تكون الغلبة لم تتم نتيجة لقهر مبيد بل نتيجة صلح تحوّل شيئًا فشيئًا إلى اندماج وتعايش.

ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء النازحين الغالبين أنفسهم لم يكونوا من عنصر واحد، ولم تكن لهم جامعة تجمعهم إلاّ جامعة المذهب الإباضي التي كانت بعد زوال الدّولة الرّستميّة سببًا في ما عانوه من مطاردة واضطهاد، ومن المتعذّر وإن لم يكن من المستحيل معرفة العناصر الأصليّة التي انحدروا منها، وكلّ ما يمكن التحقّق منه هو أنّهم مزاج أمشاج من أجناس شتّى كان يظلّهم العلم الرّستمي، ودراسة سطحيّة للغة الميزابيين توضّح لنا كيف أنّهم لم يخلصوا بألسنتهم للهجة معيّنة من اللّهجات البربريّة كلاّ ولا للهجة أمشاج من اللّهجات البربريّة أو معظمها، فالعربيّة تكوّن من لغتهم جانبًا ظاهرًا وإن كانت البربريّة أو الميزابيّة[1]، قد غيّرت صيغتها بحيث تتجانس مع الألفاظ الأخرى التي تكوّن الجانب الآخر من هذه اللّغة، والأمر الوحيد الذي يمكن الاطمئنان إليه هو الجانب الغالب من أولئك النازحين الأوّل أو على الجانب الذي كانت له السيادة والكلمة فيهم هو من مختلف البطون البربريّة، وتدلّ على ذلك أسماء الشّوارع وبعض أعلام الرّجال والنّساء في المدن التي سبقت إنشاء ميزاب، فهناك من أسماء الشّوارع منها أسماء لا تزال إلى الآن أعلامًا على مدن وقرى في منطقة "القبائل الكبرى" بالجزائر، و"جربة" بتونس، والمدن البربريّة بالمغرب الأقصى، وفضلًا عن ذلك فإنّ غلبة الكلمات ذات الأصل البربريّة على اللّغة الميزابيّة دليل على أنّ الجمهرة الغالبة من النازحين إمّا أن يكونوا بربرًا صرحاء أو أن يكونوا متعربين، أعني عربًا وفرسًا هاجروا منذ أوّل الفتح إلى الجزائر فاضطرّتهم مقتضيات التعامل إلى أن تغلب البربريّة على ألسنتهم، وهذا ما نراه أدنى إلى المعقول لاسيما حين نرى النسّابين الميزابيين يصرّون على وصل العشائر الميزابيّة لا بالنّسب العربي فحسب بل بالنّسب النبوي، وبديهي أنّ هذا لا يكون قائمًا على أسس قابلة حتّى لمجرّد الالتفات بيد أنّه في نفس الوقت يدلّنا على أنّ العنصر العربي لم يكن موجودًا بين النازحين الأوّلين فحسب بل كان ظاهرًا أيضًا.

ومن الواضح أنّنا لا نريد بهذا أن ننكر ولا أن نستبعد أن من الميزابيين من تفرّع عن الدّوحة الهاشميّة أو القرشيّة، فبالرّغم من أنّنا لا نعرف في الإباضيّة الأوّلين من كانوا من سلالة بني هاشم، وبالرّغم من أنّ مظاهرة الهاشميين وخاصّة في العصر الأوّل للمذهب[2] وكيزته الأولى إنكار ما يرونه حقًّا لهم[3] من وراثة الملك أو على الأقل من امتياز السّلالة امتياز رفعة واصطفاء، أمرٌ لا يخلو من غرابة وشذوذ، فإنّنا

1 - [illegible] بني ميزاب (*)
2 - المذهب الإباضي
3 - بنو هاشم

لا نرى غرابة في احتمال أن يكون من السُّلالة الهاشميّة من ظاهر مذهبًا يقوم على أساس عدم الاعتراف بالامتياز الهاشمي وذلك إمّا بدافع اليأس من أن يعود للفرع النبوي من هذه السّلالة الحق الذي تدّعيه، وإمّا بعامل حريّة الفكر وسمو النفس من التأثر بالرّغائب أو النوازع الشّخصيّة وخلوصها للعمل على ما تراه حقًّا ابتغاء لوجه الله، ولذلك فإنّنا نقف موقف المنتظر للأدلّة التي يطمئنّ إليها البحث العلمي المجرّد إزاء ما يؤكّده بعض العلماء الميزابيين من انحدار بعض عشائر ميزاب من هذا الفرع أو ذاك من فروع بني هاشم أو قريش، وما يؤيّده بعض حفظة الأنساب الميزابيين من انحدار بعض تلك العشائر من فروع فارسيّة وإن كان تأكيد هؤلاء قد نجد مستندًا يعضده في أنّ الإباضيّة كان منهم في العصر الأوّل جانب كبير من الفرس، وكان لهم في فارس مجال وكانت لهم محاولات وآمال، بل كان مؤسّس دولتهم في الجزائر الإمام عبد الرّحمن بن رستم[1] رحمه الله وطائفة من أعضاده من الفرس، وكان الإمام نفسه من أبناء العائلة التي كانت مالكة عند الفتح الإسلامي لفارس، والذي يعنينا من هذا كلّه هو إثبات أنّ الميزابيين لا يمكن أن يعتبروا بربرًا، لأنّهم ليسوا بربرًا صرحاء، كما أنّه لا يمكن من وجهة النّظر العنصريّة أن يعتبروا عربًا أقحاحًا لأنّهم لم يخلصوا للأرومة العربيّة الصّراح، فهم إذن كما أسلفنا آنفًا مزاج أمشاج من أجناس مختلفة جمعت بينهم مبادئ ومثلٌ أوّلاً، ثمّ وحّدت ألسنتهم ضرورة التعايش.

على أنّ هناك ظاهرة قد ترجّح نسبتهم إلى جانب العروبة وتلك هي الاستعداد الفطري الذي يمتازون به للتكلّم باللّغة العربيّة، فما يكاد الواحد منهم يتّصل بالقراءة العربيّة حتّى يخلص لهذه اللّغة التي حدٌّ المرء أن يتساءل، ألا يمكن أن يكون هذا الاندماج في اللّغة الطارئة دليلاً على أنّ العنصر العربي القحّ أرجح حظًّا في أرومته؟ وهذه الظّاهرة الفطريّة خليقة بأن تجعل الميزابيين أوثق نسبًا بالعروبة

1 - توفي سنة 170 هـ.

حتّى من بعض القبائل التي تعيش في أطراف الجزيرة وحواليها والتي انحدرت من سلالات غير عربيّة، ثمّ اندمجت في الأمّة العربيّة حتّى أضاعت لغاتها الأولى ولم يبق فيها من سيما المحنة إلاّ شذوذ يلحظه السّامع الذوّاق في لحنها.

وأمّا كان الأصل العنصر الأوّل للميزابيين فإنّهم ظلّوا أشدّ اتّصالاً وأوثق وشائج من غيرهم من البربر الخلّص والمتبرّزين حتّى من الوجهة النّفسيّة المجرّدة، بالعروبة حسًّا ولغة، وذلك لأنّهم أوّلاً كأقليّة من حيث المذهبيّة، وثانيًا كفرع من مجموعة انتشرت فروعها هنا وهناك في أطراف الدّولة الإسلاميّة، ومنها أطراف الجزيرة العربيّة كعُمان[1] وزنجبار، وجبل نفوسة بطرابلس الغرب[2]، وجربة بتونس، وبعض مدن القوقاز، ما فتئت على اتّصال وثيق ببعضها بعضًا لما يقتضيه واجبها المذهبي من التعاون والتّناسق لا لنشر مذهبها فحسب بل للعمل على إعادة تكوين دولها المندثرة، وعلى إنشاء دول جديدة لها في النّواحي الأخرى قد يتاح لها فيما بعد أن تتّحد على عمل جماعي كاسح للاستيلاء على مقاليد الخلافة الإسلاميّة ثمّ الانتظام في بعضها كولايات.

التعايش بين سكّان ميزاب:

وبالرّغم من المسافات الشّاسعة التي كانت تفصل ميزاب عن عُمان، فإنّ العلاقة بين الإباضيّة هنا وهناك ظلّت مستمرّة يتعهّدها تبادل الرّسائل حينًا وتبادل التزاور أحيانًا، وإلى جانب ذلك كلّه كانت الحروب المستمرّة والمتعاقبة على الجزائر تدفع بالبدو، عربًا كانوا أو بربرًا، إلى النّزوح إلى الصّحراء ابتغاءً للنّجاة من الفتنة وطلبًا للسّكينة والسّلام، فكانت نشأة المدن السّبع الميزابيّة ممّا يغري هؤلاء البدو، وجلّهم من العرب الأقحاح، بالارتياح إلى أن يتّخذوا لهم مضارب حول تلك المدن التي لا تهيّئ لهم أسباب الرّي حين يطبق عليهم جفاف الصّحراء فحسب،

1 - سلطنة عُمان بالخليج العربي.
2 - ليبيا حاليًا.

وإنّما تحقّق لهم أسواقًا تنمو شيئًا فشيئًا تبعًا لنمو عمرانها، وفي تلك الأسواق يجدون مصرفًا لما تنتجه حيواناتهم من أصواف وأوبار وسمنٍ ولحم، ويجدون ما يحتاجون إليه من بضائع وأهمّها الملابس التي يصنع أغلبها محليًا كما تتيح لهم مورد أمن يمدّهم بأسباب الحياة حين يتهدّدهم جفاف الصّحراء وهو تنظيم المواصلات على ظهور حيواناتهم بين ميزاب والسّواحل البحريّة شمالاً وجنوبًا.

وجليٌّ أنّ هذا التّكامل والتّكافل بين أسباب العيش للميزابيين والبدو الذين أخذ ينشأ عليهما الاقتصاد الميزابي وينمو مع الأيام، يقتضيان التفاهم الكامل والتّنسيق بين الطّائفتين، ويرجحان إلى جانب العامل الدينيّ، غلبة اللغة العربيّة مهما حورها التعامل اليومي وعدل بها عن الفصاحة عن أية لغة أخرى لتكون الأداة لهذا التفاهم الكامل الدّقيق[1].

الميزابيون والمذهبيّة[2]:

يتألّف سكّان ميزاب من أقليّة مالكيّة وأغلبيّة إباضيّة والإباضيّة هم أشياع عبد الله بن إباض التابعي الّذي ينسب إليه هذا المذهب، والمذهب الإباضي من أنصع وأقدم مذاهب الخوارج[3] بيد أنّه لم ينفرد بقول، لم يشاركه فيه أحد المذاهب الأربعة، وما كان الخلاف بينه وبينها ليس بالأصول العقائديّة، أو جوهر التعبديات فهو يقول باستحالة رؤية الباري ويقول بالخلود ويكفّر العاصي، وتلك هي أهمّ مسائل الخلاف بينه وبين الأشاعرة إذا استثنينا مسألة "السّدل" في الصّلاة واستنكار رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، فأنت ترى أنّ الخلاف في الرّؤية والخلود، ولا

1 - نهاية الحلقة الثانية التي جاء في خاتمتها: "بقي لنا بعد هذا العرض عن أصل سكّان ميزاب أن نتساءل عن (المذهبيّة والتواصل) كانت ما سيكون محور حديثنا معكم أيها المستمعون الكرام في الحلقة القادمة، والسّلام عليكم ورحمة الله."

2 - بداية الحلقة الثالثة الواقعة في أربعة صفحات.

3 - يعني بالخروج، الخروج السّياسي عن طاعة الإمام علي كرّم الله وجهه، لا بمدلوله الدّيني وهو الخروج عن السنّة والجماعة كما يفعل أغلب الكتّاب بالخلط بين الإباضيّة وبين غيرهم من الفرق الخارجيّة الأخرى كالأزارقة. انظر كتاب "منهج الدّعوة عند الإباضيّة"، د. محمد ناصر.

يعدو أن يكون سطحيًا إذ ليس ضروريًا في صحّة الإيمان، وأمّا الخلاف في تكفير العاصي فهو مجرّد اصطلاح لفظي حيث أنّ الإباضيّة يقسّمون الكفر إلى نوعين: "كفر جحود" و"كفر نفاق"، ويرون أنّ العاصي كافر كفر نفاق، أي منتهك لحرمات الله، وإذا كان الإباضيّة يقولون بالبراءة من مقترف الكبائر وولاية ذوي الاستقامة فما ذلك إلاّ نظام اجتماعي اكتسى صبغة المذهبيّة، وكان عاملاً قيّمًا لتقويم انحرافات المجتمع الإسلامي في أغلب الفترات البيضاء من تاريخه المجيد.

والمذهبيّة عند الإباضيّة ومنهم الميزابيون لم تكن في عهودها الأولى تمثّل شكلاً دينيا تعبديًا صرفًا بقدر ما تمثّل شكلا اجتماعيًا سياسيًا هو ما يمكن أن نسمّيه بدستور المعاملات أو بالأحرى دستور الدّولة الإسلاميّة، فالإسلام ظلّ في رأيهم المصدر الوحيد لكلّ تصرّف فردي أو جماعي، ديني أو دنيوي، ولم يؤثّر في هذا الرّأي بالتّحقيق أو بالتّحديد حتّى ما ورد عنه ﷺ معنى قوله: ﴿أنتم أعلم بأمور دنياكم﴾، فالذي يتصفّح الكتب الإباضيّة لا يفقد روح اللاهوتيّة حتّى فيما هو من أخصّ خصائص الحياة الدّنيا، ولذلك كانت قسوتهم شديدة مسرفة على الإمام علي كرّم الله وجهه حين استجاب لدعوة السّلم فرضي بالتّحكيم.

وعلى هدي هذا الاعتبار نشئوا بادئ الأمر ووضعوا مبادئهم ومناهجهم حتّى ليكاد يكون بعيدًا حدًّا من الدقّة اعتبار المذهب الإباضي مذهبًا دينيًا بالمعنى الذي عرفت به المذهبيّة الدينيّة لعهد التمايز المذهبي.

ومعلوم أنّ ذلك العهد كان قد تأثّر في حقله الدّيني بما تسرّب إليه بعد الفتوحات من النّظريات والمناهج الكنسيّة.

ولعلّ الأقرب إلى الدقّة أن يعتبر هذا المذهب مذهبًا سياسيًا يقوم في تطبيق مبادئه على منهاجين الحزبية التي تقتضي قصر الدعاية على الوسائل السّلميّة والجدل العقلي والتأثير النّفسي، والبنويّة السريّة التي يأخذ بها نظام الجمعيات المؤسّسة على قاعدة التآمر والعمل في طي الخفاء.

والتاريخ الإباضي حافل بآثار هذين الاتجاهين معًا، فبينما كان عبد الله ابن إباض رضي الله عنه مجادلاً وداعيًة، كان أبو عبيدة[1] منظّمًا للحركات السريّة التي تهدف إلى إعداد أسباب الثّورة وقيادتها وإمدادها بما يضمن لها الاستمرار والانتشار والانتصار من ألوان الدّعاية العلنيّة والخفيّة العاملة على إثارة الأمّة الإسلاميّة ضدّ الخلفاء الأمويّين وعلى جميع من أشربت قلوبهم مبادئ هذا المذهب وجمع ما تصل إليه أيديهم من مال وعتاد لنقله إلى الثوّار، وكانت وسائلهم تختلف باختلاف ظروفهم والأقطار التي يتاح لهم أن يكونوا فيها مقيمين أو زوّارًا وأهمّ هذه الوسائل على ما يظهر، التعليم الذي كان يتيح لقادتهم فرصة التّأثير في الطّلبة الشّباب تأثيرًا يقوى مع الزّمن ويشتدّ حتّى إذا بلغ حدًّا يمكن معه الاطمئنان إليه في طالب أو أكثر، كان ذلك إيذانًا بالتخرّج وشهادة للترشيح، وفرصة اختبار حقيقة لاستعداد كلّ واحد من الطّلبة ومواهبه وملابساته لتحديد الإمكانيات التي يهيئوها للمذهب بعد تخرّجهم. وأشهر مدرسة للإباضيّة من هذا النّوع في العصر الأوّل مدرسة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم رحمه الله فقد تخرّج جماعة من هذه المدرسة يمكن أن نطلق عليهم لقب "الروّاد الفدائيين"[2] اتجه بعضهم إلى المشرق والجنوب لنشر دعوته والعمل على تمكينها من السّلطان، واتجهت أخرى إلى المغرب لنفس الهدف.

ولم يكن هؤلاء أوّل من حمل مبدأ الخوارج إلى المغرب العربي، فقد كان الصّفريّة قد استطاعوا أن ينقلوا إلى هذا القطر وأن ينشروا فيه دعوة الخروج والانتفاض على الدّولة الأمويّة، ويبدو أن نفرًا من الإباضيّة أنفسهم قد سبقوا أيضًا إلى المغرب العربي، متمثلين في تلامذة أبي عبيدة الذين أتيح لآثارهم أن تبقى

---

1 - أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم [illegible]

2 - ويصطلح عليهم في التاريخ الإباضي بـ"حملة العلم" [illegible]

مزدهرة حينا، كما كانت لعهد بني رستم، ومتضائلة حينا مقصورة على مناطق قصيّة منعزلة كما أصبحت اليوم في ميزاب وورجلان.

والأحداث التاريخيّة تبيّن بجلاء أنّ استراتيجيّة الخوارج على اختلاف فرقهم بعد أن أخفقوا في السّيطرة على مقاليد الحكم بمجابهة كلّ من الإمام علي ومن ولّي الخلافة من بعده من الأمويين، كانت تقوم على قاعدتين اثنتين: عدم تمكين الخلفاء من الاستقرار والاطمئنان بإنهاكهم في حروب تجمع بين طابعي الحروب المنظّمة وحروب العصابات وتتّخذ مجالها وميادينها في مواقع لا تبعد كثيرًا وقد تدنو كثيرًا من دار الخلافة، وذلك لصرف الجيش الرّئيسي للدّولة عمّا قد يجري في أصقاعها النّائية، ثمّ بتخويف دولة الخلافة وتنقيصها من أطرافها النّائية وذلك بالتمهيد أولاً، وذلك بدعوة سكّانها والتّأثير فيهم ثمّ بإغوائهم شيئًا فشيئًا بالانتفاض والاستقلال، وهم يعملون في هذا على هدي ما تنتهي إليه دراستهم من طبيعة سكّان تلك الأصقاع والعوامل التي تكون أكثر تأثيرًا فيهم.

استقرار المذهب الإباضي بالمغرب

وتاريخ البربر حافل منذ عرفوا الغزو الأجنبي بمغالبته بادئ الأمر فإن غلبوا فبالاستكانة الظّاهرة للغالب والاستعداد في الخفاء للانتفاض.

وقد اهتدى البربر إلى وسيلة اختصّوا بها، فيما نعلم، للانتفاض على الغزاة الذين يتّخذون الدين ذريعة لغزوهم، ذلك بأنّهم كانوا سرعان ما يدخلون في الدين الجديد فهم بطبيعتهم نزّاعون إلى كلّ ما يجدّد علاقتهم بالحضارة ووسائلها في إبّانها، ولكنّهم حين يدخلون في دين ما لا يطمئنّون إلى ما ينقله إليهم حملته الأوّلون، بل يدرسونه ويحاولون أن يلائموا بينه وبين القوّة من التطرّف والتشبّث بالحرّيّة في مختلف مجالاتها ومظاهرها، وسرعان ما يصبح لهم رأي في الدّين الجديد يشمل بعض طقوسه وعقائده، فكان لهم طابع في اليهوديّة يوم تهوّدوا ولا يزال اليهود ذوي الأصول البربريّة أو الذين طال بقاؤهم ببلاد البربر كنفوسة وجربة وميزاب ومواطن البربر بالمغرب الأقصى يمتازون في سلوكهم الديني عن كافّة المذاهب اليهوديّة المعروفة، ولمّا حمل الرّومان النصرانيّة إلى المغرب البربري واعتنقها البربر استحدثوا فيها رأيا ونحلة ما لبث أن أصبح مذهبًا قائمًا بذاته هو مذهب الكاثوليك الذي حدّد معالمه ووضع فلسفته القدّيس البربري "سانت أوغستان (St. Augustin)"، حتّى إذا جاء العرب بالإسلام وغلبوا البربر في أوطانهم لجأ البربر إلى استحداث مذهب إسلامي جديد. فكانت هذه المحاولة بادئ الأمر في شكل ادّعاء بعضهم النبوءة كما في سنة 127 هـ إذ ظهر في قبيلة "برغواطة" المتنبّي البربري صالح بن طريف "البرغواطي" الذي ادّعى أنّه جاء للبربر بإسلام بربري خاص بهم ووضع قرآنا باللغة البربريّة في ثمانين فصلا أتيح له أن ينتشر في بعض القبائل وأن يستمرّ إلى عهد الموحّدين.

بيد أنّ هذه المحاولة لم تجد قبولا جماعيًا يكفل لها تحقيق هدف البربر الرئيسي من لجوئه إلى استحداث مذهب جديد في الدين الذي يغلب عليهم أهله، فلمّا جاء الخوارج إلى مواطنهم وجدوا في دعوتهم ضمانًا لتحقيق ما يستهدفونه وربّما أبعد ممّا يستهدفونه فإذا قدّر لهذه الدّعوة أن تنتشر وتنتصر فقد لا يحقّقون إعادة استقلالهم فحسب بل تتاح لهم أسباب السّيطرة على مقاليد الدّولة التي أنشأها العاملون باسم الدّين، أليس مذهب الخوارج على اختلاف نحله قائمًا على إنكار الفوارق والتمييز بين الأمم والأجناس البشريّة وتوطيد دعائم المساواة بين كافّة المسلمين، وإتاحة الفرصة لكلّ مسلم لأن يكون على كرسي الخلافة؟ فالكفاءة عند الخوارج هي المؤهّل الوحيد لهذا المنصب الخطير.

وكذلك وجد الصّفريّة والإباضيّة لمذهبهم في مواطن البربر مرتعًا خصبًا، فما أسرع ما ستجاب لهم البربر والتفّوا من حولهم مؤيّدين ومؤازرين وما أسرع ما حاولوا على يد قبيلة "بني يفرن" البربريّة إنشاء أوّل دولة بربريّة إسلاميّة في "سجلماسة" بالجانب الشرقي من المغرب الأقصى، لكن قضى إدريس الأوّل على هذه المحاولة قبل أن تدعم ركائزها حين أنشأ بفاس دولة المغرب الأقصى، فإنّ الدّعوة الخارجيّة قد أصبحت على كلّ حال المحوّر الدّيني للبربر في الانتفاض وتجديد المحاولة مرّة أخرى في مكان آخر. فكانت لهم محاولات في القيروان وطرابلس، إن لم تنجح فقد زادت في نشر الدّعوة الخارجيّة وجمع البربر حولها وهيّأت جميع أسباب الوجود للدّولة البربريّة الإسلاميّة المأمولة التي قدّر أن يكون إنشاؤها على يد الرّستميّين[1].

1 - إلى هنا انتهى [illegible] ... والسلام عليكم ورحمة الله".

وعبد الرحمن بن رستم عميد الأسرة الرّستميّة المالكة ومؤسّس أوّل دولة بربريّة مستقلّة بعد الفتح الإسلامي ينحدر من أسرة الأكاسرة الفرسيّة، الذين قضى المسلمون بعد الفتح على ملكهم، وليست عندنا معلومات عن الطّريق الذي اتّصل منه عبد الرّحمن هذا بالمذهب الإباضي، ولا كيف أثر حياة الشّظف والعسر والاستخفاء في مغارة أبي عبيدة مولى تميم التي كانت كما أسلفنا آنفًا مدرسة الإباضيّة لإعداد الروّاد الفدائيين، أو ما يسمّيهم الإباضيّة في مصطلحهم "حملة العلم"، وكلّ ما نقله التاريخ إلينا عن عميد الأسرة الرّستميّة إنّما يبتدئ من يوم ظهور هذه المدرسة الفدائيّة، وتاريخه فيها عجب من العجب، فقد كان محلّ عناية خاصّة من أستاذه جعلته يحرص على إخفائه أو على الأقلّ عدم إتاحة الفرصة له وزملائه للاتّصال بعضهم ببعض، وبصرف النظر عمّا حاول بعض المؤرّخين تعليل هذه العناية به فإنّنا حين نستجليها على ضوء أرومة هذا الطّالب الصّفي والأعمال الجبّارة التي أنجزها في حياته العلميّة لفائدة توطيد دعائم المذهب الإباضي والتّمكين له وتوسيع مجاله نستطيع أن نطمئنّ إلى أنّ أستاذه الألمعي الحصيف كان سديد الفراسة صادق التكوين صائب الاختيار.

وعندما وفد عبد الرّحمن إلى المغرب مع أربعة من أصحابه اختاره أو اختير له عمل من شأنه أن يهيّئ له أحسن الفرص لدراسة المجتمع الجديد الذي وفد عليه وتوثيق الصلة به، ذلك هو القضاء الذي وليه عن زميله وصاحبه أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري اليمني حين تولّى آخر محاولة استقلاليّة للبربر.

أتمّت التمهيدات الأوّليّة الضّروريّة لتكوين دولتهم الإسلاميّة على يد عميد الرّستميين، وهي المحاولة التي كانت القيروان وطرابلس الغرب مسرحًا لها، ويقول المؤرّخون أنّ أبا عبيدة هو الذي أشار على الرّوّاد الفدائيين الخمسة بأن يولّوا عبد

1 - [illegible]

الرّحمن القضاء إن مكّن الله لهم في مواطن البربر، وواضح أنّ أبا عبيدة الذي حنّكته التجارب كان يدرك أنّ محاولتهم الأولى لن تكون وافرة الفرص للنّجاح، وأنّ الرّجل الذي سيضطلع بعبء إنشاء الدّولة الإباضيّة المنتظرة يجب أن تتاح له فرصة الدّراسة المستوعبة للميدان الذي سيعمل فيه قبل أن تلقى عليه مسؤوليات الإنشاء والقيادة والتوطيد، وطبيعي أنّ أبا عبيدة حين وجّه هؤلاء الخمسة كان يعلم الكثير عن أبناء هذا القطر الذي لم يخلص للإسلام إلاّ منذ سنين، ولم يستكن لسيطرة العرب إلاّ بعد أن أسال أنهرًا من الدّماء، وهو يدرك أنّ العربي لن يكون قريبًا من نفوسهم حتّى وإن جاءهم بمذهب يناهض الخلافة التي لا شكّ أنّهم يطوون لها جوانحهم على تربّص لفرصة الثّأر خاصّة وعمّالها لم يحسنوا فيهم سياسة الاستمالة والاسترضاء والتّأليف، بل أنّ أبا عبيدة نفسه، وهو كما أشرنا آنفًا ليس بعربي ولكنّه حبشي يتّصل بالولاء لبني تميم، يحسّ في نفسه شيئًا من القرب والحنان نحو الشعوب التي أصيبت بما أصيب به هو وشعبه من الاضطرار إلى إعلان الولاء للمستكبرين، وهذا الإحساس فيما نعتقد ممّا هيّأ نفسه لاستشفاف بعض ما يصلح من أطواء البربر هنالك في المغرب ولترشيح حفيد الأكاسرة الذي لا شكّ أنّ نزعة الملك ولوعته ودربته لم تخفت تمامًا في أعماقه لتولّي مهمّة الإنشاء والقيادة والتوطيد للدّولة البربريّة الإباضيّة المنتظرة التي وفد لإنشائها أولئك الروّاد الفدائيون.

وعندما فشلت محاولات أبي الخطّاب رحمه الله وخلفه ابن حاتم الملزوزي رحمه الله كان عبد الرّحمن بن رستم قد استطاع أن يدرك أسباب الفشل الاستراتيجيّة والاجتماعيّة وأن يحكّم وشائجه ببعض رؤساء البربر الضّاربين حول موقع رأى أنّه من النّاحية الإستراتيجيّة أشدّ منعة وحصانة فلم يتوان في اللّحاق بأصفيائه هناك حيث الحصانة والمنعة للعمل على تكوين نقطة انطلاق إلى أهدافه البعيدة، وسرعان ما اتّفق مع أصفيائه بعد أن أمن من المطاردة على تخطيط عاصمة للدّولة المنتظرة.

وحوالي سنة 765 للميلاد أنشأ مدينة تيهرت التي لم تبق منها اليوم إلاّ الأطلال، والتي اتّخذ منها عاصمة ملك شامخ استمرّ فيه مع أبنائه وأحفاده حوالي 144 سنة.

ولا مراء في أنّ الدّولة الرّستميّة هذه هي أوّل دولة يجمع البربر في تكوينها بعد الفتح الإسلامي، فإلى جانب المنعة الطّبيعيّة لعاصمتها ومصرها الأوّل كان دستورها دستورًا مثاليًا لن يستطيع أحد أن يأخذ عليه شيئًا ولا أن يشكو منه حيفًا. كان إعادة لعهد الخلفاء الرّاشدين وكان تطبيقًا حرفيًا للقرآن، وطبيعي أن يكون البربر قوام هذه الدّولة النّاشئة ليس ذلك لأنّ الكفاءة وحدها هي التي تؤهّل لمناصب الدّولة بل أيضًا لأنّ العناصر الغير بربريّة لم تكن كثيرة في المغرب حينئذ، وجلّ العرب الذين وفدوا عليه مع الفاتحين انحازوا مع العامل الأموي ألبًا على هذه الدّولة، ومعلوم أن عبد الرّحمن بن رستم لم يصطحب معه إلاّ أربعة فيهم عربي واحد هو أبو الخطّاب الذي استشهد في التّمهيد لإنشاء هذه الدّولة.

وبالرّغم أنّ عبد الرّحمن اعتمد في تكوين دولته على بربر الشّمال لأنّهم بحكم قربهم من السّاحل الذي هيّأ لهم فرصًا أوفر للاتّصال بمختلف الحضارات، وأحسن استعدادًا لعمل كهذا من صميم الأعمال الحضريّة، فإنّه قد استطاع أن يحصل على مؤازرة أغلب البربر سواءٌ منهم بربر النّجاد العليا أو بربر الصّحراء.

ومضت الدّولة في طريقها تتوطّد وتتّسع وأمدّتها الإباضيّة من الشّرق بالمال والدّعاة ولم يحاول هؤلاء الدّعاة أن يحصلوا منها على مراكز أو سلطان بل فرغوا لمهمّة التّعليم أو بالأحرى نشر الدّعوة، ولذلك لم يضيّقوا على البربر ولم يجد البربر في وجودهم حرجًا أو خطرًا.

وكان من الممكن أن تخلّد هذه الدّولة أو أن تستمرّ أمدًا أطول بفضل ما أخذت به على نفسها من التّشبّث بأسباب العدل والتّعمير والاتّساع وتعزيز الجانب، وبفضل ما وفّق إليه مؤسّسها من تحسين العلاقات بينها وبين الدّول المجاورة، وبفضل انتهاج خلفائه من بعده للسّياسة التي رسمها لها في الدّاخل والخارج لولا أن أخذت بنظام الوراثة الملكيّة متأثّرة بما ألفه البربر والفرس جميعًا بل وبعض العرب من الارتياح لهذا النّظام

ذلك بأنّ عبد الرّحمن بن رستم مؤسّس هذه الدّولة عهد بالإمامة من بعده إلى نفر ممّن يعتقد أنّهم هم الّذين يمكن أن يلي أحدهم الأمر من بعده وبين هؤلاء النّفر كان اسم ابنه عبد الوهاب.

وقد يكون عبد الوهاب على كفاءة نادرة وقد يكون التّقليد الوراثي لحفيد الأكاسرة ذا أثر في ترشيحه مع المرشّحين الآخرين وإن بطريقة غير شعوريّة، ولكن الذي يلفت النّظر هو أنّ عبد الوهاب كان الثّاني في ترتيب الأسماء التي عهد إليها أبوه بالولاية من بعده، وأن الاسم الأوّل هو مسعود الأندلسي، كان صاحبه مشهورًا بالزّهد والتجرّد والفرار من التّبعات والمسؤوليات العامّة ابتغاء النّجاة بدينه، أفلا يكون هذا ممّا يبعث على الظّنّ بأنّ مسعودًا إنّما قدّم ليكون تقدمه بمثابة الإعداد النّفسي لتولية عبد الوهاب تولية تبعد بها وإن شكليًا عن شذوذ النّظام الوراثي؟ وإنّ الذين رشّحوا بعد عبد الوهاب لم تكن مهمّتهم إلاّ تأكيد صرف الأنظار عن تخيّل هذا النّظام؟ ومهما يكن الغرض من الطّريقة التي سلكها الإمام عبد الرّحمن بن رستم رحمه الله في العهد بالولاية من بعده والتي جمع فيها في لباقة ودهاء بين منهاج عمر بن الخطّاب ومنهاج معاوية رضي الله عنهما، فإنّ النّظام الوراثي في الدّولة الرّستميّة قد تأسّس وأصبح لها دستورًا، على الرّغم من تنافيه ومبادئ المذهب الإباضي، وبالرّغم من التّصدّع الذي نشأ في الدّولة نتيجة له إذ غضب بعض الذي ذكر عبد الرّحمن أسمائهم بعد عبد الوهاب وأخطأهم الحظ وكان لهم في الأمر هوى.

ومع أنّ هذا الغضب لم يكن بادئ الأمر ذا خطر فإنّه كان من غير شكّ الخدش الأوّل في ذلك البناء الرّستمي البربري العظيم الذي أخذ يعمق مع الأيّام ويتّسع حتّى أصبح لعهد الإمام الخامس أبي حاتم يعقوب بن أبي اليقظان فتنة داخليّة هوجاء احترقت العائلة المالكة قبل غيرها كما أعادت فرض النّفاسي بين برابرة الشّمال وبرابرة النّجاد العليا، وبذلك هيّأ لعبيد الله الشّيعي داعية الفاطميين أسباب

القضاء على هذه الدّولة سنة 909 للميلاد، واستخلاص الجزائر للفاطميين فكان أن دالت دولة بني رستم وبربر الشّمال لتنهض دولة الفاطميين وبربر النّجاد العليا على يد اليقظان السّادس والأخير من الأئمّة الرّستميين.

وبانهيار الدّولة الرّستميّة تشتّت الإباضيّة هنا وهنالك من الأقطار التي كانت تتألّف منها وطبيعي أنّهم لم يستكينوا ولكن محاولاتهم المختلفة لتأسيس دولة جديدة في المغرب لم يقدّر لها النّجاح[1].

إباضيّة المغرب بعد انهيار الدّولة الرستميّة[2]:

إذا كان الإباضيّة رضوا بالأمر الواقع بعد اكتساح الفاطميين لدولتهم، فإنّهم لم يستكينوا، ولم تضمحلّ الآمال التي ما فتئت تداعب خيالهم في إمكانيّة تأسيس دولة جديدة أخرى في المغرب، وقد أدرك الذين سيصبحون بعد قليل ميزابيين من رعايا الدّولة الرّستميّة، وأكبر الظّنّ أنّ منهم من كانوا من أقطابها، أنّ الاكتساح الفاطمي ليس من الهيّن قهره. وأنّ عليهم أن يبدؤوا من جديد في تكوين من قد تتاح لهم فرصة الغلبة وإنشاء دولة أخرى بعد أجيال.

وكانت وارجلان الواقعة إلى الجنوب الشّرقي من ميزاب مثابة لطائفة من الإباضيّة لعهد بني رستم لم تخلص بعد للحضارة بل أنّها، وإن سكنت القرى على جانب من البداوة، بل لم تخلص بعد للمذهب الإباضي، فهي أمشاجٌ من المذاهب.

ورأى من سيصبحون بعد ميزابيين من فلول الدّولة الرّستميّة أن يسلكوا المنهاج التقليدي للإباضيّة بأن يلتمسوا لأنفسهم ملجأً يجمعون فيه بقيّتهم، أوّلاً، ويبدؤوا منه محاولتهم، ثانيًا، في أحد أطراف الدّولة حيث تكون المسافة وقسوة

1 - [illegible]

2 - [illegible]

الطّبيعة بعض ما يظاهرهم، ورأوا في الصّحراء بعض المنعة، فهي بعيدة عن مراكز الحضارة ومضطرب الدّولة النّاشئة، وفيها إخوان لهم قد يتألّبون معهم فيستكثرون بهم ويستظهرون، فأووا إلى وارجلان...

بيد أنّ المذهبيّة في إباضيّة وارجلان لم تكن قد بلغت بعد منهم مبلغ العقيدة المسيطرة، فما فتئت في مستوى النّزعة والهوى، ولذلك لم يستقبلوا إخوانهم كما ينبغي أن يستقبل مهاجرا مقيم، بل ما أسرع ما ضاقت بهم صدورهم وخاصّة لمّا رأوهم على مستوى من الحضارة وترف من الحياة خليق، إن أتاحوا لهم الاستقرار، أن يمكّن للنّازحين من مقاليد ديارهم فيصبحون السّادة المسيطرين.

ولم يكن هؤلاء النّازحون قد نزلوا عليهم في قراهم وإنّما ضربوا في بعض أطراف ديارهم حيث أنشأوا مدينة لهم نهضت على مستوى مرموق من الحضارة والترف فقد حملوا معهم ما أمكن حمله من ثرواتهم التي أتيح لهم جمعها في ظلال بني رستم، والحياة في عهد الرّستميين قد اطمأنّت بالنّاس وأتاحت لذوي الهمم الطّماح أسباب الرّخاء والنّعيم.

وما كادت مدينة "إسدراتن" الجديدة هذه تنهض زاهرة مترفة حتّى ضاق بها سكّان القرى المجاورة وأرباب البلاد الأصليون، وتوجّسوا منها خيفة ومن مشيديها على سيادتهم وسلامتهم فتآمروا على حرب عاتية كاسحة قضت على تلك المدينة النّاشئة وأهلها، ولمّا تعمّرْ غير زهاء نصف قرن، ومرّة أخرى قدّر لفلول الدّولة الرّستميّة أن تهاجر ابتغاء الأمن والاستقرار، لعلّها إذا أمنت واستقرّت أن توفّق إلى محاولة أخرى لاستعادة مجد الإباضيّة في المغرب تكون أدنى إلى النّجاح، حتّى هداها الهيام آخر الأمر إلى "ميزاب".

استقرار فلول الدّولة الرّستميّة بميزاب:

ولسنا ندري كما أشرنا آنفًا كيف كان لقاء سكّان ميزاب الأصليين لهذه الفلول وكيف دار بينهم الصّراع؟ ثمّ كيف أتيح لهذه الفلول النّازحة أن تنتصر آخر

الأمر وتستقر؟ والأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّ سكّان ميزاب الأصليين الذين كانوا يدعون إلى الاعتزال، وكان منهم يحاولون مع الإباضيّة على نسق المعتزلة لعهد بني رستم لم يستقبلوا فلول خصومهم من قبل بالترحيب ولا بالجفاء، ولكنّهم ضاقوا بهم أشدّ الضيق فهم لا يأمنون معهم على مذهبهم في ذرّيّتهم بيد أنّ مذهب الاعتزال هو مذهب ديني يقوم على العمل العقلي المجرّد، فهو لذلك لا ينشئ في أتباعه ما ينشئه المذهب الإباضي السّياسي من روح النّضال والتجمّع والاستماتة والفداء بين أنصاره، وذلك مكمن السّرّ، على ما نعتقد، في غلبة فلول الدّولة الرّستميّة على سكّان ميزاب الأصليين.

ومهما يكن من شيء فقد أتيح لهذه الفلول أن تنتصر وتستقر وأن تعمل في ميزاب على إنشاء مجتمع ذي طابع ومميزات وتقاليد مهما اختلفت ألوانها وتعدّدت أشكالها، فهي دائمًا تحتفظ في جوهرها بعلاقة قويّة منبعها الأصلي، أعني بالطّابع السّياسي للمذهب الإباضي الذي يقوم على جعل كلّ جانب من الحياة العلميّة والنفسيّة في أتباعه يتّجه اتجاهًا حربيًّا ليُسهم في تكوين الطّاقة المذهبيّة العظمى التي تعمل لتحقيق أهدافه العليا المتمثّلة حسب التعبير الحديث في إقرار وتدعيم النّظام الدّيمقراطي الاشتراكي بأوسع معاني الدّيمقراطيّة والاشتراكيّة بما في ذلك ما يشبه أن يكون جمهوريّة رئاسيّة من حيث شكل هيكل الدّولة الإسلاميّة الموحّدة التي يجب أن تقف عاملة جاهدة في نشر الإسلام وتوسيع آماد سلطانه وتعزيز جانبه وإعزاز أهله.

تعمير ميزاب :

وإذا كان النّصر، قد قدّر هذه المرّة لتلك الفلول النّازحة فإنّ الحياة لم تكن ميسّرة الأسباب، هيّنة المنال لأفرادها في ميزاب كما كانت لهم في وارجلان، فالقحولة والجفاف وقسوة الطّبيعة وجفاؤها هي طابع الرّقعة التي استطاعوا أن يحلّوا عليها، على حين كانت الطّبيعة أدنى إلى العناية والتّلطف بواحات وارجلان،

والثروة التي صحبوها من عاصمة الرّستميين ومدنهم الزّاهرة الكبرى قد أتت عليها نكبة "إسدراتن" وفواجع الحروب والأسفار الكادحة والهدهدة، إذن فليس لهم أن يعتمدوا في توظيف أنفسهم في ميزاب إلاّ على طبيعة النّضال الصّامد الذي لا يعرف العياء، والإرادة الرّاسخة الشّادقة التي لا تعرف الانثناء، وبفعل هذه الطّبيعة استطاعوا أن ينشئوا لهم في ميزاب وطنًا أخذ مع الأيّام يصبح صالحًا لحياة قانعة وإن لم تكن راضية، وأخذت مدن ميزاب تنشئ تباعًا كما أخذ مجتمع ميزاب الجديد ينمو ويتوطّد وتتعيّن معالمه مع مرور الأيام، وعاد الأمل يساورهم من جديد في إمكان الوثوب مرّة أخرى إلى إنشاء دولة على نسق الدّولة الرّستميّة، إن لم تكن على معالمها الأولى، وتجلّى هذا الأمل في تنظيمهم لكيان ميزاب تنظيمًا ما لبث أن اتخذ شكل الدّستور[1] المكتوب الذي حدّد أشكال الأجهزة المديرة لهذا المجتمع النّاشئ ووظائفها ومسؤولياتها وواجباتها، والذي بدأ في وضع معالمه رجل الدّعوة والسّفارة المتنقّلة والتفكير والعامل المبتكر لإباضيّة المغرب العلاّمة أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر الفرسطائي[2] أحد أقطاب الإباضيّة في القرن الرّابع والخامس للهجرة، الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، ثمّ استكمل تنظيمه وتشريعه وتدوينه على يد فيلسوف الصّحراء الجزائريّة العلاّمة الجدل الحجاج أبي عمّار عبد الكافي الوارجلاني[3]، أحد أقطاب الإباضيّة في القرن السّادس للهجرة الثاني عشر للميلاد.

ولم يكن هذا الدّستور أو سير العزّابة، كما كان يدعى، خاصًّا بميزاب بل أخذ له جميع إباضيّة المغرب، في نفوسة بطرابلس الغرب، وجربة بتونس، حيث لا يزالون، وبعض واحات الجنوب التونسي والجزائري حيث لم يلبثوا إلاّ يسيرًا، وإن كانت هذه الجماعات الإباضيّة المستوطنة في أقطار متباعدة من المغرب لم تلتزم بحرفيّة هذا الدّستور بل كيّفته كلّ جماعة على حسب ظروفها وإمكانياتها مكتفية بالحفاظ على جوهره من حيث المبادئ والأهداف.

---

1 - نظام العزّابة
2 - محمّد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي من جبل نفوسة [illegible] 345 هـ/956م - ت 440هـ/1049م
3 - توفي قبل 570 هـ/ 1174م

كان تكوين سير العزّابة أو دستور جماعات الإباضيّة بالمغرب إيذانًا بالاكتمال
الكيان الميزابي الذي أصبح بمثابة الرّكيزة أو المحور لنشاط إباضيّة المغرب. وكان من
الممكن أن تنشأ عنه حالة استقرار مطمئنة تمكّن من الاستعداد للانطلاق لتحقيق
أهداف الإباضيّة بعد زوال الدّولة الرّستميّة لولا أنّ ميزاب على ما يتمتّع به من
صعوبة الموقع وبعد المسافة ظلّ بعيدًا عن الاستقرار والاطمئنان، فكان مسرحًا
للمطامع المذهبيّة والدّوليّة، ظلّ بعيدًا عن الاستقرار والاطمئنان، ذلك لأنّه إن نأى
عن مواقع الصّراع الحضري لم ينأ عن مواقع الصّراع البدوي بل كان منها في
الأعماق، فقد عرفت تلك الأصقاع على جفافها وقحولتها وقسوة الطّبيعة عليها
منذ القدم، الذي لا نعرف مداه في العراقة، قبائل ما بين ضاربة وراحلة، كانت
تتمتّع تارة بالحياة في ظلّ نظام قبلي خالص البداوة وتارة أخرى بالحياة في شكل
تجمّع يوشك أن يبلغ المستوى البدائي للدّولة أو الولاية وإن كان لم يزل محتفظًا
بطابع البداوة وطبائعها في الأفراد والجماعات التي يتألّف منها، ولم تكن هذه
القبائل ولا هذه الكتل المتجمّعة تعرف عند نزوح فلول الرّستميين إلى ميزاب شيئًا
كثيرًا عن الإباضيّة، ولا عن المذهبيّة بمعناها العقائدي وإن كان الاعتزال قد شاع،
كما ذكرنا آنفًا، في من سبق إلى ميزاب لعهد الرّستميين ومع ذلك فقد كانت
تشايع هذا المذهب أو ذاك من المذاهب التي يتاح لها أن تتغلّب على مدن الشّمال
الجزائري.

وبديهي أنّ طبيعة البداوة تتنافى مع التعايش السّلمي، وخاصّة بين من يختلفون
في طبيعة الحياة المادّيّة والعقليّة وأسلوبها، وأنّ الاحتكاك على ضرورات الحياة
واعتبارها البدائيّة وخاصة حيث تكون هذه الضّرورات نادرة بحكم قسوة الطّبيعة
لابدّ أن يؤدّي إلى تنازع البقاء في أدنى وسائله وأشكاله إلى البداوة، وفضلاً عن
ذلك فمن المحتمل، إن لم يكن من المرجّح، أن لا يكون أمرًا مريحًا ولا غير ذي بال
على المسيطرين على الشّمال أن يتاح لهم الاستقرار والاطمئنان لفلول الرّستميين
وإن بعث في أعماق الصّحراء في الجنوب، وإن من مقتضيات السّياسة أن لا

يترك هؤلاء حتى تتهيّأ لهم أسباب الاستقرار، وأن لا يهاجموا مباشرة حتى لا يكون
ذلك سببًا لاضطراب الأمن هنا وهناك، حيث لا تزال جماعات أخرى من الإباضيّة
لا ريب أنّها ستتحرّك لمظاهرتهم استجابة لدافع التضامن المذهبي ممّا من شأنه أن
يتسبّب في مشاكل من حسن السياسة تجنبها، ومادام حول هذه الفلول بدوٌ خُلّص
والناس ما بين البداوة والحضارة ومادامت إثارة هؤلاء وأولئك أمر ميسور، فمن
حسن السياسة تجنبها أن يغرّوا بمناوشة تلك الفلول مناوشة من شأنها -إن لم تؤد
إلى إبادتها - أن تمنعها الطمأنينة والاستقرار اللذين قد ينشأ عنها خطر محاولة
استعادة الدولة الإباضيّة البائدة.

لهذه الأسباب وتلك، كان الميزابيون دائما لا يكادون يفرغون من مناوشة
قبيلة أو قرية من القرى القريبة حتى يضطروا إلى مجابهة مناوشة أخرى فإن ظهروا
بمهلة قصيرة من السلم فهم لا يفتأون خلالها على ترقب واستعداد.

وقد حاولوا أن يدفعوا عنهم هذه الغوائل وأن يضمنوا لأنفسهم حياة سلم
وهدوء، فعمدوا إلى عقد اتفاقيات توشك على بدائيتها أن تشكل نوعا مما يعرف
اليوم بمعاهدات حسن الجوار وتأتي المواصلات والتبادل التجاري وما إلى ذلك مما
يراد به تأمين الاستقرار والتعايش السّلمي والتعاون الاقتصادي كالتي عقدت بينهم
وبين قرية "متليلي" البعيدة عنهم بحوالي ثلاثين كيلو مترا، وكالمعقودة بينهم وبين
قرية الأرباع[1]، الراحلة وغيرها من القبائل التي تنزل حينا حول شبكة ميزاب، إذا
أسعفتها الطبيعة بشيء من الخصب أو تمر بها قوافلها إلى الشمال وإلى الجنوب ابتغاء
الانتجاع أو الاتجار.

وكذلك أخذت تنشأ لهم وتبرز سياسة خارجية على قواعد مدنيّة مستمدة من
مقتضيات التعايش والتجاور والمصالح المتبادلة إلى جانب العلاقات الحزبية أو
المذهبية التي لبثت أمدًا - لا نعلم حدود مداه بشكل دقيق - الأساس الوحيد أو

1 - إلى الشمال من ميزاب، ناحية الأغواط.

على الأقل المكيف، لسياساتهم الخارجية، وإن كان حشر هذه العلاقات ضمن ما يمكن اعتباره سياسة خارجية من بعد قبيلة لهم ينطوي على كثير من التجوز أو التوسع في معنى هذه الجملة لا يبرره إلا الاعتبار الجغرافي، بالرابطة الحزبية عندهم هي الكيان الحقيقي والذاتية الوطنية، ولئن فصلتها الأحداث جغرافيا إلى فروع متنائية فهي ما فتئت اعتباريا وحدة جاهدة أبد الدّهر على الالتئام والانسجام[1].

علاقة الميزابيين بجيرانهم[2]:

وطبيعي أن علاقاتهم بدول الشمال والجنوب الشرقي للقطرين الجزائري والتونسي التي كانوا يرتادون مدنها التجارية كتجار مقيمين أو متنقلين كانت عاملا بالغ الأثر في تكوين وتكييف سياستهم الخارجية المدنيّة فمع حاجياتهم إلى تأمين قوافلهم ما بين تلك المدن وميزاب كما أشرنا آنفا لا بد لهم من تحديد وتأمين العلاقات الضرورية للتعايش بين تجارهم وبين سكان مهاجرهم[3]، والوافدين عليها من الأرياف والمسئولين عن سياستها وإدارة شئونها، أولئك الذين لا يكونوا حلفاء طبيعيين لهم بحسب بل ساسة وأحوارا[4]، ومع أننا لا نملك معلومات يمكن الاعتماد عليها والاستئناس بها عن طبيعة هذه العلاقات وتاريخها ومداها كما أننا نجهل أيضا إلى أية نقطة من القطر الجزائري أو القطر التونسي بلغوا في مضربهم التجاري قبل العهد التركي، وفي أوائله فإننا نستطيع أن نجزم بأن الاتصال الاقتصادي بين ميزاب والأصقاع الآنفة الذكر يرجع إلى تاريخ يسبق بكثير عهد احتلال صالح باي لمدينة الأغواط حوالي 1785.

أمّا فيما يتصل بعلاقاتهم بالقطر التونسي فمعارفنا أيضا ترجع إلى ما كان منها للعهد التركي على حين تقصر عن كل إيضاح قبل ذلك العهد.

---

1 - [illegible]

2 - [illegible]

3 - جمع مهجر.

4 - [illegible]

علاقة ميزاب بالدّيوان العثماني :

ويبدو أن هذه العلاقات لم تتخذ الطابع الرسمي أي صبغة التعاقد الذي يكون بين دولتين لتحديد وتعيين نوع العلاقة بينهما بالنسبة للعهد التركي في الجزائر إلا عند ما غزت الجيوش التركية الأغواط، ذلك بأن صالح باي بعد أن استخلص هذه المدينة ونواحيها عمد إلى الاتصال الرسمي بالميزابيين لتنظيم علاقاتهم بمركز الولاية التركية بالجزائر كما أن الميزابيين من جهتهم شعروا بضرورة هذا الاتصال فأوفدوا إليه من لدنهم وفدا انتهى معه إلى عقد معاهدة[1] بين الطرفين تؤمن التجار الميزابيين ومواصلتهم في كافة المناطق التي يسيطر عليها سلطان الأتراك، ولقاء ذلك تضمن للولاية التركية غرامة سنوية تتقاضاها الخزينة العامة للولاية، وليس يعنينا نوع هذه الغرامة وإنما الذي يعنينا هو أن هذه المعاهدة أو بالأحرى الخلاصة التي نقلت عنها في بعض المراجع التاريخية التي بين أيدينا الآن وما عقبها من إجراءات تطبيقيّة ورسائل متبادلة بين الميزابيين وبعض ولاّة الجزائر بعد ذلك تثبت أول اعتراف صريح لميزاب بكيان ذي صبغة دولية تحقق له استقلالا كاملا لا يشتريه إلا هذا الارتباط الذي يشبه في بعض نواحيه ارتباطا دُوَلِ الكومنولث الآن بالتاج البريطاني، وإن كانت بعض هذه الوثائق تثبت أن هذه العلاقات أخذت على الأيام تتطور تطوّرًا يضيق من مدى نفوذ ميزاب بقدر ما يفسح من مدى نفوذ العثمانيين.

على أن هذا التضييق ظل فيما يبدو- أخلى في العبارات منه في التطبيق، ذلك بأن تمثيل ميزاب في ديوان الوالي المركزي بالعاصمة الجزائرية لبث كما كان من أول يوم إلى أوائل عهد الاحتلال الفرنسي وكان قوامه "أمين"[2] لهم في هذا الديوان

---

1 - من الأرجح أن تكون معاهدة سنة 1510 التي [illegible] 45000 [illegible] و24 من [illegible] 12 رطل و12 [illegible].

2 - جاءت تسمية أمين الميزابيين في الديوان العثماني تطبيقا لمعاهدة سنة 1541م التي [illegible] على معاهدة 1510م [illegible]

يتولون تعيينه بأنفسهم وتعترف به حكومة الولاية ليكون بينهم وبينها صلة الوصل أو بالأحرى بمثابة "مندوب سام" ويعين هذا "الأمين" مجلس يتألف من سبعة أعضاء يمثلون مدن ميزاب السبعة ويكونوا له بمثابة مستشارين مما يؤدي بعدم حدوث أي تغيير في الاعتبار الدبلوماسي لميزاب.

وهذه الطريقة نفسها كان تمثيل ميزاب في ديوان الولاية التركية بتونس، ومع أننا لا ندري متى ابتدأ تطبيق هذا النظام في الولاية التونسية ولا كيف فإننا نشعر، نظرًا لتماثل النظامين، بأن تطبيقه بتونس ابتدأ عقب تطبيقه في الجزائر بقليل.

وربما كانت دار السلطنة بـ "الأستانة" أو "الباب العالي" كما كان يسمى هو الذي اعترف بهذا النظام وأقره، ولعله قد اطلع على معاهدة الميزابيين مع صالح باي فيما لا بد أن يكون النظام قد اقتضى أن يحاط من مستوى العلاقات بين الولايات العثمانية وما يجاورها.

ومهما يكن من الأمر فقد كانت هذه المعاهدة بالنسبة للميزابيين بمثابة سابقة سياسية إن لم تكن قد سبقت بغيرها مع بعض الدّول التي سبقت العهد التركي، وقد حاول الميزابيون أن ينظّموا على غرارها علاقاتهم مع الفرنسيين حين وجدوا أن لا مناص عن تنظيم علاقات رسمية معهم وخاصة بعد أن تم لهم احتلال الأغواط أيضا، على أن الميزابيين لم يكونوا يرمون إلى الانعزال عن الشعب الجزائري من وراء هذا الكيان المستقلّ وإنما كانوا يحافظون على استقلالهم كلّما كانت الجزائر مقسّمة إلى دويلات أو مبتلاة باستعمار أجنبي مهما كانت صبغته، وما كان الميزابيون لينظروا إلى العثمانيين نظرتهم إلى الفرنسيين، ذلك بان مواقفهم المشرفة الباهرة في دحض الغارات الصليبية[1] التي كانت تشنها إسبانيا على الجزائر وما أبدوه من بسالة وثبات حتى حين تنهزم الجيوش الرسمية للولاية بل وما كانوا

1 - إشارة إلى مشاركة الميزابيين في [illegible] الحملة الإسبانية على الجزائر [illegible]

يقومون به من أعمال هي في النظم الحربية من اختصاص [illegible]، وما انبهر له وحرص على تسجيله كظاهرة ذات بال حتى بعض المؤرخين الفرنسيين يدل دلالة واضحة على أن الرأي السياسي للميزابيين في علاقاتهم بالدولة التركية لا يقوم على أساس مدني فحسب، بل أيضا على أساس ديني قوامه الشعور العميق بضرورة الدفاع على ثغور الإسلام وسلطان خلافته باعتبار أن الإسلام الذي يمثل النظام الاجتماعي للإنسانية كما يريده الله إلى جانب تشريعه للطقوس التعبدية التي تنظم حياة الفرد وتوجهها نحو السمو والكمال الإنساني هو الجنسية الوحيدة التي تحدد لكل مسلم قرينه وتعين له حدوده.

ولا ريب في أن الشعور القومي بالمعنى المدني الذي اتخذه منذ القرن التاسع عشر لم يكن يومئذ معروفا حتى في أكثر العواصم اتصالا بالحضارة وانفتاحا إلى النهضة. لذلك رجّحنا فيما سلف أنّ المعاهدة الميزابيّة التركيّة كانت أوّل سابقة من هذا النوع، لأنّ علاقات ميزاب بدول الجزائر وتونس قبل العهد التركي لا تعدو أن تكون علاقات فرديّة، وإن كان الميزابيون في تلك العهود لا يجرؤون على تطوير علاقاتهم الفرديّة بغيرهم إلى أكثر من مقتضيات التعايش السّاذج الضّروري إلاّ بعد الرّجوع لهيئاتهم وهذا هو ما يعلل لنا من الناحية العقلية عدم نشأة وحدة القطر الجزائري بجميع أقاليمه المختلفة حول حدود طبيعية أو اعتبارية حتى فيما يعتبر من مدن الشمال أو التل ذات الاتصال المباشر بالتطور الحضاري بدلا عن واحات الصحراء المتنائية والتي أخذت على الأيام تتطور إلى مواقع صالحة للحياة آخذة بعض الأسباب البدائية للحضارة. يضاف إلى ذلك أن الاستقرار لم تعرفه الجزائر إلا فترات متقطعة، فجل عهودها سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعده كانت عهود صراع ما بين أجزائها المتقطعة حينا، وأجوارها المتحمسين لتوسيع ملكهم على حسابها حينا آخر، والغازين لها من الدول ذات المطامع الاستعمارية أو النزعات الصليبية أحيانا أخرى.

وبعد ذلك كله وقبله كان الاقتصاد في مختلف أنحاء العالم -حتى التي تنعم منها بالاستقرار المديد فضلا عن التي لبثت مسرحا للقلق والاضطراب كالجزائر- إنما ينهض على الأرومة الساذجة بلا تحميم له لا تكامل ولا تنظيم ولا تدويل، لذلك رجحنا فيما سلف أن المعاهدة الميزابية التركية كانت أول اعتراف لميزاب بكيان دولي وأن علاقات ميزاب بدول الجزائر وتونس قبل العهد التركي لا تعدوا أن تكون علاقات باردة، وإن كان الميزابيون لتلك العهود.

فالميزابيون -كما أشرنا أعلاه- لا يجرؤون على تطوير علاقاتهم الفردية بغيرهم إلى أكثر من مقتضيات التعايش الساذج الضرورية إلا بعد الرجوع إلى هيئاتهم الدينية والمدنيّة في ميزاب لاستلهامها المدى والكيف الذين يسير عليهما هذا التطور، لقصور وعيهم الحيوي على الحدود المذهبية من جهة وللاعتبار المسيطر على نفوسهم من أن كل علاقة تسمو على المقتضيات الضرورية للتعايش الساذج لا بد من أن تخضع للشعائر والأحكام الدينية طبقا للتكليف الذي رسخ في نفوسهم على الأيام رسوخا خاطئا لمعنى "ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص" وابتعد الميزابيون عن التطبيق العملي اليومي لما تقتضيه أهدافها البعيدة من تحقيق المرامي المذهبية التي أشرنا إليها في أول هذا الباب كما سُلّمَ بها في باب المجتمع الميزابي مما جعل شعورهم الاجتماعي يتخذ شكلا من التكتل الحذر والقائم على الإحساس بالغربة وعدم الاطمئنان إلى غيرهم من الناس..

على أن المعاهدة التركية الميزابية، ثم الرسائل المتبادلة بينهم وبين الوالي التركي في الولاية المركزية بالجزائر تثبت بأن هذه الانعزالية كانت شبه مفروضة عليهم اقتضتها مشاعرهم المذهبية الخاصة، إلى جانب ظروف الجزائر التي أشرنا إليها آنفا والمستوى الثقافي العام للجزائر كافة، وللصحراء الجزائرية خاصة، والذكريات التي رسبت في نفوسهم من ظروف هجرتهم إلى ميزاب، والمسألة التي كانت تتحكم تحكما قويا في تكييف العلاقات بين أجزاء القطر الواحد، والحروب التي كانوا

واجهوها من القبائل المجاورة لهم والملمة بهم أحيانا والتي كانت تعلل تعليلا مذهبيا، كل هذا كان يكبت في نفوسهم النزوع العنيف العارم إلى التعاون والوحدة اللذين تقتضيهما الأخوة الإسلامية لا سيما بعد أن أصبحت الجزائر بنفسها مسرحًا للغارات الصليبية؛ فالمذهبية لم تتخذ في نفوسهم أو على الأقل لم تعد صبغة عداء للمذاهب الإسلامية الأخرى، وقصاراها خصام لأجل تطبيق الإسلام الذي لبث أبدًا فوق كل اعتبار عندهم.

فلما أتيح لهم أن يتصلوا في نطاق احتفاظهم بشرفهم بالدولة التركية لم يقصروا اتصالهم في حدود ما توجبه ضرورة التعايش بل اندفعوا في هذا الاتصال اندفاعا عارما تناسوا فيه أحيانا حتى ما تقتضيه الاستقلال والذاتية المتميزة اللذين اعترفت لهم بهما المعاهدة التركية الميزابية حتى لقد أباح رؤساؤهم لأنفسهم أن ينتحلوا في بعض رسائلهم إلى الوالي التركي المركزي لقب الخدّام[1] وأن يخرجوا في هذه الرسائل عن لغة التخاطب السياسي إلى لغة الشعر كما كان ذلك العهد يعرفها فكان لهؤلاء الرؤساء نفسهم شعر، وهذا الموقف الاندفاعي الصادر من الأعماق التي يسيطر عليها الوعي السياسي برهان على أن الميزابيين كانوا - أول عهد الجزائر بالالتئام - في طليعة من عمل من أبنائها على تحقيق وحدتها وتدعيم تلك الوحدة على أركان من الدين والمشاعر الوجدانية في غير تحفظ ولا احتراس.

وثمّة ظاهرة خليقة بالاهتمام والاستلهام والتسجيل وهي أن سياسة ميزاب الخارجية كانت أسرع إلى الاستقرار ووضوح المعالم من سياسته الداخلية؛ فالعلاقة بين الميزابيين والولاية العثمانية المركزية بالجزائر لم تتعرض، فيما نعلم، لما يمكن أن يعتبر "قلقا" في الأوضاع السياسية والدبلوماسية بالرغم من بعض الخلافات التي كانت تحدث أحيانا بينهم وبين جباة الضّرائب، أو رسل الولاية المركزية أو عمّالها على الإقليم والمدن المجاورة والتي كانوا يراجعون في شأنها أو تراجعهم الولاية

---

1 - نموذج المراسلة، مرفق في الملاحق.

المركزية في شيء كثير من مظاهر الود والتقدير والتكريم، ثم لا تلبث أن تنتهي إلى تراض قائم وعامل أيضا على توثيق متبادل بين الطرفين من حسن التفهم وصدق الإخاء المتبادل بين الطّرفين[1].

الأحوال الدّاخليّة في ميزاب للعهد التركي[2]:

كانت الأحوال الداخلية في ميزاب للعهد التركي – ولأمد سابق، لا نعلم مداه بشكل دقيق ثم إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي بحوالي أربعين سنة- أبعد ما تكون عن الاستقرار، فالفتن والحروب ما فتئت مشبوبة بين المدينة والأخرى وبين القبيلة والأخرى في المدينة الواحدة منفردتين أو تظاهرهما أو تظاهر إحداهما قبيلة أو أكثر من مدينة أو مدن أخرى أحيانا، وهذه الفتن والحروب كانت تبتلع لأتفه الأسباب وعلّة ذلك تدهور المستوى الثقافي والعقلي بفعل الضرورة التي عبأت جميع جهودهم لتحويل تلك المنطقة القاحلة الجرداء إلى واحة صالحة للحياة، ثم في نفس الوقت للدفاع عن واحاتهم تلك ضد البدو الذين كانوا كما سبق أن أشرنا - يعتدون عليها فترة بعد أخرى متخذين لعدوانهم تعليلات مذهبية؛ يضاف إلى ذلك دسائس هذه القبائل والعروش البدوية التي عجزت من أن تنال من الميزابيين منالا يُرضي مطامعها أو يكفكف أحقادها، فكانت تلجأ أحيانا إلى الإيقاع بينهم بالدس والائتمار مستغلة في ذلك عدم استقرار الروابط القبلية للميزابيين والعلاقات الفيدرالية بين مدنهم على قواعد ودعائم من الوعي الاجتماعي أو القومي المنبثق من مستوى ثقافي وحضاري مكيف فعال؛ الأمر الذي حاول الرؤساء الدينيون لميزاب علاجه بمختلف الوسائل، حتى أخذت بعض تشريعاتهم لهذا العلاج صبغة الاتفاقات ومع ذلك فقد ظل داءً عضيًا لا سيما بعد الاحتلال الفرنسي حين تذرع به الفرنسيون لتبرير عدوانهم على ميزاب.

1 – [illegible]

2 – [illegible]

وتعليل هذا التباين بين مستوى الوضعين: الخارجي والداخلي لميزاب من الاستقرار هو أن الوضع الخارجي لم يكن ليعني به، ولا ليباشره غير الرؤساء الذين كانوا - على اختلاف مستواهم الثقافي ووعيهم السياسي - يجدون من الدين العامل الكافي والوازع ذا الأثر البليغ حين كانوا يعالجون شأنا من شؤون ميزاب لا سيما الخارجية منها عن تكييف وتوجيه تلك الشؤون، فالمذهبية في حقيقتها- وكما كان هؤلاء الرؤساء يفهمونها لا تعني تجزئة المسلمين أو التخالف بين مصالحهم العليا، وإنما تهدف إلى ما تهدف إليه الحزبية السياسية والاجتماعية الآن من ابتغاء أبلغ الوسائل وأقوم المناهج وأقصر الطرق إلى المحافظة على الوحدة وتحقيق المصالح العليا للمسلمين، وذلك في رأي المذهبية والقومية أية قومية كانت، وفي رأي الحزبية السياسية، والطبقة (أية طبقة كانت) وفي رأي الحزبية الاجتماعية.

أما الأحوال الداخلية فكانت قبل كل شيء في أيدي العامة ومن صنعها، وما كان للرؤساء سواء في ميزاب أو في أية أمة، مهما كان حظها من الثقافة والحضارة، أن يستطيعوا عمل شيء بالتشريع كلا ولا بالتأديب والتنكيل إذا كانت العامة لا تستطيع أن تدرك ماذا يريدون أو لا تريد أن تنفذ ما يشرّعون، ولذلك كان التخلف الثقافي في ميزاب، كما أشرنا آنفا، هو المسيطر على تكييف الأحوال الداخلية، بينما كان الاستعداد المستمد من مستوى ثقافي (قادر على الفاعلية على كل حال)، ومن وعي ديني عميق أصيل في الرؤساء المسؤولين هو المسيطر على تكييف وتوجيه الوضع الخارجي لميزاب[1].

1 – [illegible] : "[illegible] بالعهد [illegible] الكرام في دراسة سابقة [illegible] عرض [illegible] من [illegible] من المراسلات المتبادلة بين الميزابيين والأتراك في ضبط العلاقات [illegible] الأخوية التي كانت [illegible] [illegible] عن الأتراك والميزابيين." وقد عرضنا تلك النصوص في [illegible] على [illegible] [illegible].

ميزاب والاحتلال الفرنسي للجزائر[1]:

عندما نكبت الجزائر بالعدوان الفرنسي كان وضع ميزاب الجديد القائم على القواعد التي رسمها اتفاق صالح باي، وما عقبه من الرّسائل المتبادلة بين الميزابين والولاية العثمانية المركزية بالجزائر ومن إجراءات ونظم، وقد اتضحت معالم هذا الوضع واستقر على شكله الذي يشبه في وجوه شتى نظام الكومنولث، كما أشرنا في حديثنا عن نشأة هذا الوضع، وكانت الدعائم التي استند إليها وضع ميزاب هذا ثلاثا:

أ – الأخوة الدينية وما تقتضيه من التضامن والتعاون على إعزاز كلمة الإسلام وصيانة وحدة المسلمين وصيانة سيادة الخلافة الإسلامية من كل عدوان.

ب – مصالح الميزابيين الاقتصادية التي أصبحت ترتكز كل الارتكاز على تجارة أبنائهم المهاجرين- إلى حين- شطر مدن الشمال والمضطربين[2] بينها وبين مدن ميزاب والتي اطّرد نموّها ورسخت ركائزها حتى أصبحت ركنا من أركان الاقتصاد الجزائري العام كما سيجد القارئ بيانه في الحديث عن (ميزاب والاقتصاد الجزائري) مما جعل الميزابيين يعتبرون بمثابة صيارفة يسيطرون على معظم المعاملات المالية والاقتصاد بين مختلف سكان الصحراء الجزائري بل وبعض واحات الجزائر شطر الجنوب، فكان ميزاب يقوم بدور المصرف العام لهذه المعاملات كما يقوم بدور المركز الاستراتيجي للمواصلات والمعاملات التجارية ما بين مدن التل الجزائري شمالا وبعض المدن الكبرى من القطر التونسي وبين الواحات الآهلة في معظم أصقاع الصحراء الجزائرية وما وراءها إلى الجنوب.

جـ – مقتضيات التعايش والتجاور مع سكان مدن الشمال الجزائري التي كانت السبب الرئيسي- كما سلف أن ذكرنا- في إبراز الصبغة الدينية إلى جانب الصبغة الدينية لسياسة ميزاب الخارجية، فكان طبيعيا أن يصاب هذا الوضع بشلل عام من جراء النكبة الطارئة، فالغزاة الجدد لم يكونوا في رأي الميزابيين إلا صليبيّين معتدين من أوكد ما يوجبه الدين مجاهدتهم والاستماتة في سبيل دفع عدوانهم عن أرض الجزائر الإسلامية، ولذلك كان موقفهم في الدفاع عن العاصمة وعن قسنطينة وعن غيرها من المراكز التي استبسل فيها المجاهدون الجزائريون على غرار مواقف أئمّتهم الأولين في مختلف الحروب التي خاضوها منذ أعلنوا الخروج ابتغاء تصحيح الأوضاع التي بدا لهم أنها ازورّت عن المعاصرين والذين سبقوهم قليلا والذين جاءوا من بعدهم بزمن يسير من الدفاع عن عُمان ضد الغارات الأوربية المختلفة التي كانت تلم بهذا الجانب من الجنوب الشرقي للجزيرة العربية كلما طوحت بها المطامع الاستعمارية أو الحفائظ الصليبية عبر الخليج العربي.

أثبت بعض المؤرّخين أنّ الكتيبة الميزابية التي يقال أنها تتألف من ألف رجل، كانت أصلب الكتائب الجزائرية وأشدها على الغزاة المعتدين على مرسى (سيدي فرج) إلى أن استسلمت قلعة العاصمة الشيء الذي ألفت إليها أنظار القادة الفرنسيين، وكانت دهشتهم شديدة حين علموا أن هؤلاء المستميتين ليسوا من سكان العاصمة الأصليين ولكنهم ما بين مقيم فيها- إلى حين للتجارة والكسب وما بين وافد عليها تلبية لداعي الجهاد.

وكانت استماتتهم هذه بالإضافة إلى ما عمله الفرنسيون من وضع ميزاب الخاص عند العثمانيين سببا في الاتفاق الذي عقدته القيادة الفرنسية مع التجار الميزابيين في العاصمة وبمقتضاه ضمنت لهم المحافظة على ما كان لهم من قبل لعهد العثمانيين من امتيازات حرفيّة وتجارية، وما أقدم الفرنسيون على عقد هذا الاتفاق إلاّ لهدف بعيد هو المحافظة على وضع من أوضاع الأقليات يمكن استغلاله في يوم ما! ولم تكن لهذا الاتفاق صبغة التنظيم النهائي لوضع ميزاب بالنسبة للحالة الجديدة التي أصبحت عليها الجزائر لأن التجار الذين أبرم معهم لم يكن لهم حق

الالتزام ولا التفاوض باسم كافة مواطنيهم وقصارى عملهم تنظيم علاقاتهم وفق... مع الغزاة الجدد في أضيق الحدود التي تقتضيها ضرورة التعايش؛ وفي الوقت الذي أبرموا فيه هذا الاتفاق كانوا لا يفتئون عاملين في استماتة بطولية على تقويض أركان المعتدين، ودعم حركات المقاومة خارج العاصمة لتحريرها وإلقاء الغزاة في البحر فكان منهم من انسحب من العاصمة مع الفلول التي ارتأت أن تتجمع خارجها لمواصلة الدفاع حتى بلغ بعضهم بلاد القبائل وشارك في الكفاح ضد الغزاة هناك إلى أن أسر، ومن هؤلاء السيد سليمان بن كاسي المجاهد الذي يبدو أنه اكتسب هذا اللقب "كاسي" من بلاد القبائل وأورثه أسرته من بعده فلا تزال تدعى به إلى الآن، جزاء ما بذله في الدّفاع عن أرض الجزائر شبرًا شبرًا حتّى أسر في بلاد القبائل، وقد توفي رحمه الله في بلدته القرارة.

ويقال أن بعض الأسلحة التي استعملها هؤلاء المجاهدون لا يزال أخلافهم يتوارثونها كإرث عزيز على حين عمد من بقي منهم في العاصمة، إلى وسائل أخرى، ومن أبرزها تهريب كل ما تصل إليه أيديهم من سلاح، وقد استعملوا في هذا التهريب كل ما استطاعوا من سبل وأسباب حتى اتخذوا من بعض البنادق والأسلحة الأخرى نعاشًا كانوا يشيّعونها بالطّقوس الدّينيّة المألوفة إلى مقبرتهم[1] حيث يقيمون لها جنازة تقليدية، ثم يدفنونها فإذا جنّ الليل وغفلت أعين الحرّاس أو غفت تسلل المجاهدون إلى المقبرة ونبشوا دفائنها على أمل أن تكون لهم عتاد لبعث الدولة الجزائرية من جديد، ومن أطرف ما يروى في هذا الصدد أن إحدى هذه النعاش لم تجهز تجهيزا حسنا فبدت بعض السيور التي كانت تعلق بها البنادق على أعناق الحاملين مما لفت أعين الفرنسيين وأثار ارتيابهم، فلما سألوا الميزابيين الذين يحملون النعش عن سر هذا الذي يبدو أمامهم في بساطة كانت السبب في إقناعهم — بأنّ الميزابي من خصائصه أن تطول أذناه إذا مات — وهذا على حساب كرامتهم كأناس من الناس استطاعوا أن يقابلوا بالعناد على مشهد من

1 - [illegible]

الحرّاس، وهذه هي الحقيقة التي تكمن وراء الأسطورة الشائعة في بعض أوساط العوام الأغرار عن أذني الميزابيين حين يموتون وعلى هذا السنن كان موقفهم في قسنطينة ووهران حتى اضطر المقدس المبرور الأمير عبد القادر الهاشمي الجزائري إلى الاستسلام.

وطوال هذه الفترة التي تربو عن ثلاثين سنة لم يكن لميزاب بصفة رسمية وضع إزاء قوات العدوان الفرنسي وإداراتها المدنية إذ كان الميزابيون يأملون في أن يمدّ الله المجاهدين بالقوة التي تقضي سريعا على جيش العدوان، فالدّولة العثمانية ما فتئت مركزا الثقة ومعقد الآمال، ولكن احتلال الأغواط للمرة الثانية اضطر الميزابيين إلى التفكير في مصيرهم ودراسة الواقع على ضوء تطوراته وما أخذ يتمخّض عنه من أحداث ليس فيها ما يؤذن بظهور بصيص الفرج من الغمرة التي تكتنفهم بها الأمواج المتلاطمة على مرفأ سيدي فرج.

وما كان الميزابيون قطّ يرمون من وراء هذا التفكير إلى "الانعزاليّة السّياسيّة" التي قد تكون ذريعة يومًا ما في يد الفرنسيين لتفكيك الوحدة الجزائريّة المتلاحمة، كلاّ، وإنّما كان هدفهم الوحيد أن يحافظوا على وضع أكثر حريّة واستقلالاً يجنّبهم غمًّا، إذ أنّ تخليص جزء من أرض الجزائر لا تستفيد منه إلا الجزائر على حدّ المثل السّائر "ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه"، حتّى إذا ما أتيحت الفرص للانقضاض على العدو الغاصب انضمّوا مع إخوانهم المجاهدين لتخليص بقيّة أجزاء الوطن الجزائري، وإنشاء وحدة وطنيّة في ظلّ السّيادة الكاملة، والاستقلال الشّامل[1].

أحوال ميزاب الدّاخليّة بعد الاحتلال الفرنسي[2]:

وعلى الرغم من المستوى المستقر المطرد النمو والتقيد الذي بلغه ميزاب في شؤونه الاقتصادية، فإنّ أحواله الداخلية كانت دائبة الانحدار إلى المهاوي السّحيقة

1 - نهاية الحلقة الثامنة المختتمة بهذه العبارة: "وموعدنا معك أيها التشجيع الكريم في الحلقة الآتية للحديث بإذن الله عن أحوال ميزاب الداخلية في عهد الاحتلال الفرنسي؛ والسّلام عليكم ورحمة الله".
2 - بداية الحلقة التاسعة الواقعة في ثلاثة صفحات.

والاضطراب ذلك بأن أفواج المهاجرين كانت متلاحقة إلى ذلك العهد أو قريب منه، وكان معظمهم ممن ينالون من الحضارة قسطا يرقى بهم عن مستوى القروية البدائية فهم لذلك مافتئوا يحتفظون بألوان ذات أثر فعال في تدرجهم الاجتماعي من أخلاق البداوة وفي طليعتها الخيمة والقبيلة.

والمستوى الثّقافي للذين استقرّوا بميزاب منذ عهد طويل لم يكن قد تجاوز مرحلة الاطلاع على بسائط الطّقوس الدينية التعبدية، بل لقد حدث أن انحدر في عهد الاحتلال إلى اعتبار بعض أحكام المعاملات، كقسمة المواريث في بعض نواحيها، بدعا حين تطبق على نسقها الدّيني وحتى لقد حوصر بعض الفقهاء ذوي الضلاعة والنباهة وشيء من التحرر العقلي في ديارهم كما نفي آخرون من قراهم إلى قرى أخرى.

على حين نكّل بغيرهم تنكيلا مريرا لأنهم أصرّوا على محاربة البدع التي اتخذها الجهلة دينا، وإعادة إقرار الأحكام التي حولها الجهل بدعا، وكذلك لم يستطع أن يفعل في تكوين المجتمع الميزابي وتركيز قواعده أكثر من إقرار مبدأ التقديس لما استقرت العقيدة في النفوس بأنه من الدّين، وعلى هذا الأساس وحده استقرت البقية الباقية من الوشائج الاجتماعية بينهم وفي مقدمتها طاعة الهيئة الدينية "العزابة" والخضوع لأوامرها والرّهب من عقوبتها التي كانت غالبا- كما سيجد القارئ ذلك في حديثنا عن (المجتمع الميزابي)- تقتصر على إعلان "البراءة"[1] التي لا تعدو في حقيقتها أن تكون عقوبة أدبية رمزيّة لولا ما ينشأ عنها من فقدان من عوقب بها لحقوق المدينة حتى ترفع عنه حين يتيب.

1 - [illegible]

يضاف إلى هذا ضيق أسباب الحياة، في ميزاب إلاّ على من يهاجرون منه إلى مدن الشمال الجزائري أو إلى تونس للاتجار، وكانت المسافة لا تزال تسيطر على علاقات الأصقاع وتنقّل الناس بينها، فكان الذين يتحملون رهق الاضطراب بين ميزاب والمدن الصالحة للمعاملات التجارية نفرا قليلا بالنسبة لمجموع الميزابيين لا سيما والطريق بين ميزاب وتلك المدن قلّ أن عرفت أمنًا مستقرا يمكن للمسافرين الاطمئنان إليه، فاجتيازها كان في أغلب الأحيان مغامرة توشك أن تكون يائسة لا يقدم عليها إلاّ من دفعه الاضطرار وأنس من نفسه بطولة.

وذلك على الرّغم من مختلف المحاولات التي كان المسئولون عن سياسة ميزاب يبذلونها لمحاولة تأمين قوافل التجار الميزابيين والتي بلغت في بعض الأحيان حد التنازل عن شيء من الكرامة إذ التزم هؤلاء السّاسة لبعض القبائل الضاربة والمضطربة حول المسالك المطروقة إلى مدن الشمال بدفع ضرائب سنوية تلقاء تعهد تلك القبائل بتأمين قوافل الميزابيين ومع ذلك كان فيها قليلا، ولهذا كان الاحتكاك دائما بين جمهرة الميزابيين حول أسباب الحياة القليلة كوسائل الرّي بما في ذلك اقتسام مياه الأودية إذا جاءت السماء بمطر واقتسام أوقات الاستقاء من الآبار التي تبقى فيها بعض المياه حتى عندما تشتد وطأة الجفاف، وكالتنافس على التجارة المحلية بما في ذلك ما يكون مع الميزابيين المقيمين بقسم من الاتجار في مواد التموين وما يكون مع البدو الرحل الذين يفدون على ميزاب بين حين وحين بما تنتج مواشيهم وبما تجود به بعض المناطق الصحراوية حين يلم بها الغيث، وبما يحملون من الجنوب الغربي إلى إفريقيا السوداء أو من بعض أطراف الشمال القريبة من الصحراء من مواد لها في ميزاب سوق رائجة، وهناك عامل آخر قد ينفرد بإثارة الشحناء بين الميزابيين، وقد ينتج من احتكاك ما على شيء تافه من الأشياء الآنفة الذكر ذلك هو الحميّة القبليّة التي أشرنا إليها في أول هذا الحديث وهي حصلة حملها معه العنصر البربري بصفة خاصة، ومع أن القبائل في ميزاب كانت حديثة النشأة لم

تحفظ بالأموال التي انحدرت منها قبل أن تستقر بميزاب، بل إن القبيلة الواحدة كثيرا ما تضم أشتاتا من القبائل البربرية المختلفة ومن أبناء العناصر الأخرى كالعربية والفارسية، فإنها سرعان ما اتخذت في نفوس أبنائها شكل الوحدة الموحّدة المقدمة بنفس العمق والتأصّل الذي اتخذته القبيلة في أنفس أبنائها البربر في شتى مضاربهم بأصقاع الجزائر، والعرب في شتى مضطرباهم بين أصقاع الجزيرة العربية.

بل ولكي تحافظ على كيانها وعزتها سارت على سنن القبائل العربية والبربرية الأول في تحالف قبيلتين أو أكثر ضد قبيلة أو أكثر من سكان المدينة الواحدة، أو سكان مدينتين حين تكون إحدى هذه القبائل قد تفرعت إلى أكثر من مدينة واحدة، وسرعان ما اتخذ هذا التحالف شكل التحاجز الجغرافي فتمايزت في المدينة الواحدة إلى حيّين متواجهين يستقل الحي منهما بالقبيلة وأحلافها ويحاول كل منهما أن يظهر على جاره حتى حين يستتبّ السلم بينهما بمظاهر حضارية حينا وسياسية إدارية حينا آخر، وهكذا عرفت مدن ميزاب قصة الشرقيين والغربيين، وإن كان هذا اللّقب الذي اتخذه هذا التمايز الجغرافي في بعضها لم يكن جغرافيا بل ظلّ قبليًا على الرّغم من تحاجز سكّانه جغرافيًا، وفي مدن ميزاب وحدث- إلى جانب القبائل المتحالفة المتحاجزة- قبيلة أو أكثر تحاول في أغلب الأحيان أن تحتفظ بحيادها وبعلاقات ودية مع الطرفين المتحاجزين، فإذا تطور الاحتكاك إلى الصراع المسلح - وكثيرا ما كان يحدث ذلك- كان هذا الطرف المحايد رسول السلام الذي يسعى بين الطرفين بالمهادنة فالمصالحة.

وهكذا لبث الوضع الداخلي في ميزاب أبعد ما يكون عن الاستقرار مما أتاح للفرنسيين وسيلة استغلوها إلى أقصى حدود الاستغلال لتهيئة أسباب إخضاع ميزاب ثم احتلاله، وأعانهم على ذلك عدم استقرار الوضع بين الميزابيين والقبائل البدوية المضطربة حولهم كما سلفت الإشارة أكثر من مرة، وهذا ما أتاح للجنرال (الكونت دي راندون) "Le Comte de Randon" الوالي العـام على الجزائـر

سنة 1853 أن يهدد الميزابيين - لا بقوة فرنسا وحدها- بل وبصفة أشد وأكثر اطمئنانا إلى الواقعية - بقطع مواصلاتهم عن طريق إثارة القبائل البدوية عليهم وبطرد تجارهم أو اعتقالهم وتجريدهم مما كانت قيادة الاحتلال قد اعترفت به لهم من امتيازات في الاتفاق الموقع بين الطرفين عند سقوط العاصمة كما ذكرنا آنفا، هو نفسه العامل الذي جعل بعض المسيطرين على الهيئات المدنية[1] بميزاب يخرجون عن طاعة الهيئات الدينية[2] وينزلون على رغبات الوالي الفرنسي خضوعا لمقتضيات ضرورة العيش فيما خيل إليهم عندئذ[3].

وضعية الجزائر إزاء سياسة الاحتلال[4]:

ولم يكن الفرنسيون حين قرروا العدوان على الجزائر ولا حين أقدموا عليه قد وضعوا لمستقبل هذا القطر أو لمستقبلهم فيه سياسة واضحة المعالم أو محدودة الأهداف، بل كان قصاراهم إلى جانب الرّغبة في التوسع والاستعمار التي كانت يومئذ قاعدة السياسة الأوربية خارج أوربا، وبدعها أيضا أن يرضوا في أنفسهم أحقادا صليبية قديمة ما فتئت منذ قرون، إذ أخذت أوربا وخاصة الأقطار اللاتينية منها تأنس من نفسها قوة تضطرم في أطوائهم وتلفحهم لفحًا إلى مجالدة الأقطار الإسلامية، ومحاولة إذلالها، ثم صرف الشعب الفرنسي الذي كانت مختلف الثورات والهزائم التي ظل يواجهها منذ القرن الثامن عشر بما في ذلك إفلات الهند، والهيار إمبراطورية نابليون، والاضطراب بين النظام الملكي والإمبراطوري والجمهوري والذي كان على شفا الانهيار - إلى عمل من شأنه أن يستنفد منه جهدا جهيدا

---

1 - أعضاء المجلس الذي يضم عضوا من كل قرية من قرى ميزاب السبعة والذين ينتخبون من بينهم "حيا" يمثلهم في الديوان [illegible] كما جاء بيان ذلك فيما سبق.
2 - هي الهيئات الروحية في مدن ميزاب والمتمثلة في مجالس العزابة، [illegible]
3 - [illegible]
4 - بداية الحقبة العاشرة الواقعة في أربعة صفحات والمنتهية بعبارة [illegible]

وأن يفتح له - إذا قدر له النجاح- آمالا فساحا، لهذا كان قادهم العسكريون أنفسهم مترددين بادئ الأمر بين ملاحقة الولاة المحليين في مختلف حواضر الجزائر ومدنها الكبرى الذين كانوا يحاولون الدفاع عنّا في أيديهم من أقاليم ضد الغزاة المعتدين، بل وفي ملاحقة المنعم المبرور الأمير عبد القادر الحسني الذي قاد الثورة الكبرى على المعتدين، فكان فيهم وفيمن صحبهم من السياسيين بل كان في الحكومة الفرنسية نفسها وساسة باريس من مالوا أمدا إلى الاكتفاء باحتلال العاصمة وبعض المناطق الساحلية ووضع بقية القطر الجزائري تحت الحماية الفرنسية ولعلهم كانوا سينفذون عروضهم هذه وأمثالها لولا إصدار أقطاب الدفاع ضد العدوان، وفي مقدمتهم الأمير الحسني على ضرورة المحافظة على الدولة الجزائرية كما كانت لعهد العثمانيين، ويبدو أنهم كانوا في إصرارهم هنا أقوياء الأمل في نجدة غالبة من الباب العالي بالأستانة.

وحتى حين تم للفرنسيين إخضاع معظم القطر الجزائري لم يكونوا قد استطاعوا الاهتداء في شأنه إلى سياسة مستقرة، ولهذا كان الميزابيون يشعرون- إلى أن احتلت مدينة الأغواط - بأن لهم متسعا من الوقت لرصد الحوادث والتطورات وتدبر عواقبها وتقدير سياستهم في المستقبل على هدي ما يتبينون من الرصد والتدبر، فلما احتلت الأغواط بدا لبعض المدنيين منهم أنه لا مناص من الوصول مع هؤلاء المعتدين إلى سياسة من شأنها أن تحفظ لهم وضعا أدنى إلى الشرف والكرامة من وقع الاحتلال المباشر، ولعل هذا الرأي لم يكن بادئ الأمر محل خلاف بين المدنيين والدينيين منهم، وإنما نشأ الخلاف بعد ذلك حين أبى الفرنسيون أن يتفقوا مع الميزابيين إلاّ على قاعدة من الإذلال والإخضاع.

ويبدو أن أمر الميزابيين كان قد أهمّ الولاية المركزية للمعتدين على الجزائر منذ حين، وأنها رأت أن تتربص بالبت في شأنه حتى تدرس في وضعهم وأحوالهم دراسة - إن لم تكن جامعة دقيقة - فهي قريبة من الدقة والشمول وما كان ذلك

ليتعسر عليها، ففضلا عن وثائق ديوان الولاية العثمانية المركزية التي استولت عليها بعد استسلام الوالي التركي هناك طائفة حسنة من التجار الميزابيين يمكن أن تعرف منهم أحوالهم وأحوال إقليمهم وبني عمومتهم بمختلف الوسائل، وهناك أيضا من استطاعت أن تصطنعهم من الأعراب وذوي الذمم الخزيّة من سكان المدن التي تم لها الغلبة عليها، وما أمر الجنرال يوسف[1] علينا ببعيد.

وقد استطاعت حين تم لها احتلال الأغواط أن تكون على بينة من أوضاع ميزاب الاجتماعية والاقتصادية، ما يظهر لنا بجلاء في رسالة الجنرال "الكونت راندون" والي الجزائر إلى الميزابيين حين أوفدوا إليه من يفاوض على الاعتراف لميزاب بكيانه واستقلاله وإبرام إتفاق معه شبيه بالاتفاق الميزابي التركي، فقد بينت السياسة التي تضمنتها هذه الرسالة على قاعدتين اثنتين:

الأولى: هي أن كل من كان خاضعا للّواء العثماني أو متصلا بالولاية العثمانية المغلوبة لا مناص له من أن يصبح للفرنسيين خادما ذليلا.

والثانية: هي أن الميزابيين الذين تعتمد حياتهم على ما تفيء به عليهم المدن التي تم احتلالها من مكاسب تجارتهم لم يعد لهم أن يحاولوا الاعتصام بالمسافة التي كانت يومئذ إحدى موازين القوة والضعف، ولا بعسر الصحراء على من لم يألف الحياة فيها، إذ أن الوسيلة إلى إذلالهم وإخضاعهم أصبحت بين يدي المعتدين الغالبين فلهم في المناطق المحتلة أبناء والطريق بينهما وبين تلك المناطق ما فتئت خاضعة لسيطرة القبائل البدوية التي ذاقوا من خصومتها العناء الشديد، والتي أصبحت اليوم أو على الأقل أصبح حلها بدين للمعتدين الغالبين بالطاعة والخضوع، فإن استعصم الميزابيون بالصحراء والمسافة عن واجب الذلّة والخدمة للسادة الجدد فإن أبناءهم ومواصلاتهم ستصبح وسيصبحون تحت رحمة هؤلاء السادة.

---

1 - من يهود تونس التحق بالجيش الفرنسي وارتقى في مراتبه إلى أن أصبح جنرالاً [illegible]

ويبدو أن الهيئة الدينية قد رأت أن يعود جميع الميزابيين المقيمين في المدن المحتلة إلى وطنهم استنادا على مدلول قوله تعالى: ﴿إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾ (سورة النساء) ولذلك اعتبروا كل من تخلف عن العودة إلى ميزاب في البراءة.

ومهما يكن من الأمر فقد خرج الرؤساء المدنيون على إرادة الهيئة الدينية، ووقعوا عهد الخضوع والخدعة على اعتبار أنه معاهدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكان من العوامل التي شجعتهم على هذا العصيان الواقع الاقتصادي لميزاب والمرونة السياسية التي أظهرتها فيهم الأحداث المتالية بعد هذا التوقيع، فقد وقعوا العهد ولكن على دغل[1].

فرنسا تخلق الفرص لاحتلال ميزاب[2]:

وأكبر الظن أنهم إلى جانب مرونتهم السياسية قد وقعوا في الشرك الذي نصبته لهم طلائع الغزو والاحتلال، وقد راجت عليهم الخدعة من غير ما شكّ وريب فإن هناك وسطاء، كانوا يعملون لتيسير مهمّة الفرنسيين ويتخذون لذلك مختلف الحيل والوسائل مستعينين طبعا بجهل كافة الجزائريين - إلاّ نادرا - للغة المعتدين الجدد، وأغلب ما يكون هؤلاء السماسرة من اليهود، فتاريخ هذا العهد والفترة السابقة له والأحداث المتعاقبة فيه يثبت أنهم كانوا الطّابور الخامس الذي مهد للغزو الفرنسي ماديا وسياسيا، وعمل على التمكين له وتوطيد دعائمه في كثير من أصقاع الجزائر وفي مقدمتها ميزاب، ولعل أبرز دليل على العمل اليهودي، في التمكين للفرنسيين في ميزاب قضية الجاسوس الذي سنلم بها بعد حين، وعلاقة اليهود بالميزابيين بيّنة

1 - غاية الصفحة العاشرة المختتمة بقوله: "وستبقى [illegible] الأمر عندما نعرض على مسامعكم الكرام سلسلة [illegible] التي [illegible] الطرفين وانتهت باحتلال ميزاب، والسلام عليكم ورحمة الله".
2 - بداية الصفحة الحادية عشر الواقعة في أربعة صفحات.

وكذلك ارتكزت السياسة الفرنسية مع الميزابين منذ ذلك العهد على استغلال الخصومة الناشئة - في ما يظن الجهلة والأغرار- عن الاختلاف المذهبي بينهم وبين مواطنيهم الجزائريين بداة كانوا أو مقيمين استغلالا يركز دائما إلى قطع مواردهم وأوردتهم الاقتصادية، ولهذا نعتقد أن رسالة "الكونت راندون" التي نتحدث عنها الآن هي المنهاج أو بالأحرى الإنجيل الذي التزمته السياسة الفرنسية واهتدى به الساسة الفرنسيون كلما بدا لهم، وكان من مقتضياتها إعنات الميزابيين وإرهاقهم.

ومهما يكن من الأمر فقد تحملت جماعة من رؤساء ميزاب المدنيين مسئولية توقيع العهد الذي فرضه على ميزاب "الكونت دي راندون" في رسالته تلك، إذ لم تمض ستة أشهر على تاريخ إرسالها إليهم حتى كانوا يوقعون تلك الرسالة نفسها وقد حولت إلى صيغة تعهد.

ويبدو أن خطأ وقعوا فيه غير عامدين فقد أوهموا بأن هذا العهد ليس إلا معاهدة إن لم تحفظ لهم استقلالهم كاملا فهي قد حفظت لهم استقلالا داخليا وحفظت لهم إلى ذلك كيانا متميزا.

على أن عمل هؤلاء لم يرض الهيئة الدينية لميزاب التي كانت إلى ذلك العهد بل وإلى ما بعده المرجع الرئيسي لسياسة ميزاب الذي بيده مقاليدها، فقد حاولت هذه الهيئة بادئ الأمر أن تراجع الولاية الفرنسية بالجزائر في أمر هذا العهد وكانت بين الطرفين اتصالا احتفظ فيها الجانب الفرنسي دائما بقاعدة التهديد بالتنكيل بالمقيمين في المدن المحتلة من الميزابيين بالإصرار على المطالبة باستقلال ميزاب استقلالاً يقوم لا على مجرد الاعتراف الدبلوماسي في نطاق الارتباط المتبادل كما كان عليه الوضع مع الولاية العثمانية، بل يقوم على تعيين للعلاقات التجارية وللحدود الإقليمية تعيينا يشمل حتى وضع الضرائب الجمركية بين الطرفين، على حين واجهت تهديد الجانب الفرنسي عندما ألح بضرورة التسليم له طبقا لشروطه بالإصرار الصلب العنيد حتى لقد أجابت الجنرال "دي راندون" بأن جميع من عندك من التجار الميزابيين في البراءة وإن لم تحفظهم فسنبعث لك بالملح.

واضحة، والتجارة هي المهنة الغالبة على كلا الجنسيتين، وهي لذلك الأداة الأولى والفعالة لإنشاء هذه العلاقة وتوطيدها وصيانتها لا سيما ووضعها المالي يضطرها إلى نوع من التكافل والتعامل، فالميزابي الواسطة بين المستورد والمستهلك، فلما يكون قادرا من الوجهة المالية والوجهة الثقافيّة، على إنشاء تجارة واسعة تقوم على الاستيراد والتصدير والتوزيع بالجملة، وقصاراه أن يتولى مهمة التوزيع الجزئي على المستهلكين. على حين تهيئ طاقة اليهودي وثقافته الاقتصاديّة وسيطرة بني عمومته على الأجهزة الصناعية والمالية في أوروبا ليكون بمثابة الوسيط بين المنتجين في الأقطار المتجة وبين صغار التجار كالميزابيين الذين يقومون بالتوزيع على المستهلكين، وقد عثرنا على آثار لامتداد هذه الوساطة من المجال الاقتصادي إلى المجالات السياسية بين الميزابيين والفرنسيين في بعض الرسائل المتبادلة بين بعض التجار الميزابيين والولاية الفرنسية العامة بالجزائر، والتي أثبت عدد منها في مجموعة الرسائل المنسوبة إلى القاضي "ابن سديرة" والمطبوعة على نفقة الحكومة طبعًا، في المطبعة الرسمية بالجزائر.

وكما أن جمهرة الجزائريين كانوا عند الاحتلال ولأمد طويل بعده يجهلون اللغة الفرنسية، كان الفرنسيون - كما لا يزالون بعد قرن- أعلمهم باللغة العربية في الغالب لا يستطيع أن ينطق بها إلا كهجاء الصبي المعتلة أداة نطقه، أمّا العنصر الذي كان يستطيع أن يجد في أبنائه من يحسن الترجمة بين الطرفين فهو العنصر اليهودي طبعا بحكم مقتضيات المعاملات التجارية الواسعة التي يتوفر عليها لا سيما ما كان منها من قبيل التصدير والاستيراد.

واليهود يهمهم أكثر من غيرهم أن تطمئن العلاقة بين الفرنسيين والميزابيين لأن مصالحهم التجارية قد تصاب إذ اضطربت علاقاتهم كتجار بالجملة بالمستهلكين وذلك خليق بأن يحدث إذا أصاب عمل الميزابيين تعطيل أو اضطراب، ولذلك عملوا جهدهم على تهدئة مخاوف الميزابيين بتهوين ما يراودون عليه من التعهد بالخدمة والخضوع للفرنسيين وتصويره بصورة معاهدة تحفظ لهم بكيان

خاص مرتكزين في ذلك على ما تضمنته نصوص هذا العهد من الالتزام الجانب الفرنسي بعدم التدخل في شؤون ميزاب الداخلية، بما في ذلك الدين والتقاليد، وبإكتفائه - إلى جانب الغرامة السنوية التي لا تختلف عن الغرامة المنصوص عليها في المعاهدة الميزابية التركية من حيث القيمة وإن اختلفت من حيث النوع - بالاعتراف بالخضوع والالتزام طبقا لذلك بعدم إعانة الثوار والمناوشين للفرنسيين.

وما كان الفرنسيون ليرغبوا من ميزاب عندئذ بأكثر من ذلك فبينهم وبين ميزاب مسافة ما برحت إلى جانب طولها غير آمنة وهم فضلا عن ذلك يجهلون - ولعل لليهود يد طولى في تزويدهم بالكثير مما يعلمون - عن حالة ميزاب ما لا يشجعهم بل هو حري أن يثبطهم عن المغامرة بمحاولة إخضاع ميزاب بالقوة، ثم إن سياستهم كانت قد اطمأنّت إلى مبدأ المطاولة وترقب الأحداث الملائمة حتى إذا مهدت لهم السبل عملوا على مد مناطق احتلالهم مسافات أخرى، وهكذا خدع الرؤساء الدنيون الميزابيون فوقّعوا عهد الاستسلام والخضوع[1].

على أنهم ما كادوا يرجعون إلى ميزاب حتى بدأ بينهم وبين مواطنيهم صراع، الباعث عليه استنكار الخضوع للطغاة الصليبيين. وقد تولت كبره الهيئات الدينية وخاصة عزابة مدينة "بني يزقن" الذين كانوا بمثابة القادة لميزاب قاطبة لا سيما في العلاقات الخارجية، لما كان لهم من نصيب أوفر في الفقه والعلوم الدينية برز منهم شخصيات لها عقول أدنى إلى التحرر والتفتح والمقدرة على الاستيعاب والتدبير منهم العلامة الشيخ عبد العزيز الثميني (رحمه الله) ولذلك كانت رسائل الميزابيين إلى الولاية العثمانية تحرر غالبا في "بني يزقن" ويوقعها أحد أقطابهم الشيخ الحاج إبراهيم بن بيحمان[2] (رحمه الله).

1 - وقعت معاهدة الحماية بين الميزابيين والفرنسيين بتاريخ 29 أفريل [illegible]، هذه المعاهدة التي لم تعمّر كثيرا عند صدور في 30 نوفمبر سنة 1882 مرسوم بإلحاق ميزاب بالتراب الفرنسي.

2- إبراهيم بن بيحمان [illegible] (1232هـ/1817م) من علماء بني يسجن [illegible]

التشاكس بين الميزابيين وإدارة الاحتلال :

وبرز هذا الصراع في شكل خطب حماسية ألقيت في السنوات التي تلت توقيع هذا العهد، وأكبر الظن أنها كانت تتخذ شكل دروس دينية من تلك التي يلقيها شيوخ المساجد وأقطاب العزابة في الجمع والمواسم الدينية وغيرها من المناسبات الحاشدة وما أسرع ما ظهرت آثار هذه الخطب في شكل أعمال إيجابية وسلبية حينا آخر.

ففي سنة 1857 أي بعد توقيع هذا العهد بأربع سنوات فقط بدا للكومندان "مرغريت" الذي كان حاكما وقائدا لمنطقة الأغواط وما وراءها من مناطق الصحراء يومئذ أن يزور ميزاب، ويبدو أن أنباء مريبة تسربت إليه فعرج على ميزاب في كتيبة من الجند فيما هو سائر إلى بعض مناطق الصحراء جنوبا. وبعث إلى الميزابيين يخبرهم بموعد زيارته فسالمته "بريان" لأنها كانت مقطوعة من بقية مدن ميزاب فخشيت العواقب حتى إذا بلغ "غرداية" واجهته بأبواب موصدة فثارت ثائرته وحطم الأبواب ودخلها، فإذا الشوارع مقفرة إلا من بعض الأعيان الذين استقبلوه في بشاشة صفراء مصطنعة كأن لم يحدث شيء، لأن عملهم ذلك لم يكن إعلان ثورة وإنما مظاهرة وتلك إحدى عجائب المرونة السياسية في الميزابيين الذين كان مستواهم الثقافي يومئذ لا يؤهلهم أن يبلغوا في السياسة إلى هذا المستوى الرفيع.

ولا ريب في أن "مرغريت" (Margueritte) وقيادة الاحتلال والولاية العامة الفرنسية أصبحوا غير مطمئنين بل ولعلهم قلقون جدا من صدق نوايا الميزابيين الذين لا تدل مظاهرهم ولا أنباؤهم على أنهم كانوا جادين حين وافقوهم على الخدمة والخضوع، لذلك أرسلوا إلى ميزاب يهوديا أو انتدبوه من اليهود المقيمين في ميزاب لمحاولة الحصول على حقيقة ما يبيت الميزابيون وما يزمعون، وما لبث هذا الجاسوس أن اكتشف أمره فقتل بين مليكة وبني يسجن أي في مسافة لا تفصل المدينتين إلا بحوالي كيلومتر ونصف.

وأحس الفرنسيون بتحد محز في نفوسهم ولبثوا يترقبون الفرص للانتقام ولاحت لهم سريعا إذ قرر الإمبراطور نابليون الثالث أن يزور الجزائر عقب هذا الحادث بقليل، فراسلت الولاية العامة ميزاب وألحت في أن توفد مدنه وفودا على عددها لتمثيلها في حفلات استقبال الإمبراطور، وأدرك الميزابيون المغزى السياسي لهذه الرغبة فهي إنما تهدف:

أولا: إلى إرغامهم على تطبيق وثيقة الخدمة والخضوع تطبيقا عمليا يظهر حتى في بسائط الشكليات.

ثانيا: إلى عدم الاعتراف لهم بكيانهم الفيدرالي الذي يجعل لهم ذاتية متميزة واعتبارهم سكانا لمدن لا تمتاز بشيء عن سائر مدن الجزائر المحتلة في كيانها أو وضعها السياسي.

ولذلك أعرضوا عن الإجابة فأثار تصرفهم هذا حنق الفرنسيين الذين رأوا أن وفدوا "مرغريت" مع حاكم الأغواط الجديد إلى ميزاب بحجة أن هذا الحاكم يريد أن يتصل مباشرة بمن يشملهم نفوذه.

ويبدو أن "مرغريت" الذي قد رقي إلى مرتبة عقيد "Colonel" كان قد اقترح على الجنرال يوسف قائد ولاية المديّة المختلطة التي تشمل منطقة الأغواط تسليط عقوبات على الميزابيين مسرفة في العنف، ولكن الجنرال يوسف كان يرى غير هذا كما كانت ترى القيادة العامة للاحتلال وكانّ رأي الجنرال يوسف والقيادة العامّة يستند على تقدير أثر المسافة بين الأغواط وميزاب وعدم الاستقرار في الصحراء إلى الجنوب من ميزاب، بل وعدم الاطمئنان إلى أنّ دعائم الاحتلال في المناطق المحتلة شمالا قد أصبحت وطيدة آمنة، هذا كانت التعليمات الصادرة إلى "مرغريت" في رسالة الجنرال يوسف صريحة في حصر العقوبات التي كلّف "مرغريت" بتسليطها على الميزابيين داخل نطاق التغريم لصالح الخزانة، وأخذ الديّة من مدينة غرداية خاصة لعائلة اليهودي المقتول لأنها كلفت بالبحث عن القاتل فلم تفعل شيئا، وكذلك جاءت الديّة والغرامة على النحو الآتي:

غرداية: دية عشرة آلاف (10,000) فرنك،

بني يزقن: ثلاثين ألف (30.000) فرنك غرامة لأنها هي التي تولت الخطابة ضد فرنسا والدعوة إلى مقاطعة حفلات الإمبراطور.

مليكة: ستة آلاف (6.000) فرنك غرامة.

بنورة: ثلاثة آلاف (3.000) فرنك

العطف: ستة آلاف (6.000) فرنك

بريان: خمسة آلاف (5.000) فرنك

أما القرارة فيبدو أنها لم تغرّم كبقيّة قرى ميزاب، ولعل حركات الخيانة التي كان بعض المأجورين قد قاموا بها، وتركت آثارا شنعاء وفتنا دامية استمرت سنين عليها. كانت قد بدأت من يومئذ، ولعل بعض هؤلاء الخونة كانوا قد استجابوا لدعوة الولاية العامة فحضروا حفلات استقبال الإمبراطور وفي طليعتهم القائد السفّاح عميل الاستعمار "كاسي بن بوهون" الذي لا يزال بعض حفدته يسوون على منواله.

ومهما يكن من الأمر فقد برهن ميزاب خلال العشر سنوات الأولى من موافقة الفرنسيين على الخضوع أنه لم يرض هذه الموافقة وأن الذين أقدموا عليها إنما كانوا ماديين ويتربصون الفرص الملائمة للانتقاض[1].

احتلال وادي ميزاب[2]:

وما لبث الميزابيون إلا يسيرا حتى سنحت لهم الفرص، فاقتنصوها، ففي سنة 1863 توفي الباشا آغا حمزة بن بوبكر آل سيدي الشيخ الذي كان مسيطرا

1 - [illegible]

2 - [illegible]

على منطقة ورقلة وما يليها إلى الجنوب والجنوب الغربي حيث تضطرب قبيلته وينشر نفوذها الديني باسم الفرنسيين، فولي الأمر من بعده ابنه الأكبر سليمان، ويبدو أن حمزة هذا كان على خلاف مع أخيه "لعلى" بن بوبكر في الموقف الذي ينبغي أن يقفوه مع المحتلين الفرنسيين كرؤساء لقبيلتهم وقادة دينيين على حين كان سليمان ابنه على رأي عمّه، فلما ولي الأمر أعلن الجهاد وناصرته جميع القبائل التابعة لنفوذ أسرتهم الديني، وبعد أسابيع استطاع أن يثير الجنوب كله بما فيه ميزاب، فتلك هي الفرصة التي كان يترقبها الميزابيون للانتقاض، ومضت الثورة ما بين الانتصار والانخذال، وخيّل إلى بعض الأغرار وأرباب الذّمم الخربة أنّ أوان الانتقام من القبائل المعادية لهم من المواطنين الميزابيين قد آن، فمالوا إلى خذلان الثورة مما اضطر الوطنيين الميزابيين إلى إجراء عملية تطهير داخل بعض مدن ميزاب، فكان أن هجم رجال من العطف ومليكة وبنورة على جانب من غرداية فعد سكانه عن تلبية داعي الجهاد ولم ينصرفوا عنه إلا خلاء، وأصبح ميزاب يمثل مركزا استراتيجيا هاما لثورة الجنوب، ففيه تتّصل قبائل الجنوب بقبائل الشمال مستنصرة مستنفرة، وكذلك عقد في ميزاب المجاهد المنعم "لعلى" بن بو بكر آل سيدي الشيخ مؤتمرا للقبائل الشعانبة[1] والحرازلية[2] الضاربة حول ميزاب إلى الشمال، وهناك استقبل بحفاوة كما يستقبل الحليف، فلمّا قدّر لهذه الثّورة أن تقصر دون مهمتها واستشهد أقطابها وتفرّق من بقي من أبطالها فلولاً، عاد الميزابيون إلى مسايرة الفرنسيين فأوفدوا من يحاول تأويل موقفهم للولاية الفرنسية العامة بيد أنها تنخدع للحيلة وإن كان ظروفها الناشئة عن حرب المكسيك كانت تضطرها إلى ابتغاء السلم مع كل من يرغب فيه ولذلك اكتفت بأن تطلب إلى "مرغريت" أن يقابل الميزابيين بحذر شديد.

1 - الشعانبة: [illegible]

2 - الحرازلية: [illegible]

وعلى الرغم من فشل هذه الثورة وما بدا على مناطق الجنوب من مظاهر استتباب الأمر فيها للفرنسيين فإن الولاية العامة لم تطمئن إلى ذلك الهدوء البادي بل كانت تخشى أن يكون قناعا لترقّب وتربّص قد يسفر يوما- إذا سنحت الفرصة كفرصة حرب المكسيك- عن ثورة جديدة، ومن يدري ما ذا عسى أن تكون نتائجها لا سيما والآفاق السياسية بين فرنسا وألمانيا آخذة في التلبد والاكفهرار. ولذلك لجأت إلى وسيلة جديدة حاولت بها صرف سكان تلك المناطق عن الفرنسيين إلى أنفسهم فعملت في إثارة الإحن والأحقاد بين القبائل المضطربة والمقيمة، وطبيعي أن يكون للميزابيين من هذه الخطة نصيب، ففي رسالة الجنرال يوسف إلى حاكم الأغواط المذكورة آنفا يعلل هذا القائد عدم موافقته على تسليط عقوبات عنيفة مثيرة على الميزابيين كما كان يقترح "مرغريت" بأن هذا الإجراء من شأنه أن يوحّد بين الأحزاب الميزابيين المختلفة المتنافرة.

إذكاء الفرنسيين لنار الفتن حول ميزاب تحضيرًا للإيقاع به :

ولم يكن عسيرا على الولاية العامة الفرنسية أن تجد في بعض الأحزاب عملاء من الخونة والأغرار، فقد كانت فيما سلف تستنصر على بعضها بعضا بعض القبائل المضطربة حول ميزاب كما ذكرنا من قبل، واستغلال الحمية الجاهلية التي كانت تدفعهم - فيما سلف- إلى مثل هذا التصرف لن يكون عسيرا على صنعة الدسائس الفرنسية، لا سيما مع قوم لم يرتفع بعد مستوى الإدراك السياسي في عامتهم عن السذاجة البدائية غير قليل، وكذلك استطاعوا أن يثيروا فتنا شعواء بين هذه الأحزاب وأعانهم على ذلك تاريخ من خلافات أمشاج ما بين قبائلية ووطنية، آخرها إجلاء جانب من غرداية السالف ذكرها، والتي كانت أول ظاهرة لإضفاء الصبغة السياسية الوطنية على الصراع القبائلي في ميزاب، ففي 16 يناير سنة 1867 حدثت فتنة قبائلية في غرداية كانت الصبغة الوطنية فيها إلى جانب الصراع القبلي ظاهرة فاعلة، فقد امتد لهيبها الأهوج إلى خارج غرداية إذ ظهر نفر من بريان، أحد الجانبين المتصارعين فزحفوا إلى غرداية في هجوم مسلح، وكانت معركة هوجاء بين هذا الفريق الخليط من أحد طرفي غرداية وأنصارهم البريانيين من جهة، وبين الفريق الآخر الخليط أيضا من الميزابيين (الإباضية) المقيمين بغرداية ونفر من (المالكية) المجاورين لهم والمنتسبين إلى قبيلة المدابيح[1]، وكانت هذه الفتنة البداية والأساس لفتنة أخرى كانت الظاهرة الوطنية أبرز فيها، وقد حدثت بعد هذه بخمسة عشرة سنة، فقد لبث الفريقان منذ هذه الفتنة متمايزين في اتجاههما السياسي ما بين وطني صريح العداء للمحتلين وقبلي لا يكتفي بالمسالمة فحسب بل قد يتخذ من بعض أبنائه عمدا وصنائع للفرنسيين.

وإلى جانب هذه الفتنة حدثت في تلك الأثناء فتن مماثلة، لها لعل من أبرزها فتنة القرارة التي كان عملاء الفرنسيين أجراء فيها وأبرز فاعلية وأعمق أثرا، وإن كان القراريون[2] ليسوا بأقل من الغرداويين[3] في عامتهم مقاومة لصنائع الاستعمار بل لعل بعض ملاحقاتهم لهذه الصنائع وألوان انتقامهم منها كانت أجرأ وأجلى كما كانت الآلام والمتاعب التي لحقتهم من هذه الملاحقة وهذا الانتقام فيما بعد بالغة العنف والمرارة.

ولم تقف الفتنة الحزبية أو القبائلية على ميزاب وحده كما أشرنا آنفا بل تجاوزته إلى ورقلة التي كانت المدينة المركزية منها مقسمة إلى ثلاثة أحياء:

حي "بني واقين"[4]، وحي "بني سيسين"، وحي "بني إبراهيم"، وكان بنوا واقين إباضية وبنو سيسين مالكية وبنو إبراهيم أمشاجا لذلك سهل على الفرنسيين أن يثيروها حربا شعواء بين بني واقين وبني سيسين، وسرعان ما امتد لهيبها إلى بني ميزاب الذين استنصر بهم أخوالهم بنو واقين فهبوا إلى نصرهم وكانت الدائرة على

---

1 - المدابيح : سكان جناية بن ضحوة بالشمال الغربي لغرداية.
2 - القراريون: سكان القرارة.
3 - الغرداويين: سكان غرداية.
4 - وهناك من يلفظه "بني واجين".

هذا الحلف الإباضي فلاحق المتنصرون الميزابيين إلى ديارهم وكانت أن تقع الكارثة لولا انتهت آخر الأمر قبل أن يعظم خطبها.

وأحست قيادة منطقة الأغواط بأن السّياسة الفرنسية التي استغلت التعصب القبلية، بل والاختلاف في الاتجاهات السياسية أيضا قد نجحت نجاحا مرضيا، فرأت أن تخطو خطوة أخرى في توطيد أركانها بميزاب فراح حاكم الأغواط يطلب ويُلحّ في إلغـاء ما بقي للميزابيين من حريـة التصـرف في شؤونهـم الداخلية، ولكـن الولايـة العامـة كانت تُعرض عن طلبـه الملحّ هذا ويبدو أنها لم تعتبر بعد أن الأوان قد آن.

مقاومة الميزابيين لاحتلال وطنهم :

وظل ميزاب مسرحا للحوادث والفتن بفعل الدسائس الفرنسية التي كانت تهدف إلى تبرير احتلاله فعلا، فقد كانت الولاية العامة مقتنعة بأن ميزاب لمستواه الاقتصادي المكين ومستواه الفكري والإدراكي الذي كان بالقياس إلى غيره من مناطق الجنوب قيمًا ناميًا سيكون احتلاله المباشر تدعيما لنفوذ فرنسا وهيبتها في الصحراء وتأمينا لقوافلها إلى الجنوب.

وكان الصراع بين الوطنيين وعملائها قد طغى على كل عامل آخر من عوامل النزاع في ميزاب وأخذ يتطور بشكل أدى إلى التضوح حتى اتخذ على الأيام شكل الاغتيالات السياسية.

ففي 10 أكتوبر 1881 قتل الحاج إبراهيم احريبة الذي كان شيخا مسنا معروفا لدى المصادر الفرنسية فإنه عمل لصالح فرنسا مدة ثلاثين سنة أي بسنتين قبل توقيـع عهـد الحمايـة والخضـوع، وقد قتـل هذا الرجـل في وسـط سوق مدينة (بريان) مسقط رأسه ومقره على الساعة العاشرة صباحا، وطبيعي أن يكون ثأر الفرنسيين أو تظاهرهم بالثأر لهذا الحادث بالغا فهو مظهر من مظاهر التحدي المريع

وفي 21 مارس 1882 أي قبل انتهاء ستة أشهر من هذا الحادث وقع حادث آخر تقول المصادر الفرنسية أنه من نوع سابقه إذ اختطف الشيخ صالح بن كاسي واتضح أنه قتل، ومع أنه كان مشهورا بالصلاح والتقوى فإن المصادر الفرنسية تؤكد بأنه كان صديقا للفرنسيين، وتعتبر هذا الحادث هو أساس المذبحة الفظيعة التي حدثت في غرداية مسقط رأس الفقيد ومقره يوم 26 أفريل 1882 أي بعد شهر ونصف من حدوثه، وقد أسفرت المذبحة عن انقلاب وطني إذ تم فيها النصر للفريق الذي كان يناهض الفرنسيين صراحة فاستولى على جميع مقاليد السلطة في المدينة من دينية ومدنية وشكل الهيئتين: الدينية والمدنية من الأفراد الذين كانوا أشداء على الفرنسيين.

وفي نفس الوقت حدث في مليكة التي لا تبعد عن مدينة غرداية إلا بأقل من كيلومتر واحد انقلاب مماثل، إذ أخضع المدينة واستولى على مقاليدها آل الرْكْبطي[1] وأنصارهم فكانت هذه الأسرة الكريمة أول أسرة نكبها الفرنسيون بعد أشهر حين وضعوا أقدامهم في ميزاب.

وكذلك تهيأت للفرنسيين العلل الكافية لتبرير احتلال ميزاب احتلالا مباشرا، ففي نهاية الشهر السادس من هذه الحادثة في يوم 26 أكتوبر 1882 أرسل الوالي "تيرمان" إلى قائد منطقة المدية "الجنرال الأميرال إدوارد دي لا تورة" برقية تحت رقم 626 يأمره فيها بغزو ميزاب[2].

الميزابيون تجاه الاحتلال[3]:

رغم أن الميزابيين فوجئوا بقوات الاحتلال تغزو بلادهم فإنهم لم يستقبلوها بالخضوع ولا بالدّهشة التي تقتضيها المفاجأة، على الرغم من أن هذه القوات

---

1 – آل الركبطي: [illegible]
2 – [illegible]
3 – [illegible]

كانت ضخمة هائلة خليقة بأن تشيع الرعب في النفوس، فقد كانت عبارة عن كتيبة تتألف من (1175) ألف ومائة وخمسة وسبعين جنديا وضابطا و(1851) ألف وثمانيمائة وواحد وخمسين جملا تحمل المتون والذخائر ما يكفي حاجة هذه الكتيبة لمدة ثلاثين يوما، ذلك بأن هذه الكتيبة وجهت أوامرها بالعنف الشديد، وأن قوبلت هي من الناحية الحربية بالمسالمـــة المصطنعـــة، مما اضطر قائدهـــا المباشر (كابتان هارت ميار، Le capitaine Hart Mayer) إلى اتخاذ تدابير وإجراءات عنيفة ضد الذين واجهوا أوامره بالعصيان، فلم تمض بضعة أيام لوصول كتيبته إلى غرداية إذ دخلتها يوم 17 نوفمبر 1882 حتى أخذ في اعتقال الوطنيين، وكان أول من اعتقل منهم- لأنه جابه الفرنسيين بالعنف- هو المنعم المبرور السيد باحماني بن الزكطى من أسرة آل الزكطى التي سبقت الإشارة إلى الانقلاب الوطني الذي تزعمته في مدينة مليكة إحدى مدن ميزاب السبعة.

ثم تتابع الاعتقال فاعتقل قطب الأيمة المنعم المبرور الشيخ الحاج محمد أطفيّش[1] لمدة أربع وعشرين ساعة، إذ كان يومئذ زعيم الهيئات الدينية للميزابيين أو بالأحرى شيخ مشايخ وادي ميزاب، وقد سبقت الإشارة إلى أن الهيئة الدينية في "بني يسجن"[2] هي التي تولت كبر الوقوف في وجه رغبات الفرنسيين منذ عرضوا على الميزابيين عهد الذلّة والخضوع أثناء ولاية الجنرال "الكونت دي راندون" على الجزائر، وقد ورث الشيخ أطفيش (رحمه الله) فيما ورث من أعباء الماضي الميزابي المضطرب زعامة هذه المعارضة الثائرة وكان يمتاز عن سلفه بالذهن الواسع والعقل المتحرر الدءوب إلى الانطلاق والصلاة الممتدة خارج حدود الجزائر إلى الدولة العثمانية على المضايق وإلى دولة زنجبار في شرقي إفريقيا مما أتاح له إدراكا أوسع وأعمق للتطورات السياسية المختلفة، وخاصة ما يتصل منها بالأوروبيين، وقد

1 - الشيخ محمد بن يوسف أطفيش [illegible] 1332هـ/1914م [illegible] حوالي 300 مؤلفا بين كتاب ومخطوط.
2 - [illegible]

حاول الفرنسيون قبل الاحتلال المباشر لميزاب التقرب منه والتخفيف من حدته عليهم فقلدوه نيشانا من المجمع العلمي الفرنسي برتبة ضابط بيد أنه كان يضعه دائما أسفل جناح برنوسه تعبيرا عن مدى احتقاره له على حين كان يضع نياشين الدول الإسلامية الأخرى في مواضعها التقليدية وعندما غزا "هارت ميار"، ميزاب بكتيبه كانت لديه تعليمات صريحة من رؤسائه بتجنّب أي احتكاك بهذا الرّجل الثائر، ما قد يحوله إلى قائد ثورة، ومع ذلك لم يجد مناصا من اعتقاله كما ذكرنا آنفـــا، اعتقـــالا رمزيـــا يهـــدف منه فيمـــا يبـــدو إلى إرهـــاب أنصاره أكثر مما يطمع في غمز قناته.

ثم اعتقل في 26 نوفمبر الوطنيون الذين أرسلوا فيما بعد إلى سجن جزيرة (كرسيكا *La Corse*).

وفي 30 نوفمبر[1] أعلن إلحاق ميزاب وتلى البيان الذي بعثه الوالي العام على الجزائر إلى الميزابيين لتحديد الأسباب والأهداف لهذا الإجراء، تحت السلاح ورفع العلم الفرنسي.

الكرّ والفرّ بين سلطات الاحتلال والهيئة الدينيّة بميزاب :

وفيما بين 17 و30 نوفمبر كان "هارت ميار"يحاول إقناع الهيأة الدّينيّة بضرورة تعيين الأشخاص اللّذين كانوا يولون القضاء أو العدالة للاعتراف بهم وإقرارهم في مراكزهم كما كان يحاول إقناع الهيأة المدنيّة بتعيين الرّؤساء الّذين سيلقّبون بالقوّاد (القائد Caïd) ويكونون أدوات اتّصال بين الفرنسيين والميزابيين، وكانت محاولاته تصطدم بسياسة الهيئة الدّينيّة القائمة على عدم الاعتراف بشرعيّة أيّ اتّصال مع فرنسا فضلاً عن الاعتراف لها بأيّ حقّ في التدخّل في شأن من شؤون ميزاب، وتصطدم بسياسة الهيئة المدنيّة التي عادت إلى الخضوع لتعاليم الهيئة

1 - سنة 1882.

الدّينيّة عند الغزو الفرنسي بعد أن كان الفرنسيون قد نجحوا في إحداث الفرقة والاختلاف بين السّلطتين في خلال مدّة ارتباط ميزاب بواسطة بعض ممثّليها بالفرنسيّين.

على أنّ "هارت ميار" استطاع آخر الأمر أن يقنع الطّرفين بأنّه لا جدوى من هذه المعارضة، فالاحتلال الفرنسي أصبح أمرًا واقعًا، وهكذا تسنّى له أن يجد أناسًا يعيّنهم قوّادًا ويلبسهم البرانيس الحمراء يوم أعلن إلحاق ميزاب.

وكانت أمامه عقبة أخرى في اختيار هؤلاء النّاس، ذلك بأنّ بعض رؤساء الهيئات الدينيّة عندئذ لم يكونوا ممّن يطمئنّ إليهم، فاضطرّ إلى وسائل شتّى من التّرهيب والتّرغيب لإرغام تلك الهيئات على قبول رؤساء آخرين ممّن كانوا أمام عينه أرضى وأقلّ لجاجة من الأوّلين.

وقد اختير "هارت ميار" بالذّات لمباشرة احتلال ميزاب للكفاية التي أبداها خلال عمله في المناصب الإداريّة للولاية العامّة بالجزائر وعمل لتنفيذ المبادئ الاستعماريّة، وتطبيقها في شيء غير قليل من الدّهاء، وقد عرف بالمظهر العام المرن، وبالعمل الحازم السّريع، كما عرف بكتابه "نشر اللّغة الفرنسيّة بين الأهالي" الذي دعا فيه إلى القضاء على اللّسان[1] العربي في الجزائر وتركيز اللّسان الفرنسي باعتباره أنجع وسيلة لإدماج العنصر الأهلي[2] في العنصر الفرنسي، وكانت مهمّته تنحصر في تنفيذ الاحتلال وتوطيده ولذلك لم يبق في ميزاب غير شهرين وأربعة عشر يومًا، من 10 نوفمبر 1882 إلى 24 يناير 1883.

وفي رسائله المختلفة إلى الإدارة المركزيّة بالجزائر نجد اعترافه الصّريح بأنّ الميزابيين قد يستقبلون كتيبة الاحتلال بما يستقبل المدافعون من أراد غزوهم لو أنّهم كانوا على علم سابق في تجهيز هذه الكتيبة.

1 - [illegible] سورة الأحقاف الآية 12 وقوله تعالى: [illegible] سورة النحل الآية 103.

2 - [illegible] (Les indigènes) [illegible]

وبالرّغم من التّأكيدات التي تضمّنها بيان الإلحاق بأنّ هذا الإجراء لا يعني التّدخّل في شؤون الميزابيين الدّاخليّة أو أيّ تصرّف لا يتّفق مع الالتزامات الفرنسيّة التي تضمّنها كتاب الوالي الفرنسي على الجزائر، المتحوّل إلى عهد الخضوع الذي وقّعه بعض المسؤولين المدنيين الميزابيين في 19 أفريل 1853 بالرّغم من ذلك فإنّ التّعليمات التي حملتها معها الكتيبة الغازية، كانت تقتضي القيام بما أسماه "هارت ميار" في تقرير له بـ "إدخال تغييرات عميقة في شؤون ميزاب الإداريّة ونظام السّلطة فيه"، وذلك طبقًا للقواعد التي ارتكزت عليها مطالبات "مرغريت" الملحّة بإلحاق ميزاب بالتّراب المحتل احتلالاً مباشرًا، خلال السّنوات العشرة السّابقة لإعلان هذا الإلحاق، تلك القواعد التي تقتضي أنّ بقاء ميزاب وحده منطقة ممتازة بعدم الخضوع المباشر لسلطات وقوانين لاسيما الجنائيّة منها، ليس من شأنه أن يحدث خللاً في النّفوذ الفرنسي بالجنوب فحسب، بل هو أيضًا تهديد للأمن الفرنسي، وخاصّة فيما يتّصل بالمواصلات بين شمال الجزائر المحتلّة وجنوبها.

والواقع أنّ أسس هذه التّغييرات العميقة قد شرع في إعدادها بطريق الدّس والائتمار منذ وقّع عهد الخضوع، ومعلوم أنّ استغلال النّزاع الحزبي أو القبلي كان من أهمّ ركائز السّياسة الفرنسيّة بميزاب، وأنّ الفرنسيّين عملوا على التّفريق، وإنشاء التّباين في الآراء ثمّ التّنافس على النّفوذ بين السّلطتين اللّتين كانتا تعملان معًا على إدارة ميزاب في نطاق التّكامل والتّكافل بين السّلطتين الدّينيّة والمدنيّة، وكان اختلاف السّلطتين حول الموقف الذي يجب أن يتّخذه ميزاب إزاء الفرنسيين إثر عدوانهم على الجزائر ثمّ حول تأويل عهد الخضوع وتحديد مدى مشروعيّته، كان ذلك الاحتلال أوّل ظاهرة للفرقة والتّباين في الآراء بين السّلطتين وأوّل ركيزة لتنافسهما على النّفوذ[1].

1 - [illegible]

المناورات الاستعماريّة بميزاب[1]:

إنّه من الطّبيعي أن يجد الفرنسيّون الوسائل الكافية لإنماء وتدعيم ركائز الفرقة والقطيعة بين الميزابيين حتّى تصبح قوّة مكينة راسخة تعد ثلاثين سنة من نشاطها، فضعف الوضع السّياسي نسبيًّا، واشتدّ الصّراع القبائلي على الأيّام، وتدهور الأحوال الاجتماعيّة نتيجة لهذا الصّراع تدهورًا؛ كلّ ذلك مكّن للاقتصاديين الميزابيين إلى حدّ ما من مقاليد النّفوذ في الشّؤون المدنيّة بقدر ما أضعف من نفوذ رجال الدّين، إلى جانب ألوان التّرغيب والتّرهيب الّتي برعت فيها السّياسة الفرنسيّة، كلّ هذه الأسباب كانت وسائل صالحة لتدعيم تلك الرّكيزة وتمكينها وزيادتها عمقًا ورسوخًا.

وجدت الكتيبة الغازية الطّريق ممهّدة أو تكاد إلى الفصل نهائيًّا بين السّلطتين الدّينيّة والمدنيّة ووضع السّلطة المدنيّة تحت التّصرّف المباشر لإدارة الاحتلال ومحاولة تضييق مجال السّلطة الدّينيّة وتجريدها شيئًا فشيئًا من الفعّالية المادّيّة وإبقائها أداة للسّلطان الرّوحي فحسب.

وطبيعي أن يكون تأثيرها في السّلطة المدنيّة أعمق وأيسر، فرؤساء العشائر الّذين تمسك أيديهم مقاليدها كانوا قد هيئوا لذلك من قبل ومعظمهم لم يشعر بادئ الأمر بأنّ شيئًا ينتزع من يده بل بالعكس من ذلك أوهموه أنّ الإجراءات الجديدة لا تعني أكثر من الاعتراف بمركزه وتقوية نفوذه ولا سبيل للقلّة الّتي أدركت حقيقة تلك الإجراءات أن تجنح إلى المقاومة وخاصّة أولئك النّفر الّذين كانوا عماد الانقلاب الوطني في كلّ من مليكة وغرداية لأنّ أقطاب هذه الحركة قد زجّ بهم في السّجون ليبعدوا بعد ذلك إلى جزيرة كورسيكا، وقد فقدوا كلّ أمل في مقاومة تلك الكتيبة الضّخمة الغازية، ولذلك لم يجد الميزابيون مناصًا من إبدال بعض رؤساء الهيئات المدنيّة الّذين رفض قبولهم "هارت مايار" برؤساء آخرين ممّن كانوا أدنى إلى الاعتدال عند سلطات الاحتلال.

1 - [illegible]

ولذلك لم تجد عسرًا في تعيين من سيكونون الممثّلين لسلطتها في مدن ميزاب، بل أتيح لها أن تتخيّرهم وأن تنزع من الهيئات المدنيّة ما بين طيّعة ومكرهة الاعتراف بهم كرؤساء لها وإن يتمّ لها كلّ ذلك خلال ثلاثة عشر يومًا، وأن يتسنّى لها ترسيمهم "قيّادًا" وإلباسهم حلّة القيادة، البرانيس الحمراء يوم 30 نوفمبر[1] أي في اليوم الثّالث عشر من غزو ميزاب.

على حين كان تأثير سلطة الاحتلال في الهيئات الدّينيّة أشدّ تعرّضًا للمشقّة والعسرة فهي لم تستطع أن تطلب منها إبدال أشخاص بآخرين على الرّغم من أنّها هي الّتي تحمّلت عبء مناهضة الفرنسيين من أوّل يوم، وقصارى ما كانت تأمله[2] هو أن تفوز من هذه الهيئات بتصريح رسمي بأسماء رؤساء المشايخ وأسماء من يتولّون من أعضائها أعمال القضاء، بقسميه الابتدائي والاستئنافي ليكون اعترافًا تامًّا قائمًا على أساس هذا التّصريح الّذي يعني سياسيًّا الاعتراف بواقعيّة وشرعيّة الاحتلال المباشر الجديد والخضوع لمقتضياته وإن بصفة رمزيّة؛ ومع أنّها قد ظفرت آخر الأمر، وبعد أجهد الجهد كما يعترف "هارت مايير" نفسه بهذا التّصريح، فإنّ موقف الهيئات الدّينيّة المعاند واحتجاجاتها الصّارخة كانا كافيين سياسيًّا لتجريد هذا التّصريح من معنى الاعتراف الّذي كانت ترجوه وحصره في التّعريف الّذي لا يعني أكثر من الخضوع للقوّة الغالبة ولا يثبت شرعيّته عند المشرّعين.

هكذا بدأت السّلطات الفرنسيّة تنتزع من الميزابيين شؤونهم الدّاخليّة من مدنيّة وتشريعيّة، وهي دائمًا تدّعي المحافظة على بقاء تلك الشّؤون في أيديهم احترامًا لالتزاماتها.

كانت القادة الدّينيّة يومئذ قد استقرّت في يد قطب الأئمّة الشّيخ الحاج محمّد أطفيّش رحمه الله، وكاد أغلب أعضاء الهيئات الدّينيّة في مدن ميزاب السّبعة،

1 - سنة 1882.

2 - أي سلطة الاحتلال.

سيما من كان منهم على حظّ من الثّقافة يسير أو وفير، إمّا من قدماء تلامذته وإمّا ممّن لا يزالون يتلقّون العلم منه، وكان القضاة وأعوانهم بطبيعة الحال يختارون من هؤلاء التّلامذة، فهم وحدهم غالبًا الأكفاء القادرون على تحمّل هذه التّبعات الجسام، وكان رحمه الله عدوًّا لدودًا للفرنسيين، فكان في مقدّمة عمله التّثقيفي توجيه النّفوس إلى اكتشاف خفايا السّياسة الفرنسيّة التّركيز على وعي طلبته وتسديد جهودهم في مناهضة تلك السّياسة. لذلك كان للهيئات الدّينيّة تلقاء الاحتلال الفرنسي ذلك الموقف الصّلد العنيد الواعي، فقد بلغ من بعض القضاة وفي طليعتهم العلاّمة المنعم الشّيخ بكير بن داود من آل بن يوسف إحدى أسر العطف الماجدة، أن استقالوا من مراكزهم احتجاجًا على الاحتلال الفرنسي، وارتفاعًا بأنفسهم من العمل في ظلّ سيطرة المعتدين.

والملاحظ أنّ من أهم الآراء التي كان العقيد "مارغريت" يستند إليها في إلحاحه على الولاية الفرنسيّة العامّة بالجزائر أكثر من عشر سنوات تقوم باحتلال ميزاب احتلالاً مباشرًا كان من أهم تلك الآراء خضوع القطر الجزائري كلّه لتشريع واحد وإجراءات قضائيّة واحدة وكانت أهمّ تعلاّت الفرنسيّين للاعتداء المباشر على ميزاب دعواهم بأنّ الأمن فيه أصبح مختلاً، وما كانت أهداف تلك الآراء لتخفى على الهيئات الدّينيّة في ميزاب وفي طليعتها القطب الشّيخ أطفيّش، فكان جليًا أنّ دعوى الفرنسيين بأنّهم لا يرغبون من معرفة من يتولون مناصب القضاء في أكثر من الاعتراف هؤلاء القضاة اعترافًا رسميًا يحميهم وحدهم بالقوّة لتنفيذ أحكامهم عند الاقتضاء، أنّ هذه الدّعوة ضلالة من ضلالات المستعمرين تخفي وراءها السّعي للاستيلاء عمليًا على سلطات التّشريع والقضاء وافتكاكها من أيدي الهيئات الدّينيّة، وذلك ما حدث فعلاً بعد فترة طويلة، فلم يكد ينقضي ربع قرن حتّى كانت سلطات الاحتلال قد بلغت المرحلة النّهائيّة من مراحل إخضاع القضاء والتّشريع في ميزاب لسلطتها المباشرة، إذ فرغت عندئذ من إزالة آخر مظهر من مظاهر استقلال القضاء لميزاب حين عطّلت مجلس الاستئناف بعد أن عملت

على تعقيد إجراءاته وتضييق أمده ثمّ على جعله اختياريًا لمن شاء أن يتجاوزه إلى المحكمة الفرنسيّة بالبليدة، وبعد أن آلت رئاسته إلى صنيعة من صنائعها قاضي غرداية عندئذ، ذلك الدّاهية الماكر الذي جمع بين العلم الغزير والحيلة الواسعة وبين ما اتّصف به من الحميّة القبليّة والخضوع لسيطرة الأنانيّة فكان مثلاً للمتناقضات حين تجتمع في شخص واحد لتجعل منه خطرًا مشخصًا يمشي على وجه الأرض.

ومع أنّ الوطنيّين في غرداية قد استطاعوا آخر الأمر أن ينقذوا مدينتهم وينقذوا ميزاب كلّه من شرّ القاضي داوود بن بكير فإنّ عملهم كان عاجزًا عن أن يعيد لمجلس الاستئناف حرمته وأن يعيّن القضاة من الهيئات الدّينيّة ولذلك كان هذا القاضي وزملاؤه قضاة مدن ميزاب السّبعة آخر من عيّنوا في مناصبهم من قبل الهيئات الدّينيّة وهكذا توصّلت فرنسا بمناوراتها إلى شلّ الجهاز القضائي بميزاب بترك الحريّة الجزئيّة للميزابيين في عرض ثلاثة ممّن يختارهم عشائر البلدة لتولّي منصب القضاء وللحكومة وحدها حقّ اختيار أحد من هؤلاء الثّلاثة ومن الطّبيعي أنّها كانت تختار أليَنهم عريكة وأقربهم إلى المسالمة، ثمّ عمدت فرنسا إلى خرق أهمّ عنصر من عناصر معاهدة 1853، وهو عدم التدخّل في الشؤون الدّاخليّة لميزاب فأظهر الميزابيون الرّفض البات والمقاومة المستميتة التي كان من ضحاياها المساجين والأموات الشّهداء الأمر الذي اضطر الإدارة الفرنسيّة إلى التّراجع في قرارها تدريجيًا فبعد أن كان المفروض على مدن ميزاب السّبع تجنيد مائة وخمسين شابًا كل سنة أصبح هذا النّصاب مختصرًا إلى خمسة عشر شابًا مع حريّة التّعويض، ولا يزال الميزابيون يتعارضون ويتظاهرون كلّما قرب ميعاد تجنيد هؤلاء الشّبّان.

بقي ميزاب على هذا الوضع الأعرج، لا هو متمتّع بالحكم الذّاتي حسب معطيات معاهدة 1853 ولا هو ملحق تمام الإلحاق، ولم يكن الميزابيون يرمون من وراء التّمسّك بمميّزات المعاهدة إلى الانفصال عن إخوانهم الجزائريين، كلاّ وإنّما كانت نظرتهم المحافظة على سلامة جزء من هذا الوطن الجزائري وتمتّعه ببعض

حقوق ليس من الحكمة ولا من السّياسة التّنازل عنها ما دامت من جملة مطالب الشّعب الجزائري، وما دام النّظام الاستعماري هو السّائد في البلاد، فتحقيق وطأة هذا النّظام على جزء من التّراب ليس معناه الانفصال عن التّراب، أمّا وقد عطّلت لغة الكلام وتولّى السّلاح تصحيح الأوضاع فالميزابيون يحاربون في صفوف إخوانهم جنبًا لجنب ويكافحون من أجل هدف واحد هو تخليص هذا الوطن العزيز من براثن الاستعمار الغشوم، والتّفاني في الجهاد المقدّس إلى النّصر النّهائي[1].

الوثائق السياسيّة لمناورات جيش الاحتلال بميزاب[2]:

ننهي في هذا الجزء دراستنا، من ناحية من نواحي وادي ميزاب، وهي ناحية الاحتلال الفرنسي لهذا الجزء من الوطن الجزائري، ونوع المناورات المبتكرة من طرف قوات الاحتلال الفرنسي في يد بعض حرفي الذمم من العملاء والأذناب، ونحن لا نريد أن نختم هذه الناحية قبل أن نستعرض بين يدي القارئ الكريم وثائق تاريخية تثبت بطريقة لا تدعو إلى الشّك جميع المعلومات التي أدلينا بها ولنبدأ بالوثيقة الأولى وهي مقتطفات من تقرير بعث به الضابط "هارت مايير" الذي بعث على رأس الكتيبة المكلفة بإلحاق ميزاب بالأرض المحتلة الجزائرية وقد كتب هذا التقرير باسم قائد منطقة المديّة، الذي أشرف على عملية الإلحاق، ليوجهه إلى القائد العام لجيش الاحتلال الفرنسي للجزائر وجاء في التقرير ما يلي:

...إن جماعة مدينة بريّان خرجت لاستقبال الكتيبة وعلى رأسها قائدها فقدمت لنا الماء والحطب والطعام، خرجت إلينا بوفود السيّارات السّبع وهيأت لنا كل ما طلب منها وهذه المظاهرات السلمية تبرهن لنا أن ليس للميزابيين وهم يجهلون المهمة التي كلفت بها أي نية في المقاومة ولكني أتوقع عكس تلك المظاهرات يوم يعلمون بأمر إلحاق بلادهم بفرنسا والشروط التي ستفرض عليهم...

1- [illegible]
2- [illegible]

إلى أن يقول: مافتئ المثقفون منهم يحتجون على إلحاق وطنهم بفرنسا إلى تاريخ ثلاثين نوفمبر، ولم أظفر منهم بأسماء من يتولون وظيفة شيخ ولا المستشارين القضائيين ممن يلقّبون بالعزّابة، إلا بعد عناء كبير وصبر نافد استطعت بهما أن أقنعهم بأن احتجاجاتهم لا تغني عنهم شيئا وقد اضطررنا إلى إلقاء القبض على الطالب سي محمد أطفيّش الحامل لنيشان الشرف العلمي برتبة ضابط من المجمع العلمي الفرنسي والمذكور شخصيًا في تعليمات الوالي العام، واعتقاله في المخيم لمدة أربع وعشرين ساعة.

وعندئذ أيقن الطّلبة بأن لم يبق لهم إلا الخضوع للأمر الواقع وأقنعتهم بأن يستعملوا نفوذهم الديني لدى أتباع مذهبهم لتيسير مهمة الإدارة الجديدة التي سيخضعون لها ذلك لفائدتهم ولفائدة أتباعهم".

وهذا تعريب الرسالة التي بعثها الجنرال يوسف إلى الصّاغ حاكم الأغواط ضمّنها تعليماته وجوابه عن اقتراحات العقيد.

"في هذه المدة الأخيرة حدثت أمور تجعلنا نشكّ في الاستعدادات الحقيقية للميزابيين، إنّ نفوذنا في خطر ومن الواجب أن نعيده كاملا ولكن بوسائل هادئة لا تحدث التّصحيح الّذي لا يريده القائد العام والّذي يجب أن نعترف بأن لا موجب لاستعماله إذ لم يحدث أي عمل انتقاضي صريح وحدّي، فاليهودي القتيل في ظروف استلزمت إجراء بحث في مدينة غرداية فكانت الأجوبة مراوغة لا يمكن أن تقنعنا، ولذا لم يسلم المدنيون إلى مرغريت (Marguerittte) فعليه أن يلزم غرداية بدفع غرامة لفائدة الخزينة تعويض لعائلة القتيل وأن دفع الغرامة والتعويض اللّذين يحددهما، فإن رضي السكّان الامتثال لأوامره فعليه أن ينسحب هو وجنوده، وأن ينبئ العصاة بأنهم سيعتبرون ويعاملون كأعداء لفرنسا ومقتضى هذا سوف ينذرون بأن جميع مواصلاتهم ستقطع بواسطة القبائل المجاورة لهم، وليست هنالك وسائل أخرى يمكن أن تتخذ ضدهم، وأي إجراء غير هذا سيبعد بنا لا عن نوايا القائد

العام فحسب بل عن أوامره وهكذا فإن أقصى ما يمكن للعقيد أن يفعل تحت مسؤوليته الخاصة هو أن يأذن بقطع المواصلات وقد أمر القائد العام قائد مقاطعة وهران بأن يصدر أوامره إلى حاكم البيّض لكي يكون على استعداد للتحرك عندما يطلب ذلك "مرغريت" ويمكنه أن يدعو مباشرة ولنفس الغرض المخاليف[1] وأولاد نايل[2] والأرباع بدائرة الأغواط وبمناسبة عزم الإمبراطور وزوجته على زيارة الجزائر فإن بعض مدن ميزاب لم تستجب للدعوة الموجهة إليها بان ترسل نوابًا عنها للاستقبال، وهذا الشرط لا يسمح برفض تقديم آيات الخضوع اللائقة برئيس الدولة، يجب على العقيد أن يلزمهم بالتفكير، وذلك بغرامة أو بأي شيء آخر، ولكن يجب في أي حال من الأحوال أن يجبرهم على تقديم رهائن، يجب أن نتجنب هذا النوع من الاضطهاد لأنه يقينا سيثير مشاعر جميع الأحزاب التي تفرق مدن ميزاب".

ويوجد بالإضافة إلى الإنذار السابق إنذار آخر وجهته قوات الاحتلال الفرنسية إلى بني ميزاب في صيغة التهديد كمقدمة للاحتلال وهذا نصه:

"الحمد لله وحده:

من طرف سعادة الوالي العام بالولاية الجزائرية إلى كافة أهل وادي ميزاب، السلام عليكم وبعد،

أيها القوم القاطنون بوادي ميزاب لمّا أدعتم إلى طاعتنا استمسكتم بحمايتنا سنة 1853 كنا وعدناكم ألاّ نتخل عنكم بحمايتنا القوية المتينة عند ترددكم في أعراشنا وإقامتكم بمدينتنا فوفينا العهد معكم وإنكم اعتبرتم في جميع ما هو من المنافع الجزيلة في تنظيماتنا المفيدة المستقيمة وتصرفاتنا الباهرة المتحدة، أما أنتم في مقابلة ذلك الإحسان منّا إليكم وإطلاقنا أزمة الأمر في أياديكم وأفرادكم بفصلها حتى صرتم

---

1 [illegible]
2 [illegible]

مستقلين بشؤونكم الخاصة على مقتضى نظركم كنتم عاهدتمونا بإدامة العافية في حوزكم وإحتاكم ما تتأذى به مصالحنا وآراءنا السياسية إذا بكم لم تقوموا بواعيدكم حتى بقي وادي ميزاب في أتم الإهمال واستمرت بلاد ميزاب تعاني أشنع فسادكم، وإزهاق دمائكم في كل حين وأضحت قصوركم ملجأ لأنواع الأشرار الذين تطالب هم محاكمنا وأصبحت أسواقكم مفتحة لجميع المفتنين بالقبلة بل تمدونهم بأصناف الأدوات الحربية، كل ذلك منكم ونحن لم نقصّر معكم في الإنذار الأكيد والنصائح السّديدة والنصرة المعنويّة المفيدة فصمّمتم عن الإنصات إلينا إمّا بمحض إرادة أو عدم استطاعة، فاليوم قد استغاث بنا جميع من مسته ضرورة من قلّة انتدابكم وسوء قيامكم فأتيناكم لنردكم من الحالة المضطربة إلى الحالة المنتظمة الشاملة للهدوء والاطمئنان وإن رأيتمونا مؤثّرين حل الواصلة الرابط بينكم وبين فرنسة منذ مدّة، فذلك قصدنا في تقريبكم منّا وانضمامكم إلينا فما مرادنا إلاّ احترام عوائدكم المتواترة بحيث لا نوظف عليكم لا قائدا ولا قاضيا من أبناء العرب بل نترككم على حسب ما توجهه عوائدكم وموافقكم وندعكم مرتبطين بجماعتكم فيما يؤول إلى تصرفاتكم متعلقين بمشائخكم الإباضية فيما يرجع إلى فصل نوازلكم ونكون معاضدين مؤكدين الحكم لحكم رؤسائكم ممضين منفذين لآراء مشائخكم مهما حكموا بالعدل والإنصاف ولكنّا لا نهمل كل من خرج عن الحد وخالف الموجبات مع الحكومة الجمهورية أو مع الرّعايا بالتصرفات والقضاء بل نعاقبه حتى يكون عبرة لأولي الألباب".

كتب في 01 نوفمبر سنة 1882 بأمر الواضع طابعه أعلاه دام عزه وعلاه.

هذه رسالة الجنرال يوسف إلى الميزابيين بعد أن أظهروا عداوتهم للفرنسيين لا سيما حين قتلوا جاسوسا يهوديا تابعا للاستعلامات الفرنسية، وامتنعوا عن إرسال وفد يشارك باسمهم في استقبال نابليون الثالث عند زيارته للجزائر، وكان العقيد "مرغريت" قائد منطقة الأغواط والصحراء المجاورة لها عندئذ قد اقترح عقوبات

على الميزابيين، ولكن الجنرال يوسف أشفق من تحمل مسؤولياتها وآثر أن يو[illegible] للميزابيين ذلك القائد مزودا بعقوبات أخف ومعهما الرسالة الآتي تعريبها.

"إلى جماعة بني ميزاب سلام، وبعد فإنني أبعث لزيارتكم العقيد "مرغريت" الذي تعرفونه منذ أمد والذي يعرف ماذا يليق بكم وإني أبعث معه الرّجل الذي يتولى حكم الأغواط ليراكم و... شؤونكم هذه هي رغبة الماريشال "راندون" الذي يهتم دائما بما يتصل بكم، فلا تغيير لشيء عمّا كان عليه إبان حكمه بالجزائر وغايتنا أن تعيشوا في سلام واطمئنان وثقة في تجاربكم تحت حماية فرنسا، إلا أن في الأونة الأخيرة حدثت منكم اضطرابات وعند قدوم جلالة الإمبراطور بقي ما كتب إليكم دون جواب؛ يجب أن يسوّى كل هذا فأنصتوا إلى العبارات التي سيتحدث بها إليكم العقيد وسوف لا يكون إلا الخير والسلام".

وهذا نص الرسالة التي بعث بها أهل غرداية لمشائخ بني يسقن في شأن عقد مصالحة بين الشعامبة[1] وبين بني يزقن إثر الفتنة التي أوقدها بينهم عملاء الاستعمار الفرنسي وطلائع الاحتلال:

"الحمد لله وحده وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله،

حفظ الله ذات المكرم الأجل، محبّنا وصديقنا ومتوالنا، وأعز الناس عندنا الحاضر في قلوبنا الغائب من أعيننا القائم بأمور الزّمان المكرم الفاضل الذي هو في منزلة الوالدين شيخنا الفاضل عبد العزيز والحاج إبراهيم بن [illegible]، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فإنا نسأل عنكم وعن أحوالكم، فإذا سألتم عنّا كما نسأل عنكم فإنا نحمد الله ونشكره وفي حكم لا تبديل ولا تحويل، أنتم منا وإلينا وفي منزلة والدينا وإخواننا، وليس عندنا سواكم إلا ربّنا وأنتم، لكن يا نعم الأحباب، الناس مقتسمون أقساما وأنتم قسمة آبائنا وأجدادنا، والعدو يتسلّط على من يفرّط في أحبابه، وعلى من يأكل الذئب من [illegible].

1 - الشعامبة أو الشعانبة [illegible]

لكن يا نعم الأحباب، أتانا الشّعامبة، وجعلنا الخير بين الشعامبة[1] وحول [illegible] ومامهم قادمون إليكم أولادنا ليجعلوا الخير بين الشعامبة وبين يسقن أحسن من الشر والناس كلهم ثبات على الخير والعافية وهذا ما عندنا أعلمناكم به وأنتم من أهل الخير.

والسلام من الواثق الله".

بهذه الوثائق التاريخية الثمينة نختم دراستنا عن الناحية التاريخية والسياسية لميزاب من عهد الفتح إلى الاحتلال الفرنسي، وتفرد دراستنا المقبلة بالحديث عن النظام الاجتماعي بوادي ميزاب[2].

1 - [illegible]

2 - [illegible]

النظام الاجتماعي بوادي ميزاب

طقوس الزواج والمرأة الميزابية[1]:

للخطبة عند الميزابيين طقوس وتقاليد، فالخيار يتولاه الوالدان أو الأولياء أولاً ويراعى فيه التكافؤ العائلي إلى جانب السلامة من المغامز[2] الخلقية والدينية في كلا الطرفين، أما المركز المالي فقلما يلحظ بصفة جديّة من أحدهما. فإذا تمت الاتصالات الأولى بين الأسرتين وأسفرت عن قبول مبدئي للخطبة أخبر الشّاب باختيار والديه أو ولي أمره ووصفت له من اختيرت لتكون قرينته في المستقبل، وصفا دقيقا يشمل كلّ ما يمكن أن يرى من أجزاء جسمها كما يشمل جميع النواحي التي تتصل بكفاءة الفتاة الصناعية[3] فيما يتعلق بشؤون البيت وخلقها وخلق أهلها، وقد تسعى الوالدة أو القريبة لتهيأ الفرصة للشاب الخاطب كي يرى من اختيرت له وقد لا يحتاج الأمر إلى ذلك فالفتيات ما لم يتزوجن ما يفتأن غاديات رائحات ملتحفات ولكن التحافا لا يخفي وجوههن وأكفهن وبعض زينتهن التي لا حرج أن يتخذنها ما دمن أبكارا وذلك ما يسهل للشاب أن يراها في بعض الشوارع غادية أو رائحة أو أمام بيتها أو بيت إحدى أترابها اللاتي تعودت أن تمرح معهن منذ بواكير الصّبا، ولا ريب أن الفتاة تتحرج من أن يراها من اختيرت له، وقد لا يكون حرجها إلا مصطنعا وهي على كل حال حريصة على أن تفرّ بين يديه كلما أبصرت منه شبحا أو أحست له ركزًا، وأترابها يدركن بغرائزهن أولاً ثم ترى الواحدة للأخرى من مشاهداتها ثانيا هذه المطاردة الخفية الخجلة بخفرة بين

---

1 - [illegible]
2 - يقصد بها العيوب وهي جمع لمغمز.
3 - يقصد بها الشطارة، صنعة اليد.

الخطيبين، وهن لذلك حريصات على أن يترصدن تلك المطاردة التي لهو لهن ألوان من الدّعابة فيها كثير من الإغراء وفيها أيضا كثير من التعبير عن خوالج الأماني والأحلام في أنفسهن وربما خوالج الغبطة والألم أيضًا فيمن يكون حظها قد تأخر عنها، وقد تترخص بعض الأسر وخاصة في بعض المدن فتتفق الأسرتان المتصاهرتان على دعوة الخطيبة والخطيب إلى منزل أحدهما في شبه حفل أو وليمة تفتعل لها مناسبة بعيدة عن حقيقة الهدف، ويتنبه الخطيب بأن خطيبته في نفس المنزل وبثّه حين تدفع نحوه في مهمة مفتعلة أيضا كأن تحمل شيئا أو تأخذ شيئا من الغرفة التي يكون فيها أو مَن غرفة مجاورة لا مناص للوصول إليها من المرور بباب الغرفة التي يكون فيها، ومع ذلك فقلما يجرؤ الخطيب على أن يرفض اختيار ذويه أو يبدي عدم الترحيب به وذلك لأن الحياة كانت في ميزاب إلى سنوات الأخيرة فيما يتعلق بالمنزل والعلاقات الزوجية ميسورة هينة لا تعقيد فيها ولا التواء، فالمرأة سيدة البيت لا رفيقة مجتمع، وقصارى ما تراد له ويراد منها أن تحسن إدارة بيتها طبقا لإرادة زوجها، ولهذا كانت الأسر المتكافئة في مراكزها الاجتماعية قلّما يخطئها التكافؤ في استعداد بناتها للشؤون المنزلية، أما الجمال، فالميزابيون لا يهملونه ولكنهم أيضا لا يلحظونه كأساس للاختيار، فأدنى ما تكون عليه الفتاة صالحة لأن تخطب هي أن تكون مقبولة الشكل، وللميزابيين عقيدة أو رأي يوشك أن يصبح عقيدة، هي أن الزواج يؤثر في المرأة حتى يغير معالمها، ولذلك يقنعون الفتوح حين يلاحظ في خطيبته نزولا عن مستوى ما يرغب فيه من جمال، كما يقنعونه بأحاديث تروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام، فيها تحريض على الزهد في الجمال الصارخ والتشبّث بذات الدين، فإذا تمّت الخطبة كانت مادة لأغاني واحدة المبني وإنما تتغير فيها أسماء المتصاهرتين وذويهم تنطلق بها حناجر الفتيات القريبات من الأسرتين والصديقات لهما وهن يجدن تشجيعا من الأسرتين المتصاهرتين اللّتين تريان في ذلك التغني الإشهار الّذي أمر به الشّرع ليبرأ الزواج من طابع الكتمان حسب مفهوم العامة، والاحتراز من أن كلا من الفتاة والفتى وحد حظّه وبريء من أن يحصل أو يبور. وليس عند الميزابيين خاتم الخطبة وأيتها عندهم قرط أو قرطان مما يعلق في الأذنين، وكانت هذه العلامة في أول حياة الميزابيين تمثّل ما هم عليه من

شظف وفقر إذ يتخذونها من نحاس أو فضة ثم أصبحت تتخذ من ذهب وكانت بادئ طورها هنا ثقيلة الوزن ثم رأت الهيآة الدينية[1] إسرافًا في ذلك فشرعت تخفيفها إلى حدّ بعيد.

وتقدم أسرة الخطيب مع القرطين أحيانا بعض الملابس وربما أيضا بعض المواد الغذائية، وذلك كله في حدود ما ترى" العزّابة"، وليس على الخطيب أن ينفق على خطيبته ما لم تزف إليه ولكنه يهاديها في كل موسم عن المواسم الإسلامية طبقا للأوضاع التشريعية المثبتة أصولها في مجلات التشريع الميزابية والتي تختلف دائما على حسب اختلاف المدن الميزابية واختلاف الظروف الاقتصادية والمدينة الواحدة وفي هذا النسق وفي هذه الحدود تتم حفلات الزفاف ودفع المهور، وما إلى ذلك.

والفتاة الميزابية تنشؤ من صغرها تنشئة منزلية، فلا تكاد قواها النفسية تصبح قابلة للتلقي حتى تدفع إلى بعض "كتاتيب" النساء حيث تلقّن تلقينًا سور القرآن ابتداء من الفاتحة فالقصار[2]، فإن أسعفتها مراميها وكان أهلها ذوي يسر استمرت وحفظ القرآن حتى تتمّه وإلا انصرفت بعد أن تحفظ شيئًا من قصار السّور وأقوال الصلاة ودعواتها وفي نفس الوقت تدرّب في منزلها أو في بعض منازل أقاربها على الغزل والنسيج لا سيما نسيج الزّرابي وعلى إدارة شؤون المنزل، فإذا اجتازت العاشرة بقليل درّبت تطبيقيًا على الصلاة، وقد تلتحف عندئذ إذا توفر جسمها[3]، وقد تؤجل الالتحاف إلى الثالثة عشرة، ولكنها بعد ذلك تلتحف كيفما كانت حال جسمها، فتلك عند الاباضية من البلوغ حتى وإن أبطأت به العلامات.

والأسرة حريصة أبدا حين تختار الفتاة العاشرة من عمرها على أن تجد لها زوجا، فبقاء الفتاة الملتحفة في الشارع مما تراه الأسرة قادحا في مركزها الاجتماعي

1 - حيث أنّ عظمى العزّابة في كلّ مصر من مصور ميزاب [illegible]
2 - [illegible]
3 - [illegible]

وفي فنائها، وإذا كانت الأسرة فقيرة (أسرة الفتى أو أسرة الفتاة) فبنو العمومة والأقارب من العشيرة، وأحيانا العشيرة كلها تتكفل جمع نفقات الزواج، وتدبير عمل للزوج يضمن له حياة كفاف مع زوجته.

والزواج ستار حديدي بين المرأة وخارج المنزل وخاصة في العشر سنوات الأولى، فلا يكاد الزوج يسمح لها بأن تبرح منزلها وإن إلى بيت أبيها إلا في ظروف خارقة للعادة كزواج أو مأتم وعندئذ يسمح لها بالخروج ولكن بصحبة والدها أو من تقوم مقامها من ذويها أو بصحبة والدة زوجها وعلى أن تخرج ليلا، وإن تعود إلى بيتها إلا كذلك ليلا.

والمرأة الميزابية مع ذلك لا تضيق ببيتها، ولا تثقل عليها حياتها الرّتيبة هذه لأنها قد هيئت لها نفسيا منذ الطفولة، بل لعلها ترى فيها عند بواكيرها لونا من الطرافة والمتاع فهي سيدة بيتها الجديد، سعيدة بمسؤولياتها التي تجعل منها امرأة لها مهمّة وعمل وأمر بعدما كانت فتاة تؤمر فتنقاد، وحسبها من حياتها هناءة أن تتفنّن في إدارة بيتها وتنسيقه وفي إعداد حاجيات بيتها وأن تتصرف بعد ذلك إلى هذا اللون أو ذاك من النّسيج فإن لم يكن ثوبًا تعدّه للباس زوجها، فزربيّة أو مخدّة تتفنّن في تنميقها ما أسعفها ذوقها من التفنّن وقد تفرغ إلى جانب ذلك للاستزادة مما حفظت من القرآن فتتمّه إن لم تكن قد أتمّته منذ الحداثة، أو تحفظ معه بعض المتون الفقهيّة إن كانت قد فرغت من حفظه وتتدارسه مع بعض لداتها، أو شيخاتها حتى لا تنساه، لأنّ نسيان القرآن الكريم في رأيهنّ بعد حفظه جريمة يعاقب لها يوم القيامة[1]، وقد تنصرف عن النّسيج أو تنزع منه وقتا لتعلّم إحدى هذه الصّناعات المنزليّة التي جاءت بها الحضارة العصريّة كالخياطة بالماكينات وخاصّة التي تتحرّك بالكهرباء وكالتفصيل [illegible] التي تقبل عليه بصفة خاصّة لتقنع زوجها بأنّها في منآها ذاك ليست بأقلّ تحضّرًا ممّن يتقاهنّ في مدن الشّمال الجزائري، أو مدن

1 - الآية الكريمة قوله تعالى: "...قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى" سورة طه الآية 125

أوروبا، وقد أخذن يعتين أخيرًا بصناعة الملابس الدّاخليّة والجوارب، كما بدأت
تنتشر فيهنّ نزعة الإقبال على تعلّم القراءة والكتابة بعد أن كان تعلّم القراءة
والكتابة في رأيهنّ مقصورًا على الرّجال، كما أنّ الفتاة الميزابيّة قد بدأت تعرف
طريقها إلى المدارس النّظاميّة أحيانًا إلى جانب الطّفل في قسم واحد، وأحيانًا أخرى
في أقسام خاصّة بها، وفي غرداية والقرارة والعطف وبريّان أقسام خاصّة بالبنات
وفي بعض المدارس الفرنسيّة الحرّة بدأت تظهر بنات ميزابيات، أمّا من ولد منهنّ في
مدن الشّمال الجزائري فقلّ ما تتخلّف واحدة منهنّ عن الدّراسة في صباها، وقد
امتدت نزعة تعميم تعليم البنت تنفذ حتّى إلى أكثر المدن الميزابيّة محافظة وتحرّجًا،
فمنذ أكثر من سنة وطائفة من الشّباب والشّيوخ يحاولون إنشاء مدرسة لتعليم
البنات، وهناك ما يبعث بالأمل الوطيد بأنّ هذه المحاولة قد بدأت تهتدي إلى
الصّراط السّوي للتّنفيذ والإنجاز.

والمرأة الميزابيّة:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

كما يقول سيّدنا حسّان في عائشة أمّ المؤمنين، رضي الله عنهما، وهي تطيع
زوجها وتستلذّ تلك الطّاعة لأنّها لا ترى فيها استجابة لعواطفها كزوجة فحسب
بل طاعة لله أيضًا، وهي من طاعتها هذه لا تكاد تبرح بيتها في غيبة زوجها وإن
لضرورة قاهرة ما لم يأذن لها كتابة بذلك[1] إلاّ أن تكون تقدّمت بها السّن
وأصبحت أمًّا وعرفت طريقها إلى الشّارع بمحضر زوجها وبإذن منه، وهي
كالرّجل طيّعة للهيئات الدّينيّة النّسويّة[2]، لا تكاد تبيح لنفسها أن تقرب ما يرسم
من حدود، فإذا استمالها الهوى للانحراف عن بعض المسائل العرفيّة هرعت إلى
مجلسهنّ تتوب وتثيب.

1 - [illegible]
2 - [illegible]

[illegible]

وهي محتجبة ومسرفة في الاحتجاب، فإذا خرجت من بيتها غرقت في خافيها
حتى لكأنّها في الشّارع شبح أبيض لا تتميّز معالمه، وهي إلى ذلك تمعن أشدّ
إمعان في أن تنأى بنفسها عن بواعث الرّيب وشبهات الفضول، فإذا غاب عنها
زوجها فلا زينة ولا عطر إلاّ أن يضطرّها إلى ذلك عرس أو موسم. وهي من قبل
ذلك وبعده أشدّ على الرّجل حرصًا على الشّعائر الدّينيّة لا تكاد تأخذ بالجانب
الميسور من الدّين إلاّ أن تضطرّ إلى التّرخّص ولهذا كان الرّجل الميزابي دائمًا في
اطمئنان على غيبه عند زوجته، إنّه يعلم أنّ المرأة الميزابيّة فوق الشّبهات وهي غالبًا
مقتصدة خبيرة بطبعها لا بأساليب التّوفير فحسب بل بطرق إعانة زوجها على
الكسب في نطاق محيطها، فإذا وجدت من نفسها جهدًا ومن وقتها فراغًا أنفقته
في إعداد بعض الملابس أو الزّرابي المنسوجة ليستعيد زوجها بثمنها على بعض
شؤون الحياة، وقلّما تستعين المرأة بخادم[1] على تدبير شؤونها المنزليّة فإن اضطرّت
لذلك كان تكون أمًّا لعدّة أطفال احتفظت لنفسها بإعداد جميع حاجات زوجها
بنفسها لأنّها ترى في إيكال تلك الحاجات إلى خادم[2] حرمان نفسها من متاع
عزيز لديها، ووضعًا من مقام زوجها عندها.

والمرأة الميزابيّة لا تزال تحتفظ بالسّذاجة التي تؤذن بتوثّق علاقتها بالبداوة لأنّها
لم تعرف من الحضارة إلا مدينتها وبيتها ولأنّ نوعًا من التّعايش الّذي قد يبلغ
مستوى العلاقات الوديّة لا يزال موجودًا بينها وبين الأعرابيات من بنات ونساء
الأحياء الضّاربة حول مدن ميزاب والمتردّدة على ميزاب حين تسعفه الطّبيعة ببعض
الخصب، وذلك لأنّ نوعًا من المقايضة لا يزال يشكّل علاقة تجاريّة صغيرة بين
الطّرفين، فهؤلاء البدويات يأتين إلى المدن ببعض ما تنتجه الصّحراء من مواد غذائيّة

1 - كان سوق ميزاب [illegible]
2 - [illegible]

حيوانيّة، ومن حشائش يستطبّ بها ومن مصنوعات بدائيّة كالأطباق والقفاف المصنوعة من الحلفاء أو جريد النّخل، وفي بيوت الميزابيين يضعن بضاعتهنّ للنّساء ويشترين بما أصبن من نقود شيئًا من الأقمشة والمواد الغذائيّة الواردة من مدن الشّمال، وقد يختصرون المعاملة فيتبادلن سلعًا بسلع على أساس المقايضة المباشرة، وكثيرًا ما تستشعر المرأة الميزابيّة الألم المضني لما عليه تلك البدويات من خصاصة فتتفضّل عليهن ببعض ما عندها من غذاء وكساء، وبذلك اتّصل نوع بنوع بين المرأتين البدويّة والنّازحة إلى الحضارة.

والمرأة الميزابيّة بفضل إسرافها في التديّن تنفر من النّصارى وأبداعهم فإن أبصرت نصرانيًا من السوّاح في شارع من شوارع البلد دخلت أوّل بيت تلقاه واستدبرته والتصقت بالحائط احتزازًا وكراهة أن تبصر ظلّه، ولم تمر دون أن يتلقى نصيبًا موفورًا من اللّعنات، وقد حاولت الأخوات البيض المبشّرات أن يتّصلن بالمرأة الميزابيّة اتّصال ودّ، واتّخذن سبيلهنّ إلى ذلك بتقديم خدمات طبيّة مجّانيّة، ولكن المرأة الميزابيّة ظلّت نافرة من هؤلاء النّصرانيات مبغضة لكلّ ما يأتي منهنّ، إنّهنّ في رأيها لا يأتين عملاً بريئًا من الكيد للإسلام والمسلمين[1].

التأديب الاجتماعي[2]:

يمكن لنا أن نقول أن الدين، والمذهبية، والعنصر، والموقع، هي الدعائم الأربعة التي تمض عليها المجتمع الميزابي، وقد سبق أن أشرنا إلى أثر المذهبية في تكوين وتكييف الحياة الميزابية بصفة عامة، ومع أن المذهبية عند المسلمين كافة سواء منهم من كانت أصول مذهبيته سياسية، أو جدلية عقائدية، أو فقهية أنما ينبوعها الأول الدين، ومحالها التشريع الإسلامي، فإنها عند الخوارج وخاصة الإباضية، وعند الشيعة أيضا تمثل دعامة مستقلة ذات فعالية مستقلة باعتبار أنها من الحزبية السياسية

1 - [illegible]
2 - [illegible]

بصرف النظر عن مدى صلة هذه السياسة بالتشريع الديني، فيما يتصل بالأفراد أو الجماعة، ولذلك اعتبرنا المذهبية إحدى دعائم المجتمع الميزابي، ولسنا بحاجة إلى بيان أن الدين يمثل عند الميزابيين وكافة الإباضية وعند الشيعة أيضا بصفة خاصة الدستور العام لحياة المسلمين في أشخاصهم ومجتمعهم، وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة تمتازان عن سائر الطوائف الإسلامية في الإصرار على شمول هذا الاعتبار للدين لجميع نواحي الحياة، حتى فيما يتصل منها بعلاقة الفرد مع الآخر، العلاقة العادية التي يتطلبها التعايش والتساكن، وعلّة هذا التمييز، أو هذا الإسراف في استحضار الدين في جميع شؤون الحياة، هي، أن علّة الوجود الطائفي لهاتين الطائفتين، إنّما كانت التفسير الديني لنظام الحكم أو أسلوبه، كما أن مادة التطور والاستمرار لهما إنما هي المحافظة على تطبيق مقتضيات هذا التفسير، تلك المحافظة التي تقتضي أن تكون جميع تصرفاتها قائمة على استلهام الدين وقد ازدادت هذه المحافظة توثقا وشمولا عند كلتيهما حين استحالتها إلى جمعيتين سريتين تعملان لتحقيق أهدافها على أساس التضامن الوثيق القائم بين الأفراد التابعين لكل واحدة منهما وبالنسبة إلى الإباضية فقد تشكلت هذه النزعة في شكل ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص، هذا القانون الذي يحصر العلاقة بين أتباع هذا المذهب في التضامن الديني بينهما لا يمكن لفرد أن يأمن لفرد آخر إلا حين يطمئن، إلى جامعة الدين بينهما فحسب – بل جامعة الوفاء، وأيضا لا الوفاء لتعاليم الدين باعتباره دينا فحسب بل لتعليم المذهب وأهدافه، وتلك هي الطبيعة التي تحاول كل جمعية سرية ذات القانون اعتمد التشريع الميزابي والمدني، والجنحي والإداري – وما لا يمكن التزام الحرفية منه من التشريع الجنائي الإسلامي، فكان سلام هيأة "العزّابة" لضمان استقرار الأوضاع العرفية والآداب الدينية وللمحافظة على الوحدة الإقليمية، والروابط الحزبية:

تأديب المتمردين والمنحرفين بإعلان البراءة منهم وعلى هذه "البراءة" أو بالأحرى هذا العقاب قام المجتمع الميزابي من ناحيته التشريعية والعرفية، أما ناحيته

الخلقية سواء منها الجانب المادي البحت، وجانب التقاليد، فأساسها ما ورثه الميزابيون عن عناصرهم المختلفة: العرب والبربر، والفرس، كما سلفت الإشارة إليه، وما طبعتهم عليه موقعهم القاسي الذي اقتضاهم، ولا يزال مواصلة الجهد الكادح المضني في سبيل إبقاء ميزاب على حضارة متطورة نامية، فالميزابي شجاع، أبي صلب عنيد، حريص على تقاليده أشد الحرص، مقدس لها أشد التقديس، وتلك بعض شيم البربر والعرب وهي إلى ذلك الشيم الغالية على كل ما كانت البداوة أدنى إليه، لأن البداوة تقتضيه أبدا حياة الغلاب، وحياة الاستعداد للغلاب، والميزابي كريم مضياف، رءوف بالمساكين والفقراء، حريص على الكسب وكادح في سبيله، حريص على الادخار، بصير بطرق الكسب وأسباب التوفير، صبور مثابر، مريد لا يلين لقسوة ولا يخضع للعراقيل والعقبات، وتلك آثار مغالبة القسوة والجفوة والجفاف، في أرض ميزاب ملعب العواصف والأعاصير، القائمة كما سلف أن ذكرنا على طبقة مخصصة مسطحة الأفق لا ينبت فيها تلقائيا وبدون عمل إنساني جاهد إلا نبات ضئيل متوحش، ولا يكاد الإنسان يعثر على الماء فيها إلا بعد أن يخترق من أعماقها طبقات قد يجد فيها بعض اللين، وقد تكون كلّها صخور صمّاء، وتلك حالة تبث في النفس الشعور بالعزة حين تغلب، والشعور بالرحمة والرأفة حين يواجهها ضعف الآخرين، والشعور بقيمة الكرم والضيافة لأنهما قد يخففان على الضعف بعض ما واجهته به طبيعة الموقع من عناء، وكذلك اتسم الخلق الميزابي بالعناء مع الطبيعة عناءً يبلغ التحدي، والاستسلام لله استسلاما يرى أقصى حالات العزة في أقصى حالات التذلل والخضوع، ولهذا كان، ولا يزال، الوازع الديني هو الزاجر ذو الأثر العميق للميزابي إن لم يزجره من أعماقه، فهو يزدجر له حين تحاقه به السلطة الدينية، وهنا مكمَن السر فيها لا يزال لعقوبة البراءة من تأثير. و"ولاية الأشخاص" و"براءة الأشخاص" أساس لا يعتمد عليه التشريع الميزابي فحسب ولكن تعتمد عليه وشائج القرابة والمعاصرة، فالميزابي -بعيد عن أقاربه- لا يكاد يصهر إليه أحد ولا يعترف له برحم إذا عرف بفاحشة عرفية أو شرعية حتى وإن لم تتوفر الأدلة عليها مثلا، لدى الهيأة الدينية فتصدر عليه

حكما، ولذلك كان الميزابيون بطيئين جدا حتى في تطورهم الشكلي المتعلق باللباس ومظاهر الوجه، فاللباس الأوربي لم يجرؤ الميزابي على ارتدائه حتى خارج مدن ميزاب إلا منذ سنوات، لأن التقاليد التي اتخذت شيئا فشيئا صبغة الاعتبار الديني تقضي أن يحتفظ الميزابي بما كان يرى من سمت ووقار من الملابس الفضفاضة البعيدة عن التجسيد، لأنباء على أن عناصر ميزاب الأولى لم تكن تتخذ هذا النوع من اللباس فحسب، بل على أن الرسول ﷺ، والصحابة التابعين، لم يعرف عنهم هذا الشكل، على أن موقف الميزابيين من أمر الوجه اشد صلابة وعنفا فقد لبثوا وما يزال حتى المثقفون منهم إلى الآن يرون أن حلق اللحية من كبائر الإثم، وحجتهم في ذلك عن الوجهة الشرعية ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل وقول إن اختلفت معانيه فهو في أغلب معانيه متفق، على النهي عن حلق اللحية، ونعتقد أن للتقاليد الموروثة أيضا أثر في هذا التشدد الصلب العنيف، فلا تزال القبائل المحافظة من البربر العرب، وغيرها من الشعوب الشرقية وخاصة الهند شديدة الاحتفاظ، بل والاعتزاز باللحى لا سيما حين تكون من الكثافة والانتظام بحيث تضفي على الوجه دوما من الجلال والجمال، "الكلاسيكي"، ومن قانون ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص نشأ وتركّز في نفوس الميزابيين خلق الامتثال أو الطّاعة الحزبيّة، حتّى أصبحت فيهم ظاهرة ترقى عن مستوى الظواهر الاجتماعية العامة إلى مستوى الطقوس التعبدية، ذلك أن الميزابي درب على أن يستقبل آليا -وشيئا فشيئا- بشكل لا شعوري أوامر "العزّابة" لا على أنها تشريعات تنظيمية مدنية، بل على أنها استنباطات من التشريع السماوي المقدس وذلك اتخذت تعاليم المذهب حتى فيما يتصل منها بالمحافظة على كيان أو الطابع المذهبي أو الإقليمي، صبغة التعاليم الدينية وهذا الخلق هو الدعامة التي نهض عليها نظام التعايش بين المتساكنين[1] في ميزاب على تفاوت أعمارهم ومراكزهم الاجتماعية، فمهما يبلغ الميزابي من الثروة والجاه أو العلم، فلن يستطيع أن يعامل من يكبره سنا وإن يضعه

1 - [illegible]

أعوام غالبا إلا على أساس التوقير والإجلال، لأن العُرف الميزابي درج على إسناد المسؤوليات المختلفة من مسؤوليات إدارة العشيرة إلى مسؤوليات السلطتين التنفيذيتين الدينية والمدنية إلى من تقدمت به السن شيئا ما اعتمادا على أنّ هؤلاء يكونون غالبا أوفر تجارب وأكثر حنكة ودراية، وأنفذ بصيرة، وأحصف رأيا، وحتى في المجلسين، الديني، والمدني، تنحصر المناقشة غالبا بين الأكبر سنا من الأعضاء إذ يجد الأعضاء الأصغر سنًّا كثيرا من الحرج في مواجهة شيوخهم بالمناقشة، وفي حلقات الدين نفسها يلجأ الطالب حين يشتبه عليه أمر، أو يحتاج فيه إلى مزيد من التوضيح أن يصوغ ما يتراءى له في شكل سؤال التي يتقدم به إلى أستاذه في كثير من الخجل والارتباك وظاهرة أخرى قد تكون هذه القاعدة أجلى فيها وأوضح هي ظاهرة الخضوع الذي ظل اجتماعيا إلى عهد قريب لتشريعات وضعت منذ حوالي ثلاثة قرون استجابة لمقتضيات ظروف ذلك العهد وكان واضحا منها أن ما أريد إضفاؤه عليها من الطابع الديني إنما هو استعانة على تركيزها وإقرارها بالتحرج الديني إذ ذاك كالتشريعات المتعلقة بعدم تبعية المرأة لزوجها في ترحاله فقد خشيت الهيأة الميزابية التشريعية يومئذ على حرم الميزابيين أن تكون عرضة لما يجثم على قوافلهم بين ميزاب ومدن الشمال الجزائري، الصراع من قطاع الطريق المحترفين أحيانا، ومع القبائل البدوية المقيمة على حالة حرب مع الميزابيين حالة أخرى، سواء كان قد ينجرّ عليهن سبيا أو إهانة فما كان الناس يومئذ في الصحراء يلتزمون الحدود الدينية في حرم المسلمين فأصدرت تلك الهيئة قانونا يمنع المتزوجين من السفر بعائلاتهم، ويمنع النسوة من طاعة أزواجهن إلى ذلك إذ أراد وهمّ عليه وتأمر السلطة التنفيذية بإجبار من تطيع زوجها أو برغم زوجها على العودة بها إلى الوطن بكل وسيلة وواضح أن هذا تدخل غير مستساغ في الحالات العادية في العلاقات الزوجية، وما ينبغي أن تقوم عليه من استقلال وحرية في نطاق الحدود الدينية، ولكن الميزابيين مع ذلك خضعوا لهذا التشريع سواء كان ذلك نتيجة منهم لتراثه وأهدافه أم نتيجة توقير للكبار المسؤولين والخضوع التي يفرضها النظام العرفي، وقد يكون للتقاليد الموروثة أيضا أثر غير يسير،

في تركيز هذا التشريع فالملاحظ أن المناطق التي لا تزال محتفظة بتقاليدها من مواطن البربر سواء منهم بربر النجاد العليا، وبربر الشمال، وأن بعض المناطق العربية، أو التي يغلب العنصر العربي على سكانها، والتي تمتاز بنوع من التقاليد الخاصة لا يزال يسودها عرف على قرار هذا التشريع فخروج المرأة منها أمر مستكره أو محظور، على أن هذا التشريع عند الميزابيين لم يكن خاصا بإخراج المرأة من ميزاب إلى خارجه فقط بل شمل أيضا وضع قيود محرجة للخروج بالمرأة من مدينة إلى أخرى من مدن ميزاب وذلك نتيجة لحالات كانت تسود العلاقات بين تلك المدن في الظروف التي وضع فيها هذا التشريع بحيث رسمتها بصمة عدم الانسجام وربما بلغت العلاقة بينهما إلى مستوى الجفاء، وفي هذا تعليل ظاهر للباعث على هذا التشريع بأنه لم يكن إلا سياسيا صرفا، وواضح أنّ الميزابي الذي خضع لأمثال هذه التشريعات لأن الصبغة الدينية أضفت عليها، وطاعة لخلق التوقير والخضوع الحزبي أولى بأن يخضع لما هو من صميم الدين، سواء كان تشريعه بالنص، أو الاستنباط، ولذلك، ظلّ الميزابي إلى عهد قريب من أشد الناس تحرجا من المحرمات حتى ما كان منها من صغائر الإثم أو مما اختلف العلماء فيه كراهة أو تحريما، وظلت مدن ميزاب باستثناء "غرداية" تشبه إلى حد كبير بعض المدن التي يقدمها أتباع الأديان الأخرى، فبيع الخمر فيها محظور حتى للأجانب وكذلك التدخين والتبجح بما لا يتفق والوقار الديني، كألفاظ المجون أو السباب، خاصة منها ما ينال من هيبة الدين وقداسته، وقد احتفظ الميزابي على هذا الطابع حتى خارج ميزاب وإن كانت المخالطة والمعايشة قد دفعت بجانب من التجار خارج ميزاب إلى الجرأة على اقتراف بعض هذه المحظورات، بيد أن هؤلاء لا يزالون يحاولون الاستخفاء حين يقترفون شيئا منها، وقد بلغ التحرج في ميزاب من كل ما يتنافى مع الوقار الديني إلى حد أنهم تحرجوا حتى من الموسيقى على الرغم من أن العلاّمة الخليل ابن أحمد[1] رحمه الله أحد الأدباء المنتسبين إلى الإباضيّة في العصر الأول المحسري كان أول من حاول

1 - واضع أسس العروض، وأصله من سلطنة عمان التي لا تزال محسوبة على الدعوة الإباضية.

ضبط قواعد الموسيقى العربية، وواضح أن هذا التحرّج المسرف كانت له آثار غير مرضية في تكوين الذوق الميزابي بالنسبة إلى بعض النواحي الروحية، لكن مساوئه هذه تتضاءل إذا وزنت بمكاسبهم الخلقية التي حفظت مجتمعهم من مفاسد شتّى تجرها عادة التطوّر الحضاري.

ولقد ظلّت غرداية محتفظة بهذا الطابع كسائر مدن ميزاب حتى اتخذها الفرنسيون عند إعلان احتلال ميزاب مركزا لإدارتهم وابتنوا فيها ثكنة عسكرية[1]، وعندئذ أجبرت على أن تقبل بناء خمّارات خارجها بحجة أن الفرنسيين وجنودهم لا يستطيعون التخلي عن عاداتهم ولا تزال غرداية إلى الآن تحرص كل الحرص على أن تسلم دواخلها من هذه الآفات وإن كان التطور قد وصلها بالبور الفرنسية، على أن التشريع قد عاد رغم قسوته بتلك القسوة نفسها بفوائد اقتصادية على الميزابيين، ذلك بأنه عنى بالحد من بعض تصرفاتهم العامة والخاصة حتى لا تكون فريسة لسباق المترفين، ومظهرا للتباين الطبقي بين السكان ومن ذلك تحديد المهور، ونفقات حفلات الزواج والمآتم وبعض الحفلات الاجتماعية في المواسم والأعياد الإسلامية، وبفضل هذا التحديد ظل الزواج ميسورا نسبيا إذا قورن ببعض المناطق التي ترك فيها مجالا للتظاهر بالثراء والمفاخر بين الأسر والتزايد بين الخطّاب[2].

نظام الأسرة الميزابيّة[3]:

الأسرة الميزابيّة وحدها قائمة بذاتها، تتمتّع بمطلق السّيطرة والسّلطان في حدود نظم المدينة وتشريعاتها، فهي تبتدئ من العائلة حيث يبسط الكبير في السّن جلاله ووقاره ونفوذه عليها، ثمّ تأتي العشيرة التي تشبه الخليّة في الأحزاب حيث يجتمع عدد من أفراد الحي لهم سلطة ومسؤوليّة في كامل الحي[4]، وبعد ذلك تأتي الجماعة

1 - [illegible]
2 - [illegible]
3 - [illegible]
4 - [illegible]

وهي مجموع العشائر ومجلس يشبه المجلس البلدي في كثير من الاختصاصات، غير أنّ هذه النظم والتشكيلات في ميزاب تمتاز بطابع التعاون والألفة العائليّة سواء فيما بين الأسرة والعشيرة أو الجماعة في المدينة الواحدة أو فيما بينها في مدن ميزاب بأجمعها، هذه مقدّمة للحديث عن الأسرة الميزابيّة والآن نبحث عن نظمها بالتفصيل:

كبير الأسرة موقّر أثير في أسرته، فإذا دخل المنزل انسدل معه على ذلك المنزل وقارًا وجلالاً، وهو ليس بفظّ غليظ، بل يحاول أبدًا أن يضفي ظلال المرح والسرور على محضره ولكنّه مع ذلك لا يسرف في المباسطة والمداعبة إبقاءً على ما ينبغي أن يكون بين الكبار والصّغار من سياج الوقار. وقد كانت الإذاعة[1] ممنوعة في المنازل الميزابيّة إلى عهد قريب، وكانت الهيأة الدّينيّة تعلن البراءة ممّن يدخل جهازًا إذاعيًا أو حاكيًا لأنّ هذه الأجهزة تنقل فيما تنقل الموسيقى والأغاني، وتلك خليقة بأن ترفع سياج الوقار بين الأسرة وصغارها، بيد أنّ هذا الحظر قد قضى عليه تيّار الحضارة فغمرت الأجهزة البيوت ولم يعد كبير العزّابة يتحرّج من مسامرة ذويه كبارًا وصغارًا على أنغام الموسيقى ما لم تنزل إلى الإسفاف، وبقدر ما يستشعر عميد الأسرة من سلطان في منزله، يستشعر الطّاعة والخضوع أمام رؤساء عشيرته حتّى وإن لم يكن منهم، فمجلس العشيرة له في نفوس الجميع إلى عهد قريب، قداسة وجلال.

وفي هذا المجلس تتمثّل جامعة الأسر التي تتألّف منها العشيرة وتتشخّص السّلطة التنفيذيّة لكلّ وحدة من وحدات المدينة التي تسمّى "العشائر" وتكاد العشيرة عند الميزابيين تمثّل جامعة الخلايا التي تشبه من عدّة نواحي الخليّة في النظم الحزبيّة، وعلى الرّغم من أنّ كثيرًا من الأوضاع العرفيّة في ميزاب قد اضمحلّ أمام

1 - [illegible]

على هذا المجلس بل حقًّا من حقوق العشيرة كلّها حين تمّ اللّجوء للطّريقة الانتخابيّة، فكلّ من يملك حقّ الانتخاب من أفراد العشيرة يدلي بصوته إذا كان حاضرًا في المدينة عند إجراء الانتخابات، ولم يعد هناك مرشّح واحد إذ لم يعد كبار مجلس العشيرة يتمتّعون بذلك التّفويض الذي كان لهم سابقًا ، فقد يترشّح أكثر من واحد تبعًا للمبادئ والنّزعات التي أخذت تتسرّب إلى ميزاب شيئًا فشيئًا لتزاحم وربّما لتزحزح الاعتبار المذهبي المجرّد للسّياسة، وعلى الأساس أمكن التّقرير الواقعي لحقّ المواطنة[1] للقبائل غير الإباضيّة[2] السّاكنة في بعض قرى ميزاب، فأصبح نائبها يملك نفس الحقوق والواجبات التي كانت إلى عهد قريب من اختصاص النّوّاب الميزابيين الإباضيين ونتيجة لذلك أصبح أفراد هذه القبائل أنفسهم لا يختلفون في اعتبارات المسؤوليات والحقوق عن مُساكنيهم[3] الإباضيّة، وكذلك تقدّمت العلاقات بين الطّرفين، فأصبحت تقوم على نوع من الاندماج السّياسي التّدريجي دون أن تمسّ بالعقائد الدّينيّة الخالصة، أو بما قد يكون بينها من التّمايز في بعض العقائد والتّقاليد.

والجماعات البلديّة في ميزاب أو جماعة "الضّمّان"[4] كما لا تزال تسمّى، في وصفها الحالي تنتخب كلّ ثلاث سنوات، وكانت تملك حقّ التّصرّف المطلق في كلّ مدينتها وجميعا فيما يتّصل بالمصالح المشتركة لمدن ميزاب، في إدارة وتشريع ما يمكن أن نسمّيه بـ "الشّؤون المدنيّة" الصّرفة بما في ذلك ما يعرف بخصائص المجلس البلدي، وخصائص المجلس المالي وبعض خصائص المجلس العمّالي، وبعض ما تقوم به الإدارات أو الوزارات، المختصّة بشؤون الصحّة والأشغال العامّة، والرّي، وشؤون الأمن أو الدّاخليّة، وشؤون الإنشاء والتّعمير؛ على أنها حتّى في هذه

1 - المواطنة في ميزاب، أي حقّ الانتساب إلى تلك الرّقعة من الوطن الجزائري.
2 - القبائل الأخرى التي كانت تسكن بجوار الميزابيين، [illegible] حدث ذلك على الأقل في قصر مليكة.
3 - الذين يسكنون في جوارهم.
4 - أو الأمناء، وعددهم عادة أربعة في كلّ قصر، [illegible] ويتولّى مجلس العزّابة تعيين هؤلاء في مناصبهم.

المقتضيات العقليّة الحضاريّة، فإنّ نظام العشائر لا يزال يحتفظ ببقيّة من هيبته، وإن تكن هذه الهيبة تضاءلت كثيرًا.

والعشيرة تمثّل في المجتمع الميزابي وحدة اجتماعيّة مهمّتها إقرار التّكافل الاجتماعي بين أفرادها، فعليها لأن تأخذ بيد الضّال وتكبح جماح المنحرف، وتنهى من شذّة المتمرّد بكافّة الوسائل بما في ذلك الجلد والنّفي، وعليها أيضًا أن تقوم بتدبير العمل للعاطلين والمعاش للعجائز وبحماية من يعتدى عليه من أبنائها، وفوق ذلك كلّه تمثّل وحدة انتخابيّة تقوم مقام الدّائرة البلديّة فهي التي تنتخب من بين أفرادها نائبًا عنها في مجلس الجماعة القائم بأعمال المجلس البلدي إلى الآن، ثمّ هي تضطلع بمسؤوليات تتّصل بشؤون القضاء، فهي التي تكفل اليتيم، وتعلن الحجر على السّفيه والمجنون، وتعيّن لليتامى الّذين لوصي بهم آباؤهم وكيلاً يقوم بحفظ أموالهم تحت رقابتها، وهي بذلك تتحمّل معه المسؤوليّة بطريق التّضامن؛ وكان للعشيرة مجلس يجتمع كلّما دعت الضّرورة إلى ذلك يشبه في معظم نواحيه مجالس القبائل البدويّة، ولكن هذا المجلس قد بدأ يتضاءل كيانه ويضطرب، فلم يعد هنالك أفراد معيّنون يتألّف منهم بل أصبح في بعض الأحيان يجتمع كلّ من يتّفق أن يكون في المدينة عند الحاجة إلى عقده من كهول وشيوخ وربّما الشّباب ذوي الشّخصيات أيضًا والقاعدة الوحيدة التي لا يزال يحتفظ بها هي القاعدة العدديّة فلا يعتبر مجلس العشيرة منعقدًا إذا نقص المجتمعون عن السّتّة، وفي الغالب تتّخذ العشيرة ناديًا لها تجتمع فيه وتستضيف فيه من ينزل عليها من ذوي المقامات ويسمّى "دار العشيرة".

وكان مجلس العشيرة هو الّذي يتولّى اختيار من يمثّل عشيرته في الجماعة البلديّة، وهذا الاختيار لم يخلص إلى التّعيين ولا إلى الانتخاب، فهو وسط بين هذا وذاك، إذا كان الكبار الموقّرون في المجلس يتّفقون فيما بينهم على الشّخص المراد اختياره، وعلى الصّغار أن يعلنوا موافقتهم، وهذا الاختيار أصبح أخيرًا غير مقصور

الاختصاصات كانت تخضع للهيأة الدّينيّة وتعاليمها إذا رأت هذه الهيأة أنّ من المصلحة أن تتدخّل في شيء من تلك الاختصاصات، ولذلك كان من المتواضع عليه عرفًا بشكل يشبه العرف "البريطاني" القائم مقام الدّستور أن تجتمع الهيئتان في المدينة الواحدة للتّشاور إذا حدث أمر له خطر ممتاز، كأن تهدّد المدينة أو مدن ميزاب بحرب خارجيّة، أو فتنة داخليّة، أو يحدث في مدن الشّمال الجزائري أمر يتّصل من قريب أو بعيد بطبيعة العلاقات بين ميزاب ومراكز الحكم، أو بعض أوضاعه في كافّة القطر.

وخزينة الجماعة المدنيّة، أو ميزانيتها، تتكوّن من ضرائب قارّة لا تختلف في شكلها كثيرًا عن الضّرائب البلديّة الآن، ومن ضرائب استثنائيّة وقتيّة، تقرّرها الجماعة إذا استجدّ في المدينة أمر يستلزم نفقات إضافيّة كأعمال عمرانيّة أو إصلاح شؤون الرّي، أو تشييد سدّ جديد، وما إلى ذلك. وكثيرًا ما تكون الضّريبة بدنيّة[2] كدعوة السّكان مجتمعين أو أفواجًا للقيام بعمل ما، كمقاومة الجراد عند غزوه، أو ترميم أحد السّدود حين يجرف السّيل جانبًا منه، فيهدّد الفيضان المدينة، أو يخشى أن تنقطع الآبار بمياه، يستحيل عندئذٍ تخريبها.

أمّا الآن فقد أخذت الإدارة الفرنسيّة تختصر اختصاصات هذه الجماعة وتضيّق منها بحيث لم يبق لها مثلاً من التصرّف في الشّؤون الصحيّة العامّة سوى الإشراف على تنظيم النّظافة العامّة للمدينة ونواحيها، كتنظيف الطّرقات وتجميل أبواب المساكن ومظاهرها، والسّهر على عدم تجمّع القاذورات في المجازر، وتجميع الضّريبة غير المباشرة، كالسّهر على شؤون الأمن داخل أسوار المدينة، أمّا ما عدا ذلك فقد انتزعته الإدارة الفرنسيّة ووكلّت معظمه لجنة أسّستها من موظّفين فرنسيين وأهالي تسمّى "لجنة البلديّة" وأعمال هذه الجماعة وقرارها يتولّى تنفيذها غالبًا أفراد ما بين ثلاثة وخمسة تختلف ألقابهم باختلاف المدن الميزابيّة، ولكن

1 - [illegible]
2 - [illegible]

وظيفتهم متّفق في أنّها تنفيذ ما ترى الجماعة في اجتماعاتها ضرورة تنفيذه، وليست للجماعة مواعيد معيّنة لاجتماعها فهي تجتمع كلّما دعت الحاجة، وكان رئيسها يلقّب قبل الاحتلال بـ "القائد" ثمّ تدخّل الاحتلال في هذا الأمر إذ أجبر معظم الجماعات الميزابيّة على تغيير رؤسائها "القوّاد" الّذين كانوا قد تولّوا كبر المقاومة العنيفة حينًا، أو القائمة على المراوغة والمناورة حينًا آخر، بآخرين من ذوي الذّمم الخربة الّذين استطاع أن يصطنعهم عندما كان إشرافه على ميزاب من مدينة الأغواط، وكانوا وسائله إلى تنفيذ مؤامراته المشار إليها بشيء من التّفصيل عند الحديث على ميزاب في عهد الاحتلال الفرنسي على أنّ هؤلاء القوّاد ظلّوا يجمعون بين رئاسة الجماعات باعتبارهم أعضاء منها وبين التّعيين الحكومي الّذي كان يتمّ بطريقة إغراء أعضاء الجماعات والضّغط عليهم إلى عهد قريب.. ثمّ أصبحوا أخيرًا موظّفين رسميين يتقاضون مرتّباتهم من الإدارة على حين بقي لهم حقّ رئاسة مجالس الجماعات حين يحضرونها، وذلك بعد أن أفلحت الحكومة في انتزاع أهمّ اختصاصات هذه الجماعات، وفي إعداد ملفّات تستطيع أن تعتمد عليها في اختيار موظّفيها القوّاد. وكذلك أصبح رئيس الجماعة يلقّب بـ "الخليفة" أي الّذي يخلف القائد عند غيبته أو عجزه مؤقّتًا عن القيام بوظيفته، وعند وفاته إلى حين تعيين الإدارة خلفًا له[1].

الاقتصاد الاجتماعي بوادي ميزاب[2]:

أسواق ميزاب:

يكوّن سكّان ميزاب بطرق حياتهم المتباينة، واستعداداتهم المختلفة كتلة اقتصاديّة متكاملة ويتفرّع اقتصاد ميزاب إلى اقتصاد محلّي، واقتصاد خارج ميزاب،

1 - [illegible]
2 - [illegible]

أما الاقتصاد المحلي فيُسْهِمُ في إنعاشه وإنماء سوقه عناصر مختلفة من السكان، فالبدو وأنصاف البدو وفي طليعتهم الشعامبة يُمَوِّنونَ المقيمين بالمدن بما يجلبونه من لحوم وأصواف وحطب وحجارة للبناء وجبس، وأما العرب المقيمون فهم فيصرفون إلى صناعة الجير ويقومون بأعمال البناء ويشتغلون كمعينين في جميع المهن، وفلاحين في الواحات، بينما يشتغل الميزابيون بأنواع التجارة ويزودون البدو بجميع ما يحتاجونه من سلع بطريق التبادل، ويتفننون في ترويج المصنوعات المحلية كالزّرابي والمنسوجات على الإطلاق، وهم إلى جانب ذلك فلاحون مقتدرون، ومقاولون ماهرون في أعمال البناء، ويحذقون جيداً فنّ التجارة والدهن، والسكافة، والحدادة، ومنهم الخبّازون والقصّابون، وينفرد اليهود بصناعة الحليّ، من ذهب وفضّة، والنقش على الصّواني النحاسية، وترويج المشروب المخدرة، وأعمال السحر.

أما القبائل المجاورة لميزاب كالأرباع بالأغواط وأولاد نايل بالجلفة وأولاد يعقوب بأفلو فتساهم في الحركة الاقتصادية المحلية وخاصة أثناء فصل الشتاء بما تستورده لميزاب من لحوم وأصواف وأوبار، وسمن، وبما تستجلبه من الأوساط الحضرية، فأنت ترى أن ميزاب كبقية نقط الجنوب تقريباً يُركّز اقتصاده على نظام المبادلة بين البدو والحضر.

لقد كان البدو قبل أن تعود المواصلات تسير في طرق آمنة يفرضون شروطًا خاصة في مبادلاتهم على المقيمين، وقد تغير هذا النوع من الاختصاص بصفة محسوسة بعد أن صار المقيمون بفضل نشاطهم وذكائهم وبما يتمتعون به من أمن يتصرفون في قسم عظيم من اقتصاد البدو ويتسلطون على جلّ مناطق نشاطهم وهكذا أصبح المقيمون يزعجون البدو شيئًا فشيئًا، إلى أن جاءت السيارة فأتت على آخر طاقة للبدو الذي عاد يعيش بائسًا ويظهر بمظهر الزبون لا بمظهر المغامر التجاري وهذه المصارفات التجارية تقع في أسواق بلدان ميزاب وقد كانت تلك المدن تتزاحم وتتخاصم وتحاول كل منها أن تجلب إليها أكبر عدد ممكن من التجار،

ولقد تغيرت هذه الحال في الأيام الأخيرة[1] ولئن كانت الأسواق كلها تعقد يوميًا فقد عاد البعض منها لا يصلح لغير تموين المدينة بالحطب والقطعان، وانحصرت الحركة الاقتصادية في غرداية وفيها أعظم الأسواق الأسبوعية إذ يجلب إليها أكبر قسم من المبادلات، واختص سوق بني يزقن بترويج الصناعة المحلية ذات الطابع الخاص.

وفي محيط دائرة ميزاب، توجد بلدة بريان وبلدة القرارة وهما تملكان سوقين قانونين تسير نحو النمو، وذلك بفضل موقعها المنزوي.

الفلاحة بميزاب:

ما كان للباحث الحريص على استيفاء المعلومات الدّقيقة أن يتكلم عن الفلاحة بوادي ميزاب قبل أن يقف وقفةً فاحصة عن مركبات الأرض وصحف الجبال وحالة الطقس والأمطار فالأراضي المخصّصة لها أهمية أفقية بحيث أنها مكتب قارة في أماكنها بعيدة عن التحولات الجبلية منذ تكوينها، على خط الطول الأوسط الذي يساوي 500 مترًا (غرداية 526) فهي في الجملة أرض منبسطة إلا أن مفعول مياه الأمطار وتأثيرات الطقس الصحراوي جعل منها جملة من الاصطدامات المصطنعة؛ أصبح سير المواصلات بينها وبين المدن الأخرى عسيرًا جدًا. ويهيمن على ميزاب طقس صحراوي بسبب موقعها، فالسهل[2] ذو صخور قد ترك مفعول المياه عليه نقوشًا وهو خالٍ من الأحواض الطبيعية التي تتجمع فيها المياه فتسرب رواسبها نحو المشرق أو المغرب.

ولا تستطيع أن تقوم بهذه المهمة أوديتها التي هي من النوع الصحراوي المحض كوادي ميزاب وواد متليلي، ووادي سبسب، ووادي النساء ويشذّ عن هذا الوضع

---

1 - أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين.
2 - سهل وادي ميزاب.

وادي زقرير الذي ينحدر من نواحي الأغواط ويشق طريقه في فيضانات متكاثرة ولذلك فهو يجعل واحة القرارة في بحبوحة ونعيم[1].

والأمطار تنزل من مراسف جويّة علوّها يعادل 67 مترًا، على شاكلة أمطار مرعدة في فصلي الخريف والربيع، وقد تمر على ميزاب سنوات جدب بنسبة 39 مليمترًا (في سنة 1944 مثلا) وأخرى ممطرة تصل إلى مقياس 159 مليمترًا (كسنة 1951) وبما أن العرض الاستوائي ضئيل وارتفاع ميزاب عن مستوى البحر متوسط[2] فدرجة الحرارة ترتفع في الصّيف أحيانا إلى حدها الأقصى وهو 50 درجة. وتنخفض درجة البرد بنسبة قليلة في الشتاء فتكون حدها الأدنى (-1) درجة، ولا يزول الجليد إلا نادرًا ولا أهمّيّة له، ولتغيّرات الطّقس النهارية أهمية سواء كانت في الشتاء أو الصيف نظرًا للجفاف التام الذي يعمّ الجو، ولنفس السبب كان بريق الشمس قويًا، وممّا يزيد الطقس جفافًا بصفة دورية ريح السّموم[3] الآتية من الجنوب الغربي، وتتكاثر هذه الرياح بصفة خاصة وتشتدّ في أواخر الشتاء وفواتح الربيع، ولقد عرف ميزاب من سنة 1934 إلى سنة 1939 سنوات قاحلة مجيفة قضت على عشرات الآلاف من النّخيل ووقفت سير متوجات الزراعات الأخرى، واجتثت كل الزّراعات التي تألف الجدب كذلك فانحصرت المياه في بعض الآبار القليلة، فوادي ميزاب وهو وادي صحراوي كما أسلفنا من شأنه أن يغذي سطوح السّواقي التي مكثت بعدما جفت مياه النهر، ولا يوجد في مقياس العرض بغرداية مقدارًا معيّنا لنزول الأمطار إنما هنالك رعود ليس إلا، وأما واحات بريّان والقرارة فهي أكثر غزارة من واحات الشّبكة[4] عامة فهي تقوم على أسس حديثة نصبت على الأودية الشمالية، ولا يوجد منبع للماء بميزاب لذلك وجب

1 - [illegible]
2 - حوالي 600 متر
3 - [illegible]
4 - [illegible]

على السكّان أن يردوا الماء من السطوح[1] الآنفة الذّكر المتراوح عمقها بين 40 و50 مترًا أثناء الجفاف للملك لا نرى من الغريب أن تأتي فصول من الجفاف لا مثيل لها في طالها وطولها وأن ينجرّ عنها اضمحلال الغلاف السّطحي النباتي للأرض ذلك الغلاف الذي وفّق إلى تكوينه ثم إلى نصبه بنشاط وبراعة خارجان عن الطاقة العادية.

ويظهر هذا النظام وتلك البراعة من خلال نظام يلفت الأنظار وهو نظام حصر مياه الواحات بميزاب، فالسطح الذي كان إلى زمن غير بعيد -المورد الوحيد- أصبحت تستغلّه اليوم الآلاف من الآبار التي تنخر سطح الأراضي القابلة للفلاحة، فليست خاصيّة البئر في أهميته إنما في طريقة استعماله، فالمياه لا تغرف من الآبار بعمل الإنسان مباشرة بل تغرف بمساهمة كبيرة بواسطة الحيوانات مثل الأحمرة والبغال والجمال[2] التي تنقل حسب حركة آلية معينة ذهابًا وإيابًا عرض مساحة متحدرة تحت قيادة حارس ما. وأمّا أدوات الغرف فهي تتركب من "دلو" صنع من جلد المعز على شاكلة القمع وطرفه الأسفل -أي ذراعه- ليست يابسة وهناك حبل يجري على عجلة "جرارة" معلّقة بعمود البئر الذي يعلو الأرض بمتر ونصف تقريبًا، وهذا الحبل مشدود إلى الحافة العليا من هذا القمع، ثم هناك حبل آخر مشدود إلى الحافة السّفلى من القمع وهو الذي يحافظ على مسك الذراع أثناء عملية الصعود والنزول، ولقد صنع هذا المجموع بصفة هندسية خاصة دقيقة حتى يسمح للدلو أن يجذب الذّراع بفضل الحبل عند ابتعاد الدلو عن البئر فيقع على الحوض وهناك يمكن للماء أن ينفلت، ولقد كان هذا الأسلوب مستعملاً منذ 1000 سنة ومازال مستعملاً إلى الآن[3] فالحركة الأوتوماتيكية الرّتيبة تجر اقتصادًا في الجهد الآدمي الذي من دونه لما خلقت ولا ازدهرت هذه الواحات، غير أن علم

1 - سطوح المياه [illegible]
2 - [illegible]
3 - انظر الصورة في الصفحة المرافقة.

لماز ارتفاعاً بفضله عادت المياه تجري نحو البساتين حتماً وذلك ابتداءً من الناحية العليا للواحات بواسطة ميازيب[1] تنقسم فيما بعد إلى تقسيمات ثانوية، فكل بستان يصل بماء الفيضان وبالرواسب التي تأتي بها المياه وذلك بفضل ثقب[2] معينة لا تتجاوز مقياسًا معينًا.

وبهذه الصفة تضاعفت مساحة رشح المياه مئاتٍ وآلافًا، وإن كانت هذه المساحات غير هامة. وذلك ما نصادفه غالبًا في ضياع كميات المياه خلال الواحات أو وراء السدود لأن السد الأول الرّئيسي متى ضاق عن احتواء كل المياه تسربت إلى الثاني ثم إلى الثالث ثم إلى الرابع وهذا الأخير هو الذي يوقفها ويحوي ما ترك السابق، وتستلزم هذه السدود وهذه السواقي عناية خاصة وخدمات متواصلة يشارك في تأديتها سكان قبائل ميزاب بأجمعها، فلو انعدمت هذه السدود من ميزاب وخاصة في المساحة التي يحتلّها سكان القرى الخمس لكان ميزاب مرفقاً واحداً جافاً.

وإذا التفتنا الآن إلى الحركة الزّراعية لوجدنا فيها رغم صعوبة استهلاك المياه نفس النّشاط، فمثلما كان سكان ميزاب الأوائل يحبون العيش في الأجنة والحدائق فالميزابيون قد ورثوا هذا الميل واحتفظوا به في قرارة أنفسهم فالكثير منهم يفضّل قضاء فصل الصّيف في الغابة[3] والاعتناء في شغف بالأشجار القليلة التي تركها لهم أجدادهم، وكثيرا أولئك الذين يمضون أيام شيخوختهم[4] بالغابة حين يتعاطوا أعمالاً خفيفة، وذلك مهما كانت ثروتهم ومهما كان مركزهم الاقتصادي والاجتماعي، فالغابة تقوم بقسطها في تغذية سكان المدينة بالخضر والثمار.

1 - جمع ميزاب، وهو الساقية، أو مجرى الماء.
2 - فتحات بباب كل بستان تدخل منها المياه الساقطة في [illegible]
3 - الغابة مصطلح [illegible]
4 - [illegible]

حصر المياه عند الميزابيين يمكن إدراكه من خلال الأسلوب المستعمل عند تقسيم مياه الفيضانات، ويجبر الوادي على النفوذ إلى الأرض لتموين الطبقة السفلى منها بالماء وللوصول إلى هذه الغاية فهم يسدّون ساقية الوادي متى وجب ذلك بحجارة عظيمة وفي أكثر الأحيان بحجارة مبنية تكوّن منها سدودًا، ومن بين هذه السدود تلك التي بذلت فيها أعمال جبارة[1]، ففي القرارة مثلا نجد وادي "زقرير" يتجه نحو الواحة بفضل ارتفاع في الأرض يمتد إلى 2 كلم طولاً و 3 أمتار عرضًا.



صورة بئر تقليدي[2]

المجهود الميزابي في أحياء الأرض:

في هذه الرّقعة القاحلة من الأرض قام الميزابيون بخدمات ذات فنّ بسيط في ذاته إلا أنه يدل على عبقرية جبارة.. وتسمح هذه الخدمات للمياه إذا تراكمت وتحصلت الأرض على كمية منها كافية، بالانقلاب نحو واحة "العطف" التي يقوم لها سد يحصر المياه ويجبرها على الدخول في الأرض طوله 500 مترًا محكم البناء، وفي بني يزقن ذات الأرض الواسعة القابلة للفلاحة سدّ[3] يمتد إلى 200 مترًا طولاً و4

1 - وأشهر هذه السدود [illegible]
2 - [illegible]
3 - [illegible]

ويجب علينا أن لا نخفي عن القارئ أن طرق استغلال الأرض باهظة جدًا،
فإن كانت اليد العاملة موجودة بكثرة فإن الأرض الخصبة نادرة جدًا، وأندر منها
وجود الماء، وأنّ مصاريف نقله وجعله في متناول المزروعات لمرتفعة بدرجة فاحشة
سواءً كانت طريقة غرف المياه من الآبار على النّمط العتيق الّذي ذكرناه آنفًا أو
عن طريقة محطّات "المضخّات"، "ترومبات" وهي محطّات تتحرّك بالكهرباء أو
المازوت ولا يقدر عليها سوى ذوي اليسر من الميزابيين، وعلى هذه الصّفة تمنوا
الآلية في الفلاحة فضلاً عن الأسعار المرتفعة التي يتطلّبها استهلاك الكهرباء
والحركات اللّازمة للمضخّات، وفضلاً كذلك عن عمق الآبار؛ ومهما تضافرت
الجهود اليدويّة أو الآليّة فليست تفيد كثيرًا في حالة الجفاف التي نشاهد فيها الكثير
من الآبار جافّة أو هي تعطي كمّيّة من الماء لا أهمّيّة لها وعند ذلك تقلّ الزّراعة،
وأحيانًا تنعدم وتضمحلّ ولا تمكث إلاّ الأشجار التي تبذل أحيانًا عندما تكون
الحال صعبةً مضنية. ولذلك فإنّ مشكلة الماء هي المشكلة العويصة لميزاب،
فالميزابيون أخذوا في البحث عن الماء منذ أواخر القرن التّاسع عشر، علّهم يتّصلون
إلى إنقاذ أشجارهم ومحصولاتهم الزّراعيّة في فصل الجفاف، لكن البحوث إذّاك لم
تأت بنتيجة، إذ أنّهم لا يملكون الأدوات الحديثة الكافية ولم يظفر الميزابيون
بضالّتهم المنشودة إلاّ سنة 1938 عندما حفر أوّل بئر ارتوازي فكان عمقه 500
مترًا، غير أنّ هذا لم تتأكّد بعد نتائجه لأنّه باهظ جدًّا رغم ما حفر للتّجربة بمليكة
وبني يزقن، والعطف ومتليلي والقرارة وبريان، واليوم لا يستعمل الميزابيون ماء هذه
الآبار لزراعتهم إذ يكلّفهم مصاريف حدّ باهظة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى
فالبئر إنّما تجري ماؤها تبعًا انحدار الأرض فلا يتدفّق بارزًا من الأرض ذلك تبعًا
لتشكل الأرض، ولهذا يجب أن يضخّ الماء على عمق 50 و60 و80 متر أحيانًا، الآن
بلدة القرارة هي الوحيدة التي يتفجّر فيها الماء لذلك نشاهد آفاق النّمو والازدهار
تفتح أمام هذه المدينة وخاصّة أمام واحاتها الشّاسعة المترامية الأطراف، وقد
تأسّست بميزاب شركة استغلال المياه المختفية تحت الأرض بالجنوب

بالقرارة (REESA) وهي شركة اقتصاديّة متكوّنة من رؤوس أموال أجنبيّة
فقط، وهي تقوم بتوطيد وري ثلثي واحات ميزاب، وترضي على حدّ سواء
حاجيات واحة القرارة بأكملها و30% من حاجيات الواحات الأخرى التي لا
تنفعها مياه الرّي إلاّ بواسطة المضخّات، ومن هذه المساعي النّاجحة في أعمال الرّي
يتحقّق سكّان ميزاب من امتداد إنتاجهم حتّى في فصول الجفاف، وبالرّغم من كلّ
ما تقدّم فإنّ مناظر الطّبيعة بالشّبكة محزنة، ونباتاتها وحشيّة، فلا تعترضك المناظر
الزّاهية، والنّباتات المهذّبة إلاّ على ضفاف الوديان وأنواع النّباتات التي تخضرّ عقب
كلّ نزول مطر قليلة أحيانًا، وبقيت النّباتات الضّعيفة لا تصلح إلاّ لمرعى الأغنام
القليلة، وتغزر النّباتات خارج الشّبكة وتسمح لأغنام الجهات الواقعة قرب
الصّحراء أن تقيم فيها لكثرة أعشابها طيلة أيّام فصلي الشّتاء والرّبيع لكن حتّى في
هذه الأماكن القليلة الفساد تحافظ الشّجرة على انفرادها الملحوظ ولا تحمل مجموع
النّباتات أشجارًا أكثر دقّة من شجرة العنّاب، وتعترضك بعض "البتوم"[1] عند مرقد
الوديان الكثيرة الرّطوبة كوادي "النّساء"[2] مثلاً ولا نستطيع أن نبدي في فلاحة
ميزاب حكمًا متفائلاً أو متشائمًا فنفسيات السكّان الخاصّة تعاكس تطبيق
قوانين الاقتصاد السّياسي، فالواحات قليلة حقًّا إذا قارنّاها بعدد سكّان ميزاب،
والبساتين مرتفعة الأسعار لمن يريد أن يتّخذ منها مستغلاّت مركّزة، ولكن يتغلّب
الميزابيون على كلّ هذه المصاعب بالميل الشّديد الّذي يحتفظون به نحو أرض
ميزاب، فهو بمثابة عاطفة تدفعهم إلى إنفاق أرباح تجارتهم على الفلاحة بما فيها من
يد عاملة، ومصاريف لاستعمال "المضخّات الكهربائيّة" زد على ذلك المصاريف
التي تكلّفهم استيراد السّلع التي لا يملكونها من الخارج[3] فكلّ ذلك ينتج عنه تعثّر
الإنتاج المحلّي، لذلك فإنّ الفلاحة التي تحقّق للإنسان القسم الأكبر من قوته، وتقدّم

1 - البتوم: نوع من الشجر [illegible]
2 - بين بريان والقرارة.
3 - أي من خارج منطقة ميزاب.

له حاجياته المختلفة غير قارّة بل هي شبه قياس اجتماعي لا سلطان الاقتصاد الوضعي عليها[1].

تربية الحيوانات:

إن كانت الفلاحة، رغم الصّعوبات منهلاً هامًّا للاقتصاد المحلّي، فتربية الحيوانات لا تأتي إلاّ في الصّف الأخير من أشغال المقيمين في المدن، فإنّ كلّ قصر يعطي قطيعًا من الماعز إلى عدد من الرّعاة وهذا القطيع يتراوح بين المائة والمائتين رأس، لأنّ سكّان لا غنى لهم عن اللّبن، يروح القطيع في الصّباح إلى الغابات على بعد 15 كلم ولا يرجع منها إلاّ في المساء حتّى تأوي كلّ عنزة إلى منزل سيّدها فتقدّم لها وجبة أخرى إذ لا تكفي الحشائش الموجودة بهذه الأرض القاحلة لإطعام القطيع وتغذيته، وهناك إلى جانب القطيع بعض الأحمرة والبغال والجمال، وهي العامل الأوّل البسيط الوفي المشجّع للفلاحة والصّالح للحمولات، إذ أنّ ضيق أنهج المدينة لا يسمح لأي تغيير حديث أن يتم، وتستعمل الحمير والبغال للامتطاء حيث يركبها السكّان ليقصدوا هذه المدينة أو تلك، أو ليذهبوا إلى الحدائق والغابات، وتحتوي تربية الحيوانات لميزاب على عدد أوفر من الدّجاج، ولا تحتوي قطّ على الأرانب مثلاً إذ أنّها لا تتحمّل حرارة الصّيف، أمّا تربية الغنم فلا وجود لها في الاقتصاد الحضري، فالبدو و"الشّعانبة" و"المذابيح" هم الوحيدون للغنم في ميزاب، لكنّ قطعانهم قليلة جدًّا ولا تعدّ كثيرًا[2]. فهذه القطعان القليلة لا تسمح للشّعانبة أن يعيشوا حياة البدو الحقيقيّة، ومن حاول أن يعيش منهم هذه الحياة أكله الفقر والبؤس، وأمّا حياة الغابة ذات الصّبغة التّقليديّة فقد أخذت تنعدم شيئًا فشيئًا، فإنّ التربية المفيدة للحيوانات لا تتأتّى إلاّ بمنظّمة عصريّة[3] يتركّز نشاطها على نقل

1 - [illegible]

2 - [illegible]

3 - [illegible]

السيّارات، وعلى نقط الماء، وقد أخذ البدو يهجرون بواديهم وينتصبون بواحات نخيلي التي يملكونها، أو بواحات القصور الميزابيّة أو بالمدن حيث تناديهم اليد العاملة إمّا في مصالح البناء، وإمّا في أعمال النّقل وإمّا في الأشغال العامّة، ويرجع أصل هذه الحركة الجارفة إلى اضمحلال الأشغال الهامّة بالبادية وإلى انعدام حمولات الجمال من واحة إلى أخرى، وقد عوّضا نقل السيّارات، وربّما تحقّقت أهداف البدو الّذين يريدون أن يأخذوا قسطهم من الفلاحة بانفجار بئر "زلفانة"[1] الجديد الذي بفضله سيصير من السّهل امتداد الزّراعة والتّشجير على آلاف الهكتارات من الأرض التّربيّة البكر، إن لم تعمد يد الاستعمار لاحتكار استغلالها وجعلها من نصيب المعمّرين والمبشّرين، وقد ابتدأت محاولات من هذا القبيل.

1 - زلفانة: 70 [illegible]

المناجم والحرف

حرف الاستخراج:

لا تعدو هذه الحرف أن تكون مستعملة لاستخراج الحجارة الصّالحة للبناء ولصنع الجصّ والجبس وأنواع أخرى. وبما أنّ عموم البلاد أرضها جبسيّة، فلا صعوبة لاستخراج حجارة الجصّ التي توجد بمحاذات التجمّعات الآدميّة.

أمّا النبع الجبسي الهام فيوجد بين غرداية ومتليلي[1] يمتدّ طول الطّريق الواصلة بين المدينتين وهناك أماكن عديدة مستغلّة للاستخراج بأساليب خشنة، الشّيء الذي لا يمنعنا أن نعدّ هذه الحرفة من بين الحرف الهامّة، فهناك ما يقرب من مائة شخص يشتغلون بها باستمرار، و"التّمْشَمْتْ" وهو الإسم الذي يطلقه الميزابي على الجبس الخشن الشّديد، وهو مستعمل بكثرة في البناء الميزابي.

وهنالك حجارة الجبس التي يحرقها البدويون في طاحونات صغيرة مستعملة هي أيضًا في البناء المحلّي وفي الخدمات التي تصلح لحصر المياه.

الصّناعة وحرفة البناء:

تجد الحرف الاستخراجيّة نشاطها في الاشتغال بالبناء بميزاب الذي مجموع مدنه ذات حضارة عظيمة نسبيًا، نستطيع أن نعدّ ألف شخص على الأقلّ من بين مجموع السكّان يحترفون البناء والأشغال العامّة، وقد أصبح في غرداية مصنع الزّليج من البلاط الملوّن إلى ما تمّ من نشاط في الحدادة والمناشير، ودور النجارة والدّهن، ولهذه الحركة نشاط باهر إذ يغذّيها المال الآتي من الشّمال، ويتعاون سكّان ميزاب

1 - في منطقة تسمّى "[illegible]"، [illegible] الطريق الموصلة إلى متليلي.
[illegible] الطريق الوطني (رقم 1) إلى جانب مناجم الحرف في

كلّهم عربًا وإباضيّة على هذه الأشغال، وقد أنشأ بعض الحريين في بلدة بني يزقن معملاً عصريًا لنسج المناديل الحريريّة المطرزة بالأسلاك الفضّيّة، والحياكة الحريريّة المستعملة للالتحاف، ومعملاً عصريًا للنّجارة وصنع "الموبيليا" على النّمط الحديث.

وأهم صناعة من بين هذه الصّنائع كلّها صناعة النّسيج من الزّرابي وثياب الصّوف وهي الصّناعة الوطنيّة، ويقوم بها النّساء أثناء أوقات الرّاحة وأنّه لمن العسير أن نتعرّف إلى عدد المشتغلات فلا تكاد تخلو بيت من بيوت ميزاب من منسج ولا تكاد توجد أنثى بميزاب لا تحسن النّسيج، والمصنوعات مختلفة من حيث المستوى تبعًا للجودة والإتقان وهي تشمل "الجلابيب، والحايك[1]، والقشّابيّة[2]، والبرنوس من صوف الغنم أو وبر الجمال، والزّرابي نفسها تتفاوت قيمتها تبعًا لدقّة صنعها ولتبعيتها لبلد دون آخر، وفي طليعتها زربيّة بني يزقن المحملة بالزّخارف الهندسيّة التي أخذت تتركّز في الأسواق الخارجيّة بواسطة السوّاح الأجانب التي خدموا دعايتها.

ويقتني هذه الصّناعات البدو الواردون لأسواق ميزاب ليجهّزوا أنفسهم بما يحتاجون إليه من ثياب الصّوف، ثمّ التجّار الذين يصدّرونها إلى أسواق بلدان التّل ثمّ السّماسرة والسوّاح الّذين يغشون بكثرة مدهشة واحات ميزاب وأسواقها في الرّبيع والخريف والشّتاء، ويستهلك الميزابي غالب منسوجاته وخاصّة الزّرابي حيث أنّ كلّ بنت يشترط في تجهيزها زرابي كثيرة مختلفة الأشكال والمقاييس.

صناعة النّحاس:

يظهر أنّ صناعة النّحاس بميزاب حديثة العهد[3]، ففي مدرسة الذّكور الحكوميّة معلّمون لهذه الصّناعة، وقد نتج عنها من يحسن صناعة الصّحون المزركشة المنمّقة،

1 - وهو قماش صوفي تستعمله المرأة الميزابية في [illegible]
2 - لباس صوفي ترتديه الرّجال في مواسم البرد.
3 - تجدر الإشارة إلى أنّ هناك رواية شفهية تقول بأنّ صناعة النحاس [illegible]

التي تحتل اليوم مركزًا ممتازًا وإن لم توسم بطابع خاص، ولم يختصّ اليهود وحدهم بهذه الصّناعة كما كانوا بادئ الأمر بل قد شاركهم فيها الشبّان الميزابيون وأظهروا براعة ممتازة في نقش الصّواني[1] النحاسيّة والأباريق المفضّضة، وأغلب المقبلين على اقتناء منتوجات النحاس بميزاب، السوّاح الأوروبيون.

صناعة الجلد:

يصنع في ميزاب نوع خاص من الجلد يسمّى "الفيلالي" ومنه تستخرج البلاغي وأحذية النساء، وهذه الصّناعة مزاحمة لمنتوجات جنوب السّودان، ومهدّدة كذلك ما يستورد من الأحذية الأوروبيّة، وإلى جانب الفيلالي توجد صناعة الدّلاء والسقرب التي يستعملها الميزابيون للسّقاية والغرف.

الفخّار:

تصنع منه في مدن ميزاب الجرار[2]، والخوابي[3]، التي تستعمل لادّخار الماء أو التمر، ومنها ما يستعمل لادّخار الشحوم[4]، والزّيوت، والسّمن، وليست لهذه الصّناعة أهمّية تذكر، وإن كان أسلوبها رائعًا جدًّا، ولقد اضمحلّت أو تكاد، فهناك صانع واحد كافٍ لأن يجهّز المسجد كلّه، ويقوم بحاجيات البلاد[5].

1 - جمع صينية.
2 - جمع جرّة.
3 - جمع خابية أو "الخابية" بالمزابية وهي أكبر من الجرّة في الحجم.
4 - الشحوم الحيوانية المذابة التي تستعمل في الطهي.
5 - [illegible]

الحلي:

هذه الصناعة كانت ولا تزال من خاصيات اليهود، وإن بدأ الميزابيون يحتفلون بما فصناع هذه الحرفة يجهزون الوسط الإسلامي بما يحتاجه من مصوغ ذهبًا وفضة.

المواصلات والنقل:

لقد تنبه الميزابيون إلى الوضع الجغرافي لميزاب، الذي يقع في شمالي الصحراء على خط الطول المار بالجزائر العاصمة والذي يقسم الصحراء إلى قسمين متعادلين، لكن كانت تدخلات الإنسان هنا أيضا هي المهيمنة، وذلك لجلب القوافل التي كانت فيما مضى تطوف "الشبكة" ولا تستطيع المرور منها، وحذقت ما يحيط بالشبكة من أوكار، وقفزات وحجارة ناتئة، فالنقل كان يضمن بواسطة الجمال التي تقطع طريقها في معالم خطّتها أرجل الجمال نفسها، أمّا حداة القوافل فكانوا غالبا من بدو "الشعامبة" الذين يتعاملون مع تجّار ميزاب، فكانت حين تأتي من تخوم الصحراء تحط بغرداية حمولاتها من الذهب وعبيد السودان، والتمر، والحنّاء، وريش النعام، ثم هي بعد ذلك تنقل من غرداية حمولات من التمر عرض الشمال، لتعود من هناك مثقلة بالقمح والسكر والشاي، قافلة إلى الواحات القصية في جنوب الصحراء، فكانت غرداية محور هذه الحركة ومركزًا تجاريًا عظيم الأهمية في القرن الخامس.

ولئن كان هذا النوع من التجارة موجودًا إلى الآن فإن وسائل النقل قد تغيرت كثيرًا منذ أن عوّضت السيّارة القوافل عام 1930، وبذلك حلت بأصحاب الجمال الكارثة العظمى إذ أصبح النقل من أعمال المقيمين.

فالطريق الرئيسية هي التي تصل الشمال، وهي أهم طريق[1]، تنتهي إلى "هقار" وهي من الجزائر إلى غرداية صالحة لكل أنواع النقل على السيارة، لكن هذه الطريق تفسد نوعًا ما بين غرداية إلى القولية[2] فعين صالح فتامراست[3].

1 - الطريق الوطني رقم 1.
2 - القولية (El Goléa) وتسمى حاليا "المنيعة".
3 - فرانسستة وهناك من يكتبها [illegible].

وتوجد طريق ثانية على بعد 11 كلم من شمالي غرداية، على طريق الاغواط وهي طريق ورقلة التي تنقسم على بعد 30 كلم إلى قسمين: قسم يؤدي إلى ورقلة والآخر إلى القرارة ولا زالت طريق القرارة إلى أولاد جلال إلى بسكرة إلى مسعد غير صالحة وهي غير مستعملة أما وسائل النقل فهي إما شركات، وإما سيارات مستغلّة يملكها سكان البلاد.

التجارة:

كما أسلفنا في فصل سابق، أن أهم عناصر التجارة بوادي ميزاب هي المبادلة مع البدويين، القاطنين بمحيط ميزاب، أو الراحين الغادين إلى أقصى واحات الجنوب، وتأتي في الدرجة الثانية تجارة تموين المقيمين.

فغرداية، وهي بدون منازع الوسيط التجاري الأكثر أهمية من كل الأوساط الصحراوية الأخرى، إذ هي ملتقى التجار قبل اجتيازهم مغاور الصحراء الكبرى المخيفة. كما أنها محل سكنى البدو المربين للحيوانات، ولئن كانت "بريان" و"القرارة" تقاسمها جزءًا يسيرًا من هذا الخط، ولقد استغل موقع غرداية، السكان الصناعيون الذين يتمتعون بثقافة اقتصادية عريقة ورثوها عن اسلافهم، فقد برهن الميزابي شيئا فشيئًا عن استعداداته الفطرية التي تؤهله لهذه المهمة التجارية، وربما ورث الميزابيون هذا الاستعداد عن البربر وقد يكون أيضا عن الفرس الذين كانوا يتربعون فترة من الزمن على مملكة (تيارت) الرستمية.

إن سعة التجارة (بغرداية) لما يدعو إلى الاهتمام حيث أنها بلدة بدون نتاج لموقعها، إلا أن التاجر الميزابي قد استطاع استجلاب كل شيء من الشمال، ثم هو عدا ذلك ينمّي رؤوس أمواله في التجارة المحلية لميزاب بالتعاون الدائم بين أباضيتها ومالكيتها تعاونًا متينًا متماسكًا متلاحمًا، قاعدته الإخلاص والنزاهة، وإن حلّ رؤوس الأموال التي تغذي مصارفات سوق غرداية هي مساهمة متوازنة متعاقبة بين الطائفتين.

الاقتصاد الميزابي خارج ميزاب:

إنّ المحطّات التجاريّة التي نصبها الميزابيون عرض الصّحراء قد أخذت في النقص والاندثار منذ القرن الرّابع عشر إذ اضطرّ الميزابيون إلى توجيه تجارتهم صوب الشمال تحت ضغط الحوادث الكثيرة الناشئة عن اختلافات سياسيّة نشبت في التعرّض للقوافل الجائلة عرض الصّحراء فقد الميزابيون خطّ العرض حيث اختاروا مكانًا يحقّق علاقاتهم مع الأوساط والمدن الواقعة على الطّريق المؤدّية للنواحي الغنيّة وإلى سواحل البحر، مثل الأغواط والجلفة، والمديّة، والبليدة، والجزائر، ولقد كان حظّهم من الجزائر وافرًا إذ هو الوسط الاقتصادي الأعظم، والعاصمة السّياسيّة، فأقاموا بها وفتحوا محلّات تجاريّة منذ القرن الرّابع عشر المسيحي، ثمّ أخذوا يتسرّبون منها شيئًا فشيئًا إلى بقيّة مدن العمالتين وهران وقسنطينة، وقد مارس الميزابيون عدّة فروع تجاريّة، إلاّ أنّهم تخصّصوا في تجارة الأقمشة، والمواد الغذائيّة، وكان الميزابيون في ذلك العهد يتعاضدون كتلاً في شبه شركات يسمّونها "الرّمادة" ثمّ غدت هذه "الرّمادات" تتفرّع إلى مشاريع مستقلّة تقوم على أساس رأس مال لفرد أو فردين وعلى أكتاف أجراء[1] عديدين، يتخرّجون[2] بعد ذلك إذا حذقوا فنّ التجارة، ويؤسّسون دكاكين مستقلّة وهكذا دواليك، ولمّا تقدّمت أساليب التجارة بعد الحربين العالميتين تبعًا للتطوّر والانقلاب الذين عمّا العالم، وأصبحت مجهودات الفرد لا تكفل النجاح في أيّ عمل، وخصوصًا في الميادين الاقتصاديّة، كان لزامًا على الميزابيين أن يطوّروا في أساليب تجارتهم، وأن يتناسقوا مع الأوضاع الجديدة سيما وقد صهرتهم النكبات [illegible] من جرّاء المضايقات والاضطهادات التي كانت سياسة "[illegible]" تحارب بها

---

1 - [illegible]

2 - [illegible]

الاقتصاد الإسلامي الجزائري خلال الحرب العالميّة الأخيرة فقد تواطأ الاستعمار بالجزائر مع صنائعه من غلاة الصّهيونيّة على سدّ جميع طرق الاستيراد أمام التجّار المسلمين، واحتكار "رخص الشّراء" لإنعاش التّجارة الأوروبيّة على العموم، والتجارة الإسرائيلية على الخصوص، حيث كان أرباب هذه التّجارة -في جميع الميادين- هم المسيطرين على مصالحها وإدارالها من رؤساء إلى أبسط كاتب، فانحصرت التجارة الإسلاميّة في مضيق لا تكاد تتنفّس منه إلاّ بمقدار، وإذا ما قدّر لبعض التجّار المسلمين أن يبرزوا فعلى حساب "البقشيش" المحترم، الذي كان الشّفيع الوحيد المسموع الكلمة، النّافذ الإرادة، أو على حساب بعض الضمائر التي كانت سهامها مرتفعةً في بعض الأسواق.

ولم يكن هذا النوع في "الحيف والميز" بالنسبة للمسلمين خاصًا بالتجار فقط، بل كان يطبق في أقسى صوره وأفظع معانيه على جميع المستهلكين منهم، فإن "رقاع التوزيع" التي كانت تغدق بدون حساب على السكان الأوروبيين فتسرب لسراديب السوق السوداء، كانت تقتر على المسلمين تقتيرًا فاحشًا بعدما يختلس الكتاب والمحسوبون منها نصيبهم الموفور.

ولم يقتصر هذا الظلم السّافر على الذين يمشون على الأرض من المسلمين بل سبقهم إلى الأجنة في بطون أمهاتها، إذ يكفي أن تدلي الحامل الغير المسلمة بشهادة الحمل لتأخذ قسطها وقسط مولودها المنتظر في اللباس والغذاء، بينما لا يسمح للحامل المسلمة بأخذ شيء من ذلك حتى تضع حملها، وما يدريك لعل المولود لا يكون بشرًا !!!

وإذا كتب الله السلامة والعافية بعد كل هذه الإحراجات للتاجر أو المستهلك المسلم، فما كان له أن ينجو من يد "شرطة المراقبة" التي كانت حدٌ حريصة على تطبيق سياسة الامتصاص والاستنزاف والتفقير، حرصًا تركها تطارد المسلم في دكانه وفي عقر بيته آناء الليل وأطراف النهار، وتلاحقه بأساليب وحشية من

ضرب وتعذيب وترويع، وسواء كان آثمًا أو بريئًا، فهو "المذنب رغم أنفه" ولا مناص له في إحدى ثلاث: البقشيش الباهض مالاً، أو الغرامة الفادحة ارتجالا، أو السجن حالا.

ومن البديهي، وقد أصبح التاجر المسلم بعد الحرب يتطلع إلى الشراء في المصانع الأوروبية مباشرةً ويهتم بتجارة الجملة والتكتل في نطاق شركات، أن يكون التجار الإسرائيليون ألبًا عليه مع الاستعمار، دفاعاً عن غريزة الاستغلال المتروثة فيهم إذ يشعرون أن البقرة الحلوب الضاحكة قد انقلبت عابسة ثائرة تتأهب للانفلات والانعتاق وأن التاجر الجزائري المسلم تعلم أن يقطع البحر إلى أوربا وأن يتحرّر من الحجر والوصاية الإسرائيلية التي كانت تفرضها عليه عزلته وانحلاله ومركبات النقص التي ركزها فيها الاستعمار الغاشم.

فتأسست شركات جزائرية ضخمة كان الميزابيون من طلائعها في سائر أنواع التجارة من أقمشة ومواد غذائية وماعون[1]، وحمامات عصرية، وشركات سينمائية، ومصالح النّقل، وتقدم شبالهم إلى ميدان النّيابة التجاريّة التي كانت من اختصاصات اليهود وبعض الفرنسيين، فنظموا مكاتب على الأساليب الحديثة، وربطوا أوثق الصلات بمعامل ومصانع أوربا وأمريكا.

وتفرع نشاطهم إلى ميدان الحرف والصناعة، فأسّسوا مشاريع ضخمة للبناء، والتجارة، ومصانع محترمة للعطر، والصابون، والحناء، والغسول المائي، والخل وصناعة النّحاس.

وهذه النهضة الاقتصادية التي قام بها الجزائريون عمومًا والميزابيون منهم خصوصًا وساروا فيها بأقدام ثابتة وخطوات موفّقة أثارت عليهم حفائظ مستغليهم بالأمس من الإسرائيليين فأعلنوها حربًا عوانًا بشتّى الوسائل، فمن حملات الأراجيف، وإدخال الرّيب والشكوك لدى المصانع، إلى دسائس ومكائد في البنوك

1 - الماعون: يعني به الأواني المنزلية.

-ويبلغهم مقالبه إدارتها- إلى وشايات لمصلحة الغرائم[1]، وبوليس الرّقابة المزدوجة، وما كانت كل هذه المؤامرات المنظمة، لتنال من عزائم أولئك التجار الذين لا يعتبرون الثبات في مراكزهم مصلحة تجارية فقط وإنما يرونه واجبًا تدفعهم للقيام به إرادتهم الصادقة في التحرّر والانطلاق من أغلال العبودية الاقتصادية، وبراثن التسخير والاستغلال، تُنشطهم على هذه المصابرة عقيدة الشعب الجزائري الواعي في وجوب التكافل والتضامن، والتفضيل.

وكان الاستعمار يستغل هذا الحقد الدفين ليجعل من بني إسرائيل الشرارة الأولى لإضرام لهيب الفتنة العنصرية، والمذهبية بين طبقات الشعب الجزائري العربي المسلم وإشاعة القطيعة والجفاء بين أبنائه، حتى يتلهى الشعب المجاهد عن كفاحه بفتنة داخلية، قد تجره للهزيمة لو لم يتفطن لعواقبها فيقضي عليها في مهدها.

1 - مصلحة الغرائم: مصلحة الضرائب.

ملحق

عن الاحتجاج الذي وجّهه الميزابيون إلى الباب العالي حينما حاولت السلطة التركيّة المركزيّة بالجزائر رفع الغرامة التي كان معمولاً بها مع الميزابيين، بقطع النظر عن أسلوبها التقليدي الذي أصبح في هذا العصر مرغوبًا فيه، ليس يهمّنا إلاّ الجانب التاريخي، وهذا نصّ الرّسالة بعد البسملة والعقدة:

وبعد، فإلى سلطان سلاطين الإسلام، والمالك رقاب الأنام ظلّ الله سبحانه على جميع العالمين وركن شديد للإسلام والمسلمين، وحصن منيع يلجئون إليه عند كلّ ملمّ، وملجأ رفيع يأوون إليه عند كلّ مهم، السّلطان الأعظم، والكهرمان الأكرم، ذي الحضرة العليّة والطّلعة السّنيّة الحائز قصب السّبق في مضمار الأمانة، والمشيد مدارج الدّولة السّلطانيّة على ممرّ الأزمان، نعني بذلك من اسمه مشتق من الجميع والبهاء ومحاسنه موقوفة بنجم السّماء، سيّدنا ومولانا "الحسن الجليل الدّولاتلي الباشا المرضي، حسّن الله أيامه وأعلى مقامه وخلّد ملكه:

مولى ملوك الأرض من في وجهه ... مقياس نور أيما مقياس
بدر محيا وجهه الأمن لنا ... مغن عن القمرين والنبراس
من أسرة شرفت وطابت واعتلت ... من أن يقاس علاؤها بقياس
ورثوا الخلافة كابرًا عن كابر ... بصحيح إسناد بلا إلباس
فروى علي عن رسول مثلما ... يروي عن الفاروق ربّ الباس

سلام الله سبحانه عليك بعد بعد ألف ثناء وتحيّة وإكرام، يخصّك ويعمّ من كان تحت لوائك وعزّك من الحكّام والولاّة والوزراء الّذين هم أسود الله في أرضه، من المسلّمين عليك "خدّامك" جموع بني ميزاب، المشتكين إليك ما أنزل بهم وحلّ بساحتهم من الأمور الصّعاب، التي لا طاقة لهم عليها بلا سبب من الأسباب.

وهي أنك تريد أن تضرب عليهم الغرامة الماليّة على يد صاحب الولاية الشرقيّة على غير ما كنّا عليه في القديم، وتريد أن تبدّل أحوالهم المسطّرة من الأسلاف والأجداد في الدّيوان مع ما هم فيه في الصّحراء القاحلة ممّا لا يطاق وصفه ولا يحصى عدّه من تحمّل المشقّات والأتعاب والحشرات التي تطوق كواهلهم. وهذه الصّحراء قد جرّبها الملوك العظام والسّلاطين الجسام فسلموها لهم في السّاعة والحين، وهربوا منها على رؤوس الأنجاد في العالمين.

فانظر يا مولانا في هذا الأمر والشّأن، وتدبّر بعين البصيرة والجنان، وفي عاقبة على ممرّ الأزمان، فإنّ الله تعالى لم يجعلك في ذلك المكان إلاّ لتزيد قوانين الأوّلين حكمًا، وقواعدهم إتقانًا وإبرامًا، وتدبّر في الدّاني والقاصي، وتأخذ الحقّ من المطيع والعاصي وتنصت لكلام المتظلّمين، وترعى في رعيّتك و"أصدقائك" حقوق ربّ العالمين. فإنّ هذا منكم لا نزيدكم إلاّ شرفًا وتعظيمًا ومحبّة وتكريمًا. فإنّ تبديل الأمور ليس من شيمكم، وتغيير الأحوال ليس من طبيعتكم، بل شنشنتكم الضّبط والإحكام، وعادتكم الإتقان والإبرام والجدّ فيما فيه صلاح الإسلام اقتداءً بنبيّنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

على أنّ في ظنّ بني ميزاب واعتقادهم (المساوي لاعتقاد العسكر الأحباب) أنّ ما سمعوه عنكم لا يمكن ولا يقع، فكيف يكون ذلك وأنّهم تلاقوا مع عسكر التّرك الأعلى في يوم واحد على العدوّ، وعقدوا نيّة واحدةً وأخلصوا طويّةً واحدة، ورسموا ذلك في الدّفتر والدّيوان وسطّروه على ممرّ الدّهر والأزمان، خلفًا عن سلف، صيانة عن تلف.

فإن قلت يا مولانا لابدّ من هذا فإنّا نطلب منك حينئذ أن تسرّح أولادنا النّازلين بلاد الجزائر بالأمان العاملين منها بالإحسان أن يذهبوا إلى ما يختارونه من البلدان، وأرض الله واسعة ما دام الزّمان.

عجبت لمن يعيش بغير عزّ | وأرض الله واسعة فضاها

والسّلام عليكم مولانا، ورحمة الله.

هذه الوثيقة التاريخيّة تتّسم بالطّابع الدّبلوماسي الذي تتّسم به عادة مذكّرات الاحتجاج المتبادلة بين دول يربطها التّكافل السّياسي والتّبعيّة التحالفيّة في دائرة احترام السّيادة، فنلاحظ فيها إلى جانب المجاملة المتناهية لينًا في شدّة وشدّة في لين وتقف في خاتمتها على تهديد صريح بقطع العلاقات الدّبلوماسيّة والمعاملات الاقتصاديّة وفي هذا يتجلّى لنا نوع التّرابط السّياسي والاقتصادي الذي كان يجري به العمل في ذلك العهد بين الميزابيين والأتراك. وهذه وثيقة أخرى يهدد بها المنعم صالح باي أهالي "ورقلة" التّابعين لميزاب، وقد تعمّدوا الخبيث من العبيد حين دفعوا الغرامة المضروبة عليهم وهذا نصّها:

حفظ الله تعالى بمنّه، ولم يجعل سوء ذات المكرم أحبنا شيخ ورقلة وكافّة الجماعة، أسعدهم الله بمنّه وكرمه، آمين.

السّلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته ورضوانه العميم وتحيّته، وبعد،

فقد ورد علينا المكرم قائد المدينة وأتانا بالعبيد الذين دفعتم له هديّة وذكر لنا أنكم دفعتم أربعة رؤوس من العبيد، واحدة عائبة، وأخرى عجوز، والأخرى طرشة، والأخرى عمشة.

و أيضًا لم تجعلوا له حرمة، وتعطوه عوائده ولا عوائد الخدّامة، وقد خرجتم عن الجدّ والآن هاهو المكرم ابننا السّيّد أحمد قائد المدينة قادم إليكم فمكّنوه من العبيد، وخيّروا له أحسن العبيد، وأعطوه فوائده وفوائد من معه، وإن امتنعتم عن ذلك أو نقصتم له شيئًا من فوائده فلا تلوموا إلاّ أنفسكم؛ والسّلام.

فنلحظ جليًا كيف سمّى الغرامة هديّة ثمّ ختم رسالته بالتّهديد وفحوى هذا التّهديد هو احتلال ورقلة والاستيلاء عليها بعد ما كانت تتمتّع بكيانها الشّخصي حتّى المجموعة الميزابيّة ولسنا ندري ماذا كان جواب أهل ورقلة على هذا التّهديد.

فهرس

حصص إذاعية

تاريخ المقاومة الجزائرية

تاريخ الصحافة العربية بالجزائر

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

أضواء على واد ميزاب

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية الجزائر

2007

Achevé d'imprimer sur les Presses
l'ENAG, Réghaia
- Algérie -

Bp. 75 Z.I. Réghaia Tél.: 021 84 80 10/84 86 11



مفدي زكرياء

شاعر الثورة الجزائرية



ما يمكن الإشارة إليه في أول وهلة هي أن المواضيع التي عالجها مفدي زكرياء في هذه الحصص الإذاعية تعبّر بوضوح عن التزام صاحب "قسما" وعن أبرز اهتماماته الشخصية وكان لكل من "تاريخ المقاومة الجزائرية" و"تاريخ الصحافة العربية في الجزائر" و"أضواء على وادي ميزاب" إرتباط وثيق بحياة المؤلف ومرجعياته ونضالاته.



